تذكّري...

قصّة الشّهيد المدافع عن حرم أهل البيت عليهم السلام

حميد سياهكالي مرادي (كما ترويها زوجته)

٧

يجب أن تكتب في التاريخ...

تأليف:

ترجمة:

يجب أن تكتب في التاريخ ...

قرأت كتاباً أعجبني كثيراً، يحتوي على قصة حقيقية لبنت وولد كلاهما شابان -زوجان- من مواليد التسعينيات، نذرا الصيام ثلاثة أيام قربة الى الله تعالى من أجل ألا يتلوث حفل زفافهما بالآثام، وأرى أن هذا يجب تدوينه في التاريخ إنّ شابين، ولد وبنت، تضرعا إلى الله وصاما ثلاثة أيام من اجل ألا يحصل في زفافهما أمر مخالف للشرع رغماً عن إرادتهما. توجه الزوج للدفاع عن حرم السيدة زينب عليها السلام؛ فتحطم قلبه لبكاء الزوجة؛ فقال للبنت -زوجته- دموعك تحطم قلبي لكنها لا تهز إيماني! فترد الزوجة قائلة: لن أقف دون ذهابك، لا أريد أن أكون في اليوم القيامة من النساء اللاتي يخفضن الرؤوس أمام سيدتنا فاطمة الزهراء! هذه الأمور لم تقع قبل مائة عام او مائتي عام، هذه الأحداث كانت في عامي ٢٠١٥ و ٢٠١٦ في عصرنا هذا، في هذه الأيام التي نعيشها؛ هذا الأمر يحصل اليوم. يوجد أمثال هؤلاء في جيلنا الشاب، هذه الحقيقة النورانية تتجسد في هذا الجيل؛ يجب كتابة هذا، يجب رؤيته، يجب فهم هذا. الأمر لا ينحصر في هذه الحالة فقط حتى يقال «الزهرة الواحدة لا تدل على فصل الربيع»، بل هناك الكثير مثل هذه الحالات. هذان الاثنان -الزوج والزوجة- اللذان تحدثت عنهما، كانا طالبين جامعيين، الولد ذهب واستشهد؛ فأصبح ضمن كوكبة شهداء الدفاع عن حرم سيدتنا زينب عليها السلام الأعزاء. هكذا هو الحال.

نفس وكلّ كلام كان درساً بالنسبة لي، كنت أشعر بأنّي تلميذة في محضر أستاذ، وأنهل في كلّ لحظة منه درساً.

كان يختلف عن كلّ النّاس الذين عاشرتهم في نظرته إلى الدنيا وإلى الآخرين، كان سامياً. ولا أعرف كيف يمكنني أن أصف لكم حال إنسان فقد صديق طفولته، زوجه ورفيقه وأستاذه.

عمري أربعة وعشرون عاماً ولكن لا أعلم ربّما فقدت في الحقيقة أربعة وعشرين عاماً من حياتي، أن أعيش وأبقى ثابتة على النهج يتطلّب إرادة وعزماً، ولكنّي أعتقد أنّ السنوات الثلاث التي قضيتها مع زوجي كانت أفضل لحظات عمري.

ولا أعلم حتّى الآن مكان شهادته ولا أعرف سوى أنّ اسم ذاك المكان هو «حلب» في سورية،وأشعر ببرودة أحجار ذلك المكان.وأمضي أيّامي بدونه والأمل يداعبني بأذان آخر وقول نعم الذي سأقوله له، ولقائي به.

ولكن بقلب يتقطّع كلّ يوم، بظهر قد انحنى، بثقل حملته على كتفي، أرسل سلامي لكلّ النجباء الذين ضحّوا من أجل حفظ كرامة حرم الله، عقيلة بني هاشم، السيّدة زينب عليها السلام، وكانوا على بصيرة فنصرونا.

وقد كنت أشعر بقلق عجيب أمام كتابة ذكريات هذه القصة، فلم أكن أحبّ تذكّر تفاصيل حياتي موقفاً بموقف، وربما كان ذلك نوعاً من الدفاع الداخلي في مواجهة هذا الحدث العظيم الذي ألمّ بي، ولكن وفاءً للعهد الذي قطعته لزوجي بكتابة ذكرياته، بدأت واتخذت قراري، وعندما طلب منّي الكتابة قبلت متوكّلة على الله سبحانه وتعالى.

صحيح أنّ القلم يعجز عن بيان عذوبة حياة الشهداء وجمال سيرتهم، ولكنّ الحقيقة أنّ هذا الكتاب قد كتب بحميميّة وروعة وبساطة، تماماً كحميد وأنا. وقد أعجبني كما هو أكثر من أيّ شيء آخر، وأحياناً تكون البساطة جميلة.

وفي النهاية أتقدّم بالشكر إلى القلم الجميل والرائع للكاتب الموقّر وأخته الجليلة اللذين بذلا جهداً كبيراً في جمع المذكّرات وإعادة صياغتها وتكميلها، وأتمنّى عليهما أن يسامحاني. وإن وجود أمثال هؤلاء ممّن يسعى إلى تأمين الغذاء المعنويّ للمجتمع هو وجود ذو قيمة، إن عرفنا قدره، إن شاء الله...

فرزانه سياهكالي مرادي

اسفند ١٣٩٦/ مدينة مشهد المقدسة.

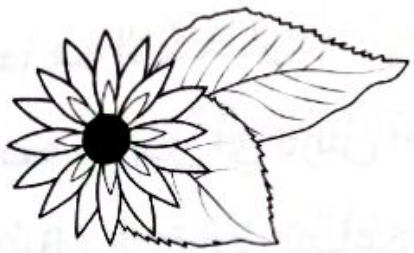

الفصل الأول

ابتسامة، دلال وخيال

كان ذلك شتاء عام تسعين[1] البارد، وقد بقيت عدّة أيام لبدء السنة الشمسيّة الجديدة[2]، كانت الشمس تشرق أحياناً وتختفي حيناً آخر، ولم يكن هناك أي أثر لمطر أو ثلوج، وكأن الشمس والغيوم كانتا تمارسان معاً لعبة القطّ والفأر، وشيئاً فشيئاً راح يحلّ مكان برد قزوين القارس طقس ربيعيّ، كانت الليالي طويلة حيث تشعر بميل أكبر للبقاء في الفراش أو أن تجلس إلى جانب الكبار وتستمع إلى قصص الطفولة في تلك الليالي الحميمة.

---

١ الموافق لعام ٢٠١١م.

٢ وفق التأريخ المعتمد في الجمهوريّة الإسلاميّة وهو الهجري الشمسي والذي يبدأ من فصل الربيع.

وكم من المثير أن ترهف السمع بجوارحك، ومن جديد كأنها المرة الأولى التي تسمع فيها هذه الذكريات فيسري في داخلك شعور لطيف عندما تخبرك أمك: عندما اقتربت ولادتك كنا نعتقد بأنك صبي، اشترينا لك كل ما يلزم الصِبية من ملابس وأغراض، وبعد أن ولدتِ أطلقنا عليك اسم «فرزانه»[٣] لأنّنا كنا نرى فيك بنتاً مجتهدة وذكيّة. وهذا ما كان بالفعل، ابنة هادئة ورزينة، حريصة على درسها ومنظّمة، وجلّ ما يشغلها في الصيف هو الامتحان.

كانت دروس اللغة العربية أصعب من أيّ درس آخر، كنت متردّدة بين الجواب الأول والرابع، كنت أنظر مرّة إلى ساعتي وأخرى إلى السؤال الذي أمامي، كان من عادتي أن أحدّد لنفسي وقتاً ثمّ أختبر نفسي، وهذا ما كان يشعرني بالاضطراب إلى درجة تعرق معه يداي، كانت العائلة بأجمعها تعلم بأني هذا العام على موعد مع مباراة الدخول إلى الجامعة، ولم يتبقّ سوى أشهر قليلة، التصقت بالكتاب والاختبار، وكنت على الدوام أراجع في كتبي، نسيت كلّ تاريخ وبت أفكّر فقط بيوم الامتحان.

كانت نصف حواسّي في غرفة الاستقبال ونصفها الآخر مع الاختبارات التجريبيّة التي أتمرّن عليها ودفاتري، لقد حلّت ضيفة علينا عمّتي آمنة وزوجها. كانت نتيجة إحدى الاختبارات سبعين بالمئة صحيحة، ومع أني كنت مشتّتة الحواس، ولكن لا بأس فالنتيجة جيّدة، وكنت غارقة في هذه الحال إذ قفزت أختي فاطمة إلى غرفتي دون أن تطرق الباب، وقالت بحماس وهي تغلق الباب خلفها بهدوء: فرزانه هناك خبر جديد. نظرت إليها متعجّبة وذهني لا يزال مشغولاً بالاختبار، فحاولت أن

تدخل في صلب الموضوع فقلت لها ما الذي جرى؟ نظرت إليّ بدهاء وقالت: الخبر المهم لا يمكن أن يقال بهذه البساطة، كنت أعلم أنّ فاطمة لن تتحمّل أن تسكت أكثر فأظهرت عدم المبالاة، وبينما كنت أتصفّح كتابي قلت: ليس مهمًّا أن تخبريني، أريد أن أدرس، إذا ذهبت فأغلقي الباب خلفك. قالت: ما هذا دائماً درس وامتحان؟ اخرجي من غرفتك واسمعي ما الخبر، عمّتي تطلب يدك من أبي لابنها حميد. كان الأمر بعيداً عن توقّعاتي، وبالأخصّ في الحال الذي أنا فيه، حيث يعلم الجميع بأنّ هناك أشهراً قليلة بقيت على مباراة الدخول إلى الجامعة، وكم يحوز هذا الموضوع عندي من أهميّة. ومن الملفت أنّ حميداً لم يأت. لقد جاء أمه وأبوه وحدهما. شعرت بالخوف، ولم أكن أدري ما أفعل، لم أتجاوز بعد صدمة هذا الخبر حتى دخل والدي إلى غرفتي وسألني دون مقدّمات: حبيبتي فرزانه هل ترغبين بالزواج؟ طأطأت رأسي خجلاً، وقلت متلعثمة: لا من الذي قال هذا؟! لديّ امتحان ولا أفكّر بالزواج أبداً، وأنت تعرف هذا جيداً.

وذهب أبي لتدخل عليّ أمي وهي تقول: ابنتي إنّ عمتك تريد منّا جواباً، أنت تعلمين أنها قد حدّثتني بالموضوع منذ عدّة سنوات فما رأيك؟ ماذا نقول لها؟ كان جوابي هو نفسه. ثمّ قلت لأمي: وكي لا تتأذّى عمتي أخبريها أني أريد أن أدرس.

كانت عمّتي تكبر أبي بأحد عشر عاماً، وكان بيتا جدّي لأمّي ولأبي يقعان في حيّ واحد، وكانت عمّتي هي الوسيط في زواج أبي وأمي، لذا كانت أمي تناديها بأختي، ولم تكن علاقتهما علاقة زوجة أخ وابنة عم، بل كانتا صديقتين تتبادلان الودّ والاحترام.

وكان قد طرح موضوع الزواج عام ٨٧[٤]، كنت حينها في السنة الثانية من المرحلة الثانوية. فبعد أن تمّ زواج حسن الأخ الأكبر لحميد، خاطبت عمتي أميَ بالقول: لا بدّ من الوفاء بالوعد يا زوجة أخي! عندما كان هذان الاثنان طفلين قلتِ: يجب أن يصبح حميد صهري، وأنا الآن أطلب يد فرزانة يا سيّدة منيرة. وبعد مرور أربعة سنوات، هذه المرّة اتخذت عمّتي عقد قران سعيد الأخ التوأم لحميد ذريعة لتفتح موضوع الزواج.

كان لحميد ستّة إخوة وأخوات، وكان الفرق بيننا أربع سنوات، وفي الثالث والعشرين من شهر «بهمن[٥]» عقد سعيد قرانه على محبوبته وبعده بخمس وعشرين يوماً تقدّمت عمّتي لطلب يدي بشكل رسمي، وكان والد حميد يقول: لقد عقد سعيد قرانه وبقي حميد، وفي اعتقادي أنّه حان الوقت لنبادر إلى موضوع حميد ولا مكان أفضل من هنا.

وكانت عمّتي قد سعت أن تتوسّط لدى أعمامي وزوجاتهم ليكلّموني، ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على طرح الموضوع بشكل مباشر، فأبي كان حسّاساً بالنسبة لبناته، وكان على علاقة وطيدة بي، وكانت العائلة كلّها تتبنّى الرأي نفسه: فرزانة حالياً غارقة في دروسها انتظروا لكي تتضّح نتيجة الامتحان والجامعة، ثمّ تشرعون في أمر الزواج.

لم أكن أعلم ما الذي سيجري بعد رفضي للموضوع. وبينما كنت أمشي وأحدّث نفسي، إذا بعمّتي تدخل غرفتي. استرقت نظرة إلى وجه عمّتي الذي يبدو عليه الحزن، ولم أستطع الفرار من نظراتها، قالت لي بلحن جاد: فرزانة أنت ابنة أخي، وسأقول لك شيئاً فلا تنسه! إنّك لن تجدي أحداً أفضل من حميد، وهو لن يجد فتاة أفضل منك. سنرحل الآن ولكن سرعان ما نعود، ولن نتركك أبداً.

---

٤ الموافق لعام ٢٠٠٨ م.

عندما شعرتُ أنّ عمتي مستاءة وغير مرتاحة إلى هذا الحدّ، اقتربت منها واحتضنتها، وكان الخجل والحياء يمنعاني أن أقول ما أريد بيسر، لكنّي لم أكن أريد أن أسبّب خلافاً عائلياً، ولم أكن أحبّ أن يحصل أيّ سوء فقلت: عمّتي الغالية لا أراك الله مكروهاً! لم يحدث بعد أيّ شيء؛ فلمَ كلّ هذه السرعة؟ أمهليني قليلاً أقدّم الامتحان، وليأت حميد في المرّة القادمة فنتكلّم معاً، ثمّ نتّخذ قرارنا براحة بال، فليس بوسعنا أن نفعل شيئاً في هذه الغوغاء والدرس والامتحان. ولم أكن أعي ما أقول، بل شعرت بأنني بمجاملاتي هذه قد نجحت في إسكات عمّتي، وليس هناك من حيلة أخرى فأنا لا أحبّ أن تترك بيتنا غير راضية.

لكن لم يكن لجهودي أيّ أثر، فعندما وصلت عمّتي إلى البيت، نقلتِ الكلام والعتاب إلى جدّتي فيروزة وقالت لها بكلّ حسرة: هل علمتِ بما جرى يا أمي؟ لقد امتنع أخي عن قبول ابني صهراً له، لقد خيّبوا أملنا، لقد أمضيت وقتاً طويلاً أسعى أن تكون فيه فرزانة لحميد والآن يرفضون، لقد كسروا خاطري.

جدتي فيروزة هي جدتنا لأبينا أنا وحميد، هي من تلك الجدات الحنونة المحبة التي يقسم الجميع بها، كانت جدتي تخضب شعرها الأبيض بالحنّاء وكلّما اجتمعنا حولها كانت تفتح لنا صندوق ذكرياتها وقصصها لتحكي لنا عن قديم الزمان. وكنت أنا أشبه جدّتي كثيراً، فقد تحمّلت في حياتها الكثير، فقدت جدّي وهي في الثلاثين من عمرها، فقد مات على أثر تعرّضه لصاعقة، وبقيت جدّتي مع أطفالها الأربعة: عمّتي آمنة، عمّي محمد، أبي وعمّي نقي. وقد تولّت رعاية أطفالها بمشقة عظيمة؛ لذا تكنّ لها العائلة احتراماً خاصاً.

وبعد عدّة أيام من عطلة «النوروز»[٦] زارتنا جدّتي، وعادة عندما كانت تشتاق لنا كانت تحلّ ضيفة علينا ليومين أو ثلاثة، ومنذ الساعة الأولى لمجيئها كانت تتذرّع بأيّ شيء لتفتح موضوع حميد. وكنّا نجلس في غرفة الاستقبال نشاهد التلفاز حين قالت: فرزانة! عندما علم حميد بالأمر ذلك اليوم الذي رفضتِ فيه خطوبته تغير لونه؛ إنّه يحبّك كثيراً فقلت ممازحة: لا تصدّقي يا جدتي! شباب هذه الأيام يحبّون في الصباح، وعندما المساء ينسون.

قالت جدّتي: يا ابنتي أنا لست عديمة الخبرة في الحياة، وأعرف أنّ حميداً يريدك، وعندما نذكر اسمك أمامه تحمرّ وجنتاه خجلاً، وبما أنّ سعيداً قد عقد قرانه، فقد بقي حميد وحيداً، دعي العناد جانباً، وقولي له: موافقة؛ فحميد إنسان جيّد، ومنذ سنوات بعيدة وهذا الكلام مطروح في بيت عمّتك، وعندما فتِحَ موضوع زواج الأخوين التوأمين كان الجميع يقول: لنبحث عن عروس لسعيد، أمّا حميد فالأمر واضح، فهو يريد ابنة الضابط.

أردت أن أغيّر مجرى الحديث فقلت: معك حقّ يا جدّتي، والآن جاء دوري لأتكلّم، إحكِ لي قصة من قصص «عزيز ونگار»[٧] فقد اشتقت إلى تجمّعنا حولك لتحكي لنا قصة. ولكنّ جدتي كانت مصرّة بشدّة، وبعد رفضي لموضوع الخطبة، كانت جدّتي هي الوحيدة التي تتكلّم حوله؛ فهي تحبّ أن يقترب أحفادها من بعضهم، ويحصل هذا الارتباط، لذا لم يمرّ يوم لم تحدّثني فيه عن حميد.

كنت أجلس أمام فناء الدار أقرأ، فسمعت صوت جدّتي تناديني، ثم أرتني صورة حميد وقالت: فرزانة! انظري كم أصبح جميلاً وطويل القامة!

---

٦ عيد بداية السنة الإيرانية الشمسية.

٧ قصة من التراث الإيراني.

انظري إلى لون عينيه! كم هما جميلتان! أرى أنّكما مناسبان لبعضكما كثيراً، أتمنّى أن أحضر عرسكما. كانت جدّتي قد وضعت صورة حفيدها في محفظتها، كانت صورة حميد هي تلك التي وضعها على جواز سفره قبل ذهابه إلى كربلاء.

اصطبغت وجنتاي بالحمرة من شدّة الخجل، وقلت ممازحة: أجل يا جدّتي إنّه جميل جدّاً، كان عليهم أن يطلقوا عليه اسم يوسف وليس حميد! ضعي صورته في جيبك وانتبهي جيّداً كي لا يسرقها أحد منك، وصرنا نمزح ونضحك، ولكنّي كنت على يقين من أنّ جدّتي جادّة فيما تقول، ولن يهدأ بالها حتّى تربطنا معاً.

ولم تكن جدّتي قد ذهبت حتّى اقترب أبي منّي وهو يحمل كوباً من الشاي قد أعد للتوّ، فقالت له: لم أقو على ابنتك، كلّمها، قد تتمكّن من إقناعها.

ورغم رغبة أبي وأمي في أن يكون حميد صهراً لهما، لكنّهما فوضا الأمر إليّ، وضع أبي كوب الشاي إلى جانبي وقال: فرزانة يا ابنتي! أنا الذي قمت بتربيتك، وأعرف ما الذي تنطوي عليه نفسك، وأعرف أنّك لا يمكن أن تعيشي مع أيّ إنسان وأعرف حميداً تماماً كمعرفتي بكفّ يدي؛ فهو ابن أختي وزميل لي في العمل، ولعدّة سنوات نعمل معاً في النادي الرياضي، وأعتقد أنكما وُجدتما من أجل بعضكما، فلماذا رفضتِ حميداً؟

حاولت أن أقنع والدي فقلت: أنا لا أقصد حميداً بالذات، أنا لست مستعدّة للزواج مع حميد أو غيره، لا زلت بعيدة عن الحياة المشتركة، ولا يزال الوقت مبكّراً بالنسبة لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها، أمهلني حتّى أرى نتيجة امتحان الدخول إلى الجامعة، ثمّ نجلس بعدها في الوقت المناسب، ونرى ما الذي سنفعله.

وبعد مرور عدّة أشهر على هذه القصة، عاد عمّي نقيّ من الحجّ فدعى جميع العائلة إلى وليمة طعام، وعندما كنت أصعد على السلالم إلى القاعة كان قلبي يخفق وكنت أشعر باضطراب شديد، إذ كنت أتوقّع جفافاً من عمّتي وبناتها بسبب رفضي لموضوع الخطوبة، ولكن كان كلّ شيء عادياً، وكان سلوكهم معي كما في كل مرّة حارّاً ومليئاً بالمحبّة وكأن لم يحدث لا خطوبة ولا رفض.

ومرّت أيام الامتحان الصعبة والمليئة بالقلق، وتقدّمت للامتحان في صيف عام واحد وتسعين[٨]، وبعد عام من الدرس، رأيت أنّ قبولي في الجامعة يمكن أن يكون أكبر خبر سارّ بالنسبة لي، وبعد قبولي في جامعة قزوين لعلوم الطبّ، شعرتُ بالراحة، وغامرني فرح عارم؛ لأنّي حصلت على نتيجة جهدي مدّة عام، وكذلك شعر أبي وأمي بالفرح، و كان يملؤني إحساس جميل لأنّي استطعت أن أشعرهما بالفخر.

وقبل أن أتلذّذ بحلاوة نجاحي بدأت تنهمر عليّ طلبات الخطوبة بوسيط ودون وسيط، ولم أستطع أن أفكّر في أيّ أحد منهم.

كانت أمّي محتارة في أمري فسألتني: لماذا لم تقبلي بأيّ منهم، لماذا ترفضين كلّ أولئك الخاطبين؟! كانت تلك الحيرة تعذّبني ولم أكن أعرف ما هو واجبي.

وبعد إعلان نتائج الامتحان وجدتُ من جديد فرصة لأرتّب غرفتي، فوضعت الكتب الدراسيّة جانباً ورتّبت مكتبتي، ومن بين الكتب وقع ناظري على قصة « نيمه ماه پنهان» أي « نصف القمر المخفي» وهي قصة حياة الشهيد «محمد إبراهيم همّت» على لسان زوجته، و كانت ذكرياته جذّابة وتشدّ إلى القراءة بالنسبة لي دائماً فهي قصة تحكي عن

العشق الأزليّ بين قائد عمليّة «خيبر» وزوجته.

تصفّحت القصّة ووصلت إلى ذكرى تحكي عن زوجة الشهيد التي صمّمت أن تصوم أربعين يوماً وتتوسّل بأهل البيت عليهم السلام، وبعد هذه الأربعينيّة تقبل بخطوبة أوّل خاطب لها.

وكانت قراءة هذه السطور مفتاحاً لإخراجي من الضياع الذي أنا فيه طيلة هذه الأسابيع، فقلت في نفسي: سأفعل كما فعلت زوجة الشهيد «همّت». ثمّ فكّرت قليلاً، فرأيت أنّ صيام أربعين يوماً في هذا الصيف الحارّ صعب جدّاً، وحدست أنّ زوجة الشهيد ربّما نذرت هذا في الشتاء فقرّرت أن أقرأ دعاء التوسّل بدلاً من الصيام على نيّة أن يخرجني ممّا أنا فيه ويحصل ما هو خير والذي يحبّه الله يكون نصيبي.

وبدأت بتنفيذ نذري منذ ذلك اليوم، ولم يكن أحد يعلم بالعهد الذي قطعته حتى أمي، وكنت أقرأ دعاء التوسل كلّ يوم وكلّي أمل أن يساعدني أئمة أهل البيت عليهم السلام.

* * *

وفي ... وتسعين، وفي إحدى أيام ... أن بدأت

«همت». [illegible] أن صيام أربعين يوماً في هذا الصيف الحارّ صعب جدّاً، وحدست أنّ زوجة الشهيد ربّما نذرت هذا في الشتاء فقرّرت أن أقرأ دعاء التوسّل بدلاً من الصيام على نيّة أن يخرجني ممّا أنا فيه ويحصل ما هو خير والذي يحبّه الله يكون نصيبي.

وبدأت بتنفيذ نذري منذ ذلك اليوم، ولم يكن أحد يعلم بالعهد الذي قطعته حتى أمي، وكنت أقرأ دعاء التوسل كلّ يوم وكلّي أمل أن يساعدني أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وفي الخامس من شهر شهريور[9] عام إحدى وتسعين، وفي إحدى أيّام الصيف الجميلة الدافئة، وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد أن بدأت برودة العصر تذهب باختناق الهواء ورطوبته شيئاً فشيئاً، الوقت الذي إذا نظرت فيه من النافذة إلى فناء الدار ترى جميع الورود والشجيرات في الحديقة تبحث عن استراحة في الظل.

وكان لا يزال يعتريني في داخلي تعب جرّاء عام من الدرس للامتحان، كنت أغمض عينيّ أحياناً وأعبُر من شهريور إلى مهر[10]، إلى تلك الأيام

---

[9] الموافق لـ٢٦ آب ٢٠١٢ م. وشهريور هو الشهر السادس من الشهور الإيرانية.

[10] من آب إلى أيلول.

التي سأجلس فيها على مقاعد الجامعة، وأجرّب الدراسة الجامعيّة بكل أطوارها. لكنّي كنت أفتح عيني من جديد لأجد نفسي بين أزهار الحديقة وأشجارها وسط الدار.

وتعود علاقتي بالورود إلى أيام طفولتي حيث كان غالباً ما يذهب أبي إلى خدمته العسكرية ويترك المنزل، وكي لا تؤذيني الوحدة كنت أشغل نفسي بالورود والحديقة والأشجار.

وانتبهت لنفسي على صوت أخي علي وهو يقول لي: أعطني السلّة، وتعاونّا معاً على قطف سلّة من التين الطازج غسلت عدّة حبات من التين ووضعتها في صحن وأخذتها إلى أبي. كان أبي في إجازة لعدّة أيام، فقد رضّت رجله جرّاء تمارين الكاراتيه، لذا كان يستعين بالعصا، ولم يكن باستطاعته الذهاب إلى العمل، وكانت جدّتي عندنا لعدّة أيام.

وبينما كنا نتناول حبّات التين، سمعنا جرس الباب، وبعد أن فتحت أمي أخذت الـ «شادور»[11] قائلة: جاءت أختك آمنة وأبناؤها لعيادتك.

دخلت إلى غرفتي بسرعة، فقد كنت طيلة العام أدرس للإمتحان، وعندما يأتينا ضيف كان يعلم بأني أدرس، ولا أخرج من غرفتي، ولكن الآن قد انتهى ولا حجّة لي.

لبست قميصي الطويل الواسع والبنّي اللون، ووضعت حجابي الكبير على رأسي على الطريقة اللبنانيّة، وكان بنيّاً فاتحاً تزيّنه الورود، وذهبت إلى المطبخ، وفهمت من صوت سلامهم أنّ عمتي وحميداً ابنها، وحسناً وزوجته قد أتوا، ولم يكن زوج عمّتي حاضراً معهم، فقد ذهب ليتفقّد مزرعته في قرية «سنبل آباد ألَموت»[12].

كانت مقابلة عمّتي وحميدٍ في هذا الوقت صعبة، فكيف إذا اضطررتُ إلى

---

١١ الزي الإيراني الذي ترتديه النساء عادة في إيران وهو يشبه الـ

١٢ قرية في

تقديم الشاي لهم؟! وعندما ملأتُ الأكواب ناديتُ أختي فاطمة قائلة لها: لو سمحتِ قدّمي لهم الشاي! عندما أخذتُ منّي صينيّة الشاي، اقتربت من الضيوف، وبعد أن سلّمتُ عليهم، جلستُ قرب زوجة حسن، ولفتُ انتباهي نظرات عمّتي المميزة وابتسامات أمي ولم أستطع أن ألبث أكثر من عدّة دقائق، فغادرت على أثرها المكان إلى غرفتي.

كنت أسمع بين الحين والآخر أصوات الضيوف، وما إن مرّت دقائق حتّى دخلت فاطمة إلى الغرفة، كنت أعلم أن مجيئها خلسة لن يكون جزافاً، وما إن رأتني حتّى استسلمت للضحك، وأمسكت بفمها حتى لا يُسمع صوتُ ضَحِكِها، نظرتُ إليها متعجّبة، وعندما طالَعَتْها نظراتي الجادّة، عادت إلى رزانتها وقالت: أظنّ أن المزاح انقلب جدّاً، قريبا ستصبحين عروساً.

قلت بوجه عابس: وما يعني هذا؟! أنا لم أسمع شيئاً فقالت: رأيت بنفسي عمّتي تشير إلى أمي وبالإيماء والإشارة كانتا تقولان شيئاً ما.

سألتها: وما المعنى؟ قالت بعد تمهّل: لا أعلم، ما الذي فهمته من كلامهما هو أنّهما سيرسلان حميداً ليتكلّم معك.

ورغم أنّي كنت قد فكّرت في الموضوع من قبل، ولكنّي الآن لا أشعر باستعدادي له، كان ذلك قبل أشهر بعد أن رفضتُ خطوبة حميد بذريعة الدرس والجامعة.

وكأنّ عمتي قد أشارت إلى أمي بأن تذهبا إلى المطبخ، وهناك قالت: نحن جئنا لعيادة أخي، ومعنا حميد، وفرزانة هنا، وهذه أفضل فرصة ليتحدّثا على هدوء، وما سيجري سيبقى بيننا، ولن يحصل شيء، سواء تمّ الأمر أم لم يتمّ، أمّا أن نأتيَ للخطوبة فلا، لأنّ فرزانة لن تقبل، وهكذا لا يكثر الكلام حولنا؛ فنحن لا يمكن أن نمنع الناس عن الكلام، والجيران وأبناء العائلة ينسجون الكثير من الكلام.

وما إن سمعت أنّه تقرّر أن أتكلّم مع حميد بدون أيّ مقدّمة وإخبار

سابق، شرعت بالبكاء، وعندما رأت أختي حالي ساءت حالها هي الأخرى
وقالت: أنا أمزح، بالله عليك لا تبكي ولا تحزني ليس هناك شيء أبدا
وعندما رأت أنّ الأمر بهذا السوء غادرت الغرفة.
كان قلبي في غاية الاضطراب، ولم يكن الأمر بيدي. حللت عقدة حجابي
لكي أتنفّس براحة أكبر، ولم يمض سوى القليل من الوقت حتى
دخلت أمّي إلى الغرفة، كان يبدو عليها الاضطراب هي أيضاً وقالت: يا
ابنتي، اسمحي لحميد أن يأتي لتتحدّثا معاً، فالكلام ليس خطأ، يتعرّف
أحدكما على الآخر، وفي النهاية ما تقولينه هو الذي سيكون. سالت
دموعي وقلت بشكل جادّ: لا أبداً، أنا لا أنوي الزواج، وقد قُبلت حديثاً
في الجامعة وأريد أن أدرس. وما إن خرجت أمي من الباب حتّى دخل
أبي يتوكّأ على عصاه وقال: أنا لن أقول لك تحدّثي إليه، ولا أقول لا
تتحدّثي، كما تشائين، هل تريدين أن تكلميه أم لا؟ سكتُّ غارقة في
حيرتي ثمّ قلت: أنا لا أريد الزواج، ولا أريد أن أتكلّم مع أحد. لا مع حميد
ولا مع غيره. ومع قدوم جدّتي انقلَبت الأوضاع، لم أستطع أن أرفض
طلب جدّتي التي قالت لي: ألا تريدين أن تصغي إلى كلامي وكلام أبيك
وأمّك؟! تكلّمي مع حميد وإن لم يعجبك، فقولي: لا. ولا أريد لأحد أن
يضيف شيئاً على كلامي، شابان يريدان أن يتكلّما ويحلاّ قضيّتهما،
تحدّثا لدقائق وسيتّضح كلّ شيء.
وكان كلام جدّتي الكلام الأخير في العائلة والجميع يحسب لها حساباً،
وصار ما أرادت فقد قبلتُ وتحدّثنا لأول مرّة.
سمعت صوت حميد وهو يقول لعمّتي بهدوء: ولكن لماذا؟ نحن لم
نُحضر زهوراً ولا حلوى.
فقالت عمتي: يشهد الله بأني تورّطت معكما، بعد أن أقنعنا العروس
بدأ العريس يتدلّل.

وصارت تدور في ذهني مشاهد الخطوبة وتلك الزهور الجميلة والقرارات الرسميّة ولكن الآن ودون أن تدري روحي كان كلّ شيء يحدث ببساطة، وأحياناً تكون البساطة رائعة.

❀ ❀ ❀

حميد الذي تقدم لخطبتي هو ذلك الصبيّ الشقي الذي اقترح والدي اسمه واسم أخيه التوأم، هو ابن عمتي الذي كان يرتدي هو وأخوه سعيد الملابس نفسها، وغالباً بنطالاً أزرق اللون طويلاً بأرقام حمراء، ذو شعر قصير جداً، وكان مشاغباً جدّاً، يميل إليّ منذ الصغر، لم يكن يسمح لي أن أختلط ببقيّة الصبيان، وعندما كان يحدث شجار بين الأولاد كان يقف إلى جانبي. كان مكبّر[13] المسجد ويرافق أباه إلى مركز التعبئة، وهذا كلّ ما كنت أعرفه عن حميد.

جلست تحت المرآة مقابل النافذة التي تطل على فناء الدار الخالية، واتكأ حميد إلى الجدار قرب الباب، وقبل أن نبدأ بالكلام أرادت أمي أن تغلق الباب حتّى نتكلّم براحة أكبر فمانعتها قائلة: ليس لدينا كلام خاص، وعندما يكون اثنان أجنبيّان في الغرفة فلا يُغلَقُ الباب.

نظرت إلى حميد نظرة فاحصة، كان يرتدي بنطالاً رمادياً، وقميصاً عادياً أيضاً رماديّ اللون قد تركه فوق بنطاله، وعرفت فيما بعد أنه عاد للتو من الخدمة لذا كان شعر ذقنه طويلاً، لم يكن وجهه واضحاً سوى عيناه اللتان كانتا تحكيان عن طهارته.

وبقينا لا ندري أيّنا يبدأ بالكلام، وكانت المملحة هي التي أنقذت حميداً فقد كان يلعب بها وينقلها من يد إلى أخرى، بينما علّقت أنا ناظريّ

على زخرفات السجادة الوردية ذات الستّة أمتار التي كانت تتصدر الغرفة، تجمّد الدم في عروقي، ومرّت عدّة دقائق من الصمت حتى سأل حميد أول سؤال له: ما هو معيارك للزواج؟

كنت قد فكّرت كثيراً بهذا السؤال من قبل، ولكنّي في تلك اللحظة صدمت، ولم يخطر في ذهني أيّ شيء، ثم قلت: أحبّ أن يكون زوجي ملتزماً يولي الدين أهميّة، والأفضل أن نبقى دون طعام من أن نبقى مدينين بالخمس والزكاة.

فقال: هذا ممتاز، أنا أيضاً أحبّ رعاية هذه الأمور، ثم سأل: ألا تعارضين عملي؟ أنا عسكريّ، وبعض الليالي أكون في الخدمة العسكريّة وأقف كحارس ليلي، وبعض الليالي يمكن أن تنامي وحدك، أجبته: لا مشكلة عندي بالنسبة لعملك، أنا ابنة عسكريّ أيضاً، وأعرف كيف هو نمط عائلة العسكريّ، وبالمناسبة أنا أحبّ عملك كثيراً. فقال بعدها: وتعرفين بالطبع كم أحصل على مال؟ فأنا لا أحب أن نقع في المشاكل فيما بعد بسبب هذا الموضوع، فنحن نحصل على أجر زهيد.

فقلت: هذه الأمور لا تعنيني، لقد كبرت بهذا المال، أعتقد أنه يمكننا أن نتأقلم مع الوضع.

وهنا تذكّرت إحدى مذكّرات الشهيد «همّت»، فأكملت كلامي: أنا مستعدّة أن أعيش في منزل تكون جدارنه من الطين، نغطّيها بالأغطية ولكن نمتلك حياة معنويّة ورائعة، ضحك حميد وقال: إذن سأخبرك كم أحصل على مال كي تفكّري مرّة أخرى: أنا أتقاضى كلّ شهر ستمائة وخمسين ألف تومان.

لم يكن الأمر بالنسبة لي ذا أهميّة كبيرة، ولكي أخرج كلامنا من حالة الجديّة سألته: وكم تدّخر من المال؟ فقال: ليس كثيراً، ما يقارب ستة ملايين تومان. فقلت: تريد أن تتزوّج بستة ملايين تومان؟! وبينما هو

يضحك طأطأ رأسه قليلاً وهو يقول: كل شيء يتمّ بالتوكّل على الله. ثمّ أكمل: وبعض الليالي أذهب للمشاركة في الهيئة[١٤]، ويمكن أن أعود متأخراً فقلت: لا مشكلة، يمكنك الذهاب إلى الهيئة، ولكن في الليل عد إلى البيت ولو كان الليل قد انتصف.

وقبل أن نبدأ بالكلام، لم أكن أعتقد أنّ الأمر سيتطوّر بشكل جدّي، وكل ما كان حميد يقوله كنت أوافق عليه، وكلّ ما كنت أقوله كان يوافق عليه، فقلت في نفسي: لا يمكن هذا، يجب أن أعترض عليه بشيء، لأنه لو استمرّينا على هذه الحالة فعليّ أن أفكّر بإعداد فستان العرس. وخطر في ذهني أن أعترض على ثيابه ولكن لم يكن لديّ ما أقوله، وما إن أردت أن أعترض قلت في قلبي: أنت يا فرزانة تحبّين هذا الشكل، نظرت إلى شعره الذي كان مسرحاً من طرف واحد، لكنّ قلبي لم يسمح لي، ولأني كنت أفهم نفسي جيّداً فقد كانت هذه البساطة محبّبة بالنسبة لي.

وعندما فشلت في الاعتراض على حميد، اتجهت نحو نفسي وحاولت أن أصنع من نفسي غولاً مخيفاً يجعل حميداً يتراجع عن طلب يدي؛ لذا قلت: أنا إنسانة عصبيّة المزاج، قليلة الصبر قد أؤذيك. وكأنّ حميداً فهم ما أرمي إليه فقال: بمقدار ما أنت عصبيّة المزاج فأنا هادئ، وصبور جداً، ولا أظنّني أغضب لهذه الأسباب.

فقلت: وإذا ذهبتُ أحد الأيّام إلى العمل أو إلى الجامعة، وكنت متعبة وأشعر بالضيق فلم أحضّر الطعام، وكان البيت في فوضى، ألن تشعر بالاستياء؟ قال: لا مشكلة، المرأة كالورود مرهفة الإحساس، وكلما

---

١٤ من المتعارف في الجمهوريّة الإسلاميّة أن ينشيء بعض الشباب ما يشبه الجمعيّة لإحياء شعائر أهل البيت وتسمّى بالهيئة ويكون لها نشاط أسبوعيّ إضافة إلى مناسبات عاشوراء وصفر وأمثالهما.

شعرتِ بالضيق فسأقف إلى جانبك. وفي النهاية كلّما طرقت باب آخر بقي حميد ثابت القدم، لقد عزم منذ البداية على أن يحصل على موافقتي، فكان باحترام يوافق على كل ما أقوله ولو كان خلاف رأيه كانت حالتي أيضاً مثيرة للدهشة، لقد شعرت بأنّ سحره استولى علي كان يتكلّم برزانة مميّزة وعندما كان يتكلّم كنت أشعر بالمحبّة تتدفق من كلماته، وأكثر ما جذبني إليه الحياء الصادر من عينيه، كانت عيناه دائماً تنظران إلى الارض أو تلاحقان المملحة.

وكان حياء حميد يجعل الأمور تتقدّم وكأنّ نصيبي هو أن أعشق عينين لا تنظران إليّ من الحياء، بتلك العينين الخجولتين والمليئتين بالجاذبية كان يمكن تبنّي الاعتقاد بالحبّ من النظرة الأولى، العشق الذي يحدث، وعندها تكون تلك العينان هما كلّ الحياة، العينان التي يبقى كل شيء في مكانه ما دامتا مسرورتين، ومنذ ذلك اليوم عشقت تلك العينين، أحببت سماء عينيه الضاحكة حيناً والممطرة المبلّلة حيناً آخر.

ومرّت نصف ساعة على كلامنا حتّى شعر حميد بالحماس أكثر، وصار يتحدّث أكثر فأكثر، وكنت أنا مستمعة أو كنت أردّ بكلمات قليلة، وكأنّه انتبه إلى سكوتي فسألني: ألا تسألين شيئاً؟! إن كان هناك شيء يهمّك فاسألي عنه.

كانت الدراسة والعمل بالنسبة إليّ شيئين مهمّين فقلت: لقد قُبِلتُ للتوّ في الجامعة، فإذا حصل أن تزوّجنا فهل ستسمح لي أن أكمل دراستي ثمّ أذهب إلى العمل؟ فقال حميد: أنا لا أخالف دراستك، ولكن إن أردت الحقيقة فأنا. وبسبب الأجواء غير المناسبة في بعض الجامعات. لا أحب لزوجتي أن تتواجد فيها، وبالطبع لقد حدّثني أمّي وقالت إنك تحبّين الدراسة كثيراً، ومن حسن ثقتي بك أسمح لك بالذهاب إلى الجامعة، والذهاب إلى العمل كما تشائين، ولكن لا أحبّ

أن يؤثّر العمل سلباً على حياتنا.

وبعد سماع كلامه قلت: اطمئنّ سأردّ لك هذه الثقة بأفضل ما يكون، وبالنسبة إلى العمل أنا لا أحبّ الأجواء المختلطة، فإذا كانت الأجواء ملائمة فسأعمل وإلا فلا، ولكن إن أنجبت أطفالاً وشعرت لثانية واحدة أنّ زوجي أو طفلي يتأذّيان من عملي أعدُك بأن لا أعمل.

وكانت أكثر الأسئلة من طرف حميد ولم أجد حاجة للسؤال، ولكثرة ما تحدّثت جدتي في تلك المدّة عن حميد، كنت أعرف جميع الإجابات، قاطعت كلامه لأسأله: هل تعرف تصليح الأشياء، قال حميد متعجّباً من سؤالي: إلى حدّ تركيب المصباح الكهربائي... فقلت: وماذا عن تغيير خرطوم المياه؟ فقال: بلى، اطمئنّي، أعرف تركيب هذه الأشياء.

كان هناك أمر يراودني ولا ينفكّ يدور في ذهني، ولكن كنت محتارة كيف أطرحه؟ فغامرت وسألت: عفواً من سؤالي، هل يعجبك شكلي؟ كنت أفكّر في نفسي ربما حميد قد تقدم لخطبتي بسبب إصرار عائلته، أو لأنّ هذا الموضوع قد طرح منذ طفولتنا، ولكنّ جواب حميد أشعرني بالارتياح حيث قال: لا أدري ما الذي دفعك إلى هذا السؤال، لو كنت لا تعجبيني فلماذا أتيت؟! ولم أتابع الموضوع إلى هذا الحدّ.

وبقينا نتحدّث منذ الساعة الخامسة حتى السادسة والنصف، وكانت المملحة لا تزال بين يدي حميد، وعندما أراد الخروج من الغرفة انتظرني لأخرج قبله مجاملاً لكنّني قلت لا تفضّل أنت. فقال لي: لا بدّ أنك ستفكّرين، إذن اسمح لي أن أقول الكلمة الأخيرة: تفكّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة.

وأثناء حديثنا ذكر حميد عدّة أحاديث وروايات، وكلّ شيء كان يقوله كان قال الصادق عليه السلام أو قال الباقر عليه السلام، وبهذا الحديث ختم كلامه وترك الغرفة قبلي. لم أكن أعلم ذلك اليوم أنّ غرض حميد هو أن يأتي، لا

أن يأخذ جواباً ويرحل بعده سريعاً. لقد حصل الآن على كل ما يريد وبقيت أنا مع عالم من الأحلام التي عشتها منذ طفولتي وكنت أشعر بها، منذ هذه اللحظة ستنتظرني أيام مليئة بالأحداث، انتظار جديد سيتبدّل إلى إحساس لا نهاية له.

وطوال تلك الساعة والنصف التي تحدثنا فيها كان والدي رغم إصابة رجله يزرع المكان خارج الغرفة ذهاباً وإياباً متوكئاً على عصاه، كان يمشي إلى آخر الممر ويستند إلى الجدار ويبلغني رسالة بالإيماء والإشارة أن يكفي هذا. وكان يبدو الاضطراب جلياً على وجهه. كنت أعلم كم هو متعلّق بي! وكم أشعرته هذه اللحظات بالقلق! وكان من عادته حينما يشعر بالاستياء أن يمشي أو يزمّ شفتيه.

وعندما خرجت من الغرفة قالت عمّتي: حبيبتي فرزانة فكّري بالأمر ونحن نتّصل الأسبوع القادم لنسمع الجواب.

ومن شدّة خجلي لم أستطع أن أكلّم أبي وأمي بالذي جرى ذلك اليوم وعمّا قاله حميد، وفي مثل هذا كنت أتكلم مع أخي علي، وفي الأحداث المختلفة التي كانت تواجهني كان مستشاري الخاص، رغم أنّ علي كان يصغرني بعام واحد، ولكنّه كان ذا آراء جيدة ومنطقيّة، وفي ذلك اليوم كان في النادي الرياضي، وعندما عاد وقبل أن يضع محفظته على الأرض كنت قد أخبرته بما جرى بيني وبين حميد، وسألته عن رأيه فقال: عمل جيد قمت به أن تحدثتِ إليه، فحميد شاب جيد، وأنا أوافق عليه موافقة تامّة.

حلّت محبة حميد في قلبي منذ اللحظة الأولى، وتذكّرت العهد الذي قطعته على الله، وقد جاء حميد إلى بيتنا في اليوم العشرين للعهد، ولم أكن أظن أنّ التوسل بالائمة عليهم السلام يهدّئ روع القلب بهذا النحو ويشعره بالإطمئنان، كان عندي إحساس عجيب ومثير، وكلّ

تلك المخاوف وذاك القلق قد تحوّل إلى اطمئنان قلبي، ولقد وجدت ملجأي الآمن، وشعرت بأنه يمكنني بكلّ سهولة اللجوء إلى حميد، ثم قلت في نفسي: حميد هو الإنسان الذي أن يمكن مرافقته دون تعب إلى آخر الدنيا.

ومرّت ثلاثة أيام كنت فيها عاكفة على الاهتمام بالورود، فسألتني أمّي عدّة مرات بشكل غير مباشر عن رأيي بحميد وكان يبدو عليها أنها سعيدة جداً وهي منذ البداية تكنّ لحميد محبّة أمّ.

وكنّا نتحدث ليقطع حديثنا رنين الهاتف، رفعت أمّي السماعة، ومنذ السلام الأوّل أدركت بسرعة أنّ عمّتي اتصلت بنا لتعرف الجواب، وبينما كانت أمّي تسلّم عليها أشارت لي متسائلة بماذا تجيبها؟

أردت أن أقول: إنّ الأسبوع لم يأت بعد، فلماذا كلّ هذه العجلة؟! ولكن رجعت إلى نفسي وقلت: جوابي معلوم اليوم أو بعد عدّة أيام، رفعت كتفي نحو الأعلى وغامرت من جديد وقلت: جوابي نعم، ولكن لأننا أقارب يجب أن نخضع لفحص للجينات، حتى لا نواجه مشاكل فيما بعد، وقبل نتائج الفحص لا أريد لأحد أن يعرف بموضوعنا. وكان السبب في اتصال عمّتي المبكر هو حميد فقد قال لأمه: لقد أقنعت فرزانة فاتّصلي واطمئني سنسمع موافقتها.

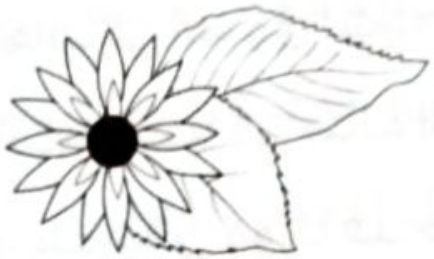

الفصل الثاني

يصبح قلبي عاصفة متى خلا من ذكرك

من خلف زجاج النافذة في غرفة العناية الفائقة في المستشفى كنت أدعو لشفاء جميع المرضى ولجدّتي؛ فمنذ بضعة أيّام دخلت جدّتي إلى المستشفى لعارض في قلبها، كنت قلقة جدّاً من أجلها، وبينما كنت غارقة في التفكير إذا بأحدٍ يحرّك رأسه أمام عينيّ ويلقي عليّ السلام. إنّه حميد. لم أكن أمتلك الجرأة بعدُ على النظر إلى عينيه، وحتّى ذلك اليوم لم أكن أعلم ما لون عينيه؟ قال لي: لا تقلقي! فجدّتنا في تحسّن. وقد أخذت موعداً لدى الطبيبة من أجل الفحص الجيني.

وعندما جاء موعد الطبيبة رافقتنا أمّي إليها، كنت أمشي مع أمّي وكان
حميد يسير وحده متأخّراً، وعندما وصلنا إلى العيادة تقدمت أمي من
السكرتير الذي كان شاباً وسألته: هل الطبيبة هنا؟ فأجابها: لقد طرأ عليها
عمل مفاجئ ولن تأتي اليوم، وقد أجّلت مواعيد اليوم إلى يوم الثلاثاء.
وعندما عادت أمي قال حميد: لماذا ذهبت أنت يا زوجة خالي؟ كان
ينبغي أن أذهب أنا وأسأله. سأتّفق معه ليوم الثلاثاء. وعندما ذهب
حميد تبسّمت أمي وقالت بصوت خافت: هذا أصعب من أبيك.
اكتفيت بالابتسام؛ فقد كنت أخجل من أن أقول لأمي: يغار على زوجة
المستقبل. وعندما خرجنا من عيادة الطبيبة أصرّ حميد على إيصالنا
ولكنّا فارقناه لأننا كنا نريد الذهاب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات لأمي.
ويوم الثلاثاء ذهبنا إلى العيادة، جلسنا في صالة الانتظار، كان السكرتير
يدخل المرضى تبعاً لدورهم، ولم يكن دورنا قد حان بعد، كان الطقس
لا صيفيًا حارًا ولا خريفياً بارداً، وكانت شمس أوائل مهر[1] شبه الهزيلة
تسطع من نافذة العيادة، وبينما كان حميد يحاول أن يبدو منبسط
الوجه إلا أن يديه كانتا ترتجفان قليلاً لتخبر عن كلّ ما يخفيه. طالت
مدّة انتظارنا، فشعرت بالضيق، عندها ظهرت شقاوة حميد، فصار
يحرك الهاتف النقال بيده حتى تنعكس الشمس من شاشته على
عيني، كان من طفولته على هذا المنوال، لا يستطيع أن يبقى على حال
واحدة. قلت بصوت مناسب: لو سمحتم يا سيد حميد لا تقوموا بهذا.
وحتّى بعد مرور شهر على عقد القران كنت أخاطبه بأسلوب رسمي
وجادّ، أي بصيغة الجمع وأقول له: أنتم.
وما إن سمعنا اسم عائلة «سياهكالي» حتى قمنا باتجاه غرفة الطبيبة،

---

[1] الواقع تشرين الأول

وما إن وصلنا إلى الباب حتى فتح حميدٌ الباب، ثم انتظرني لأدخل، ثم دخل من بعدي وأغلق الباب بهدوء.

كانت الطبيبة متقدمة في السن، وسألتنا عن قرابتنا العائلية، ولكي يتم البحث بشكل جيد كان علينا أن نرسم شجرة العائلة، حميد لم يكن متابعاً لجميع التفاصيل، مثلاً لم يكن يعلم أن خال أبي قد تزوج بعمة حميد، ولكني كنت أعلم كل هذا بالتفصيل بفضل إخبار جدتي لي، وأعرف على وجه الدقة القرابة الرحمية وتلك التي بالمصاهرة، لذا لم أنس أحداً.

ولأن في عائلتنا الكثير من زواج الأقارب فقد أخطأت الطبيبة في تحديد شجرة العائلة عدة مرات فكانت تمحو وتصحح ثم ضحكت وقالت: يجب أن نبدأ من جديد، عائلتكم معقدة جداً، وفي النهاية أعطتنا ورقة الفحص ورسالة تعريف لنكمل الخطوات التالية.

وفي اليوم المقرر لإجراء الفحص كانت فاطمة ترافقنا، كان سحب الدم مؤلماً جداً، اغرورقت عيناي بالدموع واختطف لوني، وكان حميد يقف قلقاً وخائفاً فوق رأسي، لم يكن قلبه يتحمل أن يراني على هذه الحال، وصار يتحدث إليّ عن كلّ ما يخطر في باله لكي يشتت انتباهي، ويقول: عدّي إلى الثلاثة وينتهي الأمر.

وبعد إجراء الفحص لبثت جالسة عدة دقائق، وبسبب الدم الكثير الذي أخذوه مني شعرت بتعب، وعند خروجنا قال حميد: أعتذر منك يا فرزانة، غداً أذهب إلى الخدمة، من فضلك تعالي بعد يومين لتأخذي نتيجة الفحص، وعندما تعرفين النتيجة أخبريني، وعندما أعود نذهب معاً إلى الطبيبة، وخلال هذين اليومين لم نكن نعرف عن بعضنا أيّ شيء ولا نعرف حتى أرقام هاتف بعضنا حتى نتصل، كنت أدور حول نفسي كطائر مذبوح، وحدّقت بورقة الفحص ورسمت في ذهني صورة

كالبازل لعدة سنوات وقلت في نفسي: إذا كانت نتيجة الفحوصات جيدة فسنتزوج أنا وحميد ونعيش لسنوات وسنوات بسعادة ونبني حياة رائعة.

لم أكن أفكر بنتيجة غير جيدة للفحوصات ولم يكن هناك ما أتخيله وأحياناً كنت أقول في نفسي: ربما كانت النتيجة سلبيّة عندها ماذا سيحدث؟ الأمر واضح، كلّ ما قررناه ينتهي في مكانه، ويذهب كلّ منا في حال سبيله، ولا نخبر أحداً أبداً بما جرى، فنحن لا يمكننا أن نتجاهل فحصاً مهمّاً كهذا. وعندما كنت أصل إلى هنا كان كل ما نسجته في خيالي يتمزّق، وكنت أحبّ أن أعرف ما الذي يدور في ذهن حميد من أفكار.

مرّ هذان اليومان ببطء وصعوبة شديدين، نظرت إلى الساعة، أردت أن تمرّ الساعات بسرعة وأخرج من هذه الحالة المبهمة، فتحت حقيبتي ونظرت إلى ورقة المختبر، أردت أن أعرف كم بقي من الوقت لأذهب وأستلم النتيجة.

وكنت أنظّم برنامج اليوميّ حين رنت عمّتي على الهاتف، وبعد أن تبادلنا السلام بحرارة عرفت منها أنّ حميداً قد عاد من خدمته، ويريد أن نذهب معاً لإحضار نتيجة الفحوص، وكلما أردنا أن نخرج نحن الاثنين معاً كنت أشعر بعدم الارتياح وبالخجل أيضاً، لم أكن أعلم كيف نبدأ الكلام.

جاء حميد لمرافقتي وانطلقنا معاً نحو المختبر، وكنّا نخفي قلقنا من النتيجة، ولكن كان في عينَيْ كلّ منا أمواج من الاضطراب، وعندما أخذ ورقة النتيجة وسلّمني إياها، قلت لحميد: يجب أن تدعوني لتناول طعام الغداء حتى أخبرك بالنتيجة. فقال حميد: ادعِ الله أن لا تكون هناك مشكلة وسأدعوك لتناول الغداء عشر مرات.

ومن الورقة التي استلمناها أدركت أن ليس ثمّة مشكلة. ولكن قلت

لحميد: يجب لكي نطمئنّ أن نذهب مجدّداً إلى عيادة الطبيبة لنحصل على النتيجة النهائيّة. وسرعان ما اتصل حميد بالعيادة وأخذ موعداً عند غروب ذلك اليوم.

ومشينا على الأقدام لمدّة نصف ساعة من المختبر حتى «ميدان سبز»، ولأنّنا لم نخبر أيّ أحد من عائلتنا عن موضوع زواجنا قبل أن نعرف نتيجة الفحص، خشيت أن يرانا أحد معاً.

وكنا نمشي من أمام المحال واحداً واحداً فقال حميد: هل تشربين عصير الفاكهة؟ قلت لا رغبة لي في هذا، وبعد عدّة خطوات قال: لقد مرّ وقت الغداء هل توافقين أن نتناول الطعام، قلت: لا، لا أشعر برغبة في الأكل. ومن خلال اقتراحاته المتعدّدة كان جلياً أنه يريد أن نبقى معاً لوقت أطول، ولكن لم يكن الأمر بيدي لم أستطع أن أتعامل معه بكلّ عفويّة.

وبعد أن باءت جميع محاولاته بالفشل شعر بالتعب، وعندما ركبنا في سيارة الأجرة لم أتكلم كثيراً، كانت الشمس حادة، وكأن الصيف لم ينته بعد، كنت ألبس نظارة شمسيّة، وكانت أحد رموش حميد قد سقطت على قميصه، التقطها بيده وقال: انظري لشدة ما تمتنعين عن الكلام معي وتشعرينني بالغضب فإن رموشي تتساقط.

وضحكت بغير إرادة مني ولكن بسبب تلك الضحكة عندما عدت إلى المنزل بكيت بشدّة أن لماذا ضحكت مع رجل غريب؟! وعندما رأت أمي دموعي قالت: لا يتطلّب الأمر بكاء، أنت ستصبحين زوجة حميد ولا مشكلة في الأمر، كان كلام أمي الذي ينبع حناناً قد هدّأ من روعي، ولكنّ قلبي كان مضطرباً. كنت أحبّ أن أبقى أكثر مع حميد، أتعرّف عليه أكثر، أتكلّم معه أكثر، ولكن كنت أشعر بالخجل؛ فهذه علاقة جديدة بالنسبة لي.

وقرابة الغروب جاء حميد لمرافقتي مجدداً إلى الطبيبة، لم يكن أ
من اثنين ينتظران هناك، وبعد أن دفع أجرة الدخول جلس إلى جانبي
ومن حركة رجليه عرفت أنه مضطرب، انتظرنا لعدّة دقائق وعندما جا
دورنا دخلنا إلى الغرفة.

راحت الطبيبة تنظر إلى الفحوص بدقّة وطال تدقيقها، وبعد أن أزاحت
النظارات عن عينيها ابتسمت وقالت: يجب أن تقدّموا لي مكافأة
أبارك لكما ليس هناك مشكلة، ويمكنكما أن تتزوجا. وما إن قالت
الطبيبة هذا حتى أغمض حميد عينيه وتنفّس بعمق، لقد ارتاح باله
فالسبب الوحيد الذي كان يمنعنا عن الزواج هو هذه الفحوصات
والحمد لله لقد مرّ الأمر بسلام.

قال حميد: شكراً أيتها الطبيبة! فرزانة عرفت في المختبر أن ليس
هناك مشكلة ولكن قلنا نأتي إليك فنطمئن أكثر. فقالت الطبيبة:
حسناً، بعد مدّة ستصبح فرزانة زميلة لنا في الطب، ولا بد أنّها تفهم
هذه الأمور.. أتمنّى لكما السعادة والحياة المستقرّة.

كاد حميد أن يطير من الفرح، ولكن لم يُرد أن يظهر ما يشعر به أمام
الطبيبة، ومن سروره تشكّر الطبيبة عدّة مرات، وخرج من العيادة مبتسماً.
كانت عينا حميد تضحكان بشكل غريب، قال لي: الحمد لله، انتهى
الأمر أخيراً، استرحنا. وقفت عدّة لحظات وقلت لحميد: لا لم ننته بعد،
أعتقد أنّ هناك فحص آخر يجب أن نقوم به، وهناك دروس خاصة
بالعقد وهذا واجب من أجل العقد. قال حميد وهو يشعر بحماس:
لا، لا داعي لهذا، هذه الفحوصات كافية، دعينا نذهب بسرعة نشتري
الحلوى ونحمل هذا الخبر السعيد إلى أسرتينا، لا بد وأنهم سيفرحون
لسماعه، رفعت كتفي إلى الأعلى وقلت: لا أدري، ربما أنا مخطئة وكنت
أنت أكثر دقة.

❀ ❀ ❀

في ما مضى وعندما كنت صغيرة كنت أذهب دائماً إلى بيت عمّي وألعب مع بناتها، ولكن بعد أن كبرت وبلغت سن التكليف، صرت أشعر بالخجل ولم أعد أذهب كثيراً. أما حميد فكان قليلاً ما يأتي إلى منزلنا ولكن بعد أن طرح موضوع خطوبتنا صار يتردّد إلينا كثيراً، وذات يوم تقرّر أن يأتي حميد مع أبيه وأمّه لنتفق بشكل نهائي.

كنت أغسل الفاكهة فدخل أبي إلى المطبخ قائلاً: إذا طرح موضوع المهر فماذا أقول لهم؟ لم أجرؤ أن أرفع رأسي وأتكلّم مع أبي بشكل مفصّل حول هذه الأمور، فقلت: ما تراه من الصلاح يا أبي. ضحك أبي وقال: المهر حقّ لك، ونحن لا رأي لنا. الفتاة هي من عليها تحديد المهر. لبثت قليلاً ثم قلت: ما رأيك بخمسمائة؟ تناول أبي برتقالة وقال: كما تريدين، ولكن ألا يبدو هذا كثيراً. وضعت الفاكهة في سلة ورحت أجففها ثمّ قلت: إذن نقول ثلاثمائة، ولكن لا تدعهم يطلبون تخفيفاً. ضحك أبي وقال: المهر حبر على ورق.[٣]

حاولت أن أخفي ضحكي ولكن عبثاً. كانت نظرات أبي غريبة، فهو لا يصدّق أن فرزانة الصغيرة التي كانت تتذرّع لتجلس في حضن أبيها وتحبّ أن تبقى ساعات تلعب معه تتكلّم الآن عن المهر والزواج.

أعددت كلّ شيء لاستقبال الضيوف، لم تكن المرة الأولى التي يأتي إلينا فيها ضيوف، ولكنّي كنت مضطربة جداً. مسحت السكاكين والصحون عدّة مرّات وكانت فاطمة تشاكسني، وكانت أمّي تحدّث أبي بصوت غير

---

[٣] تجدر الإشارة إلى أنّ سيرة النبي وأهل بيته الطاهرين صلّى الله عليه وآله هي عدم المغالاة في المهر ونهي عنه في الكثير من الأحاديث. وقد جعل مهر السنّة بمقدار مهر السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام البالغ خمسمائة درهم (ما يعادل كيلوان ونصف من الفضة).

مسموع، ولكنّي أعتقد أنهما كانا يتحدّثان عن تعداد ليرات المهر الذهبيّة.
وأخيراً وصل ضيوفنا. بعد أن سلّمت عليهم دخلت إلى المطبخ، وعدت أمسح السكاكين وألمّعها، ولكن كانت جميع حواسي في غرفة الاستقبال مع الأحاديث التي كانت تدور هناك، قالت عمتي: بما أنّ الفحوصات كانت سليمة يا أخي فاسمح لفرزانة وحميد أن يذهبا غداً إلى السوق فيشتريا خواتم الزواج، ويوم الجمعة من الأسبوع القادم نحتفل بعقد القران.

وما إن جرى الحديث عن خاتم الزواج نظرت إلى إصبعي في يدي اليسرى، وشعرت بإحساس غريب، إحساس يتوزّع بين الاطمئنان والهلع من ثقل المسؤوليّة والتعهد التي يتطلبها هذا الخاتم.

وعندما طرح موضوع المهر قال أبي: استقرّ رأي فرزانة على ثلاثمائة، لم يبدِ والد حميد أيّ رأي فقال: أعتقد أنه على حميد والعروس أن يتّفقا على موضوع المهر ومقداره، ومرّت عدّة دقائق ملأت فضاء الغرفة بصمت ثقيل، كنت أعرف أن حميداً على درجة من الحياء تمنعه من الكلام في حضور الكبار، ولكن في النهاية وعندما رأى أنّ الجميع ينتظرون رأيه قال: في عائلتنا كزوجات إخوتي أو أخواتي المهر مائة وأربعة عشر ليرة ذهبيّة كحد أكثر، ثلاثمائة كثير جداً، ولو عاد الأمر لي لأعطيت زوجتي أربعة عشر واحدة منها، ولكن رأي عائلة العروس هو شرط للقبول.

صار كلّ شيء عكس ما كنت أتوقّع، فمنذ مدة طويلة احتلّت محبّة حميد قلوب عائلتي، ودون أن تقف أمّي إلى جانبي وتدافع عن رأيي حول المهر قالت لحميد: غداً وعندما تذهبان لشراء خواتم الزواج تحدّث أنت إلى فرزانة، فقد تغيّر رأيها وما تتفقان عليه نحن نقبل به. ولم يكن أبي بأقلّ تقصيراً من أمّي وكان إلى جانب حميد أكثر منه إلى جانبي، فقد قال بشكل عابر إنّ فرزانة تريد ثلاثمائة، ولكن من الواضح أن رأيه كان شيئاً آخر.

وعندما ذهبت لأقدّم الشاي كنت كمن يحمل صينيّة الشاي لأول مرّة، وكأنّي لم أرَ حميداً من قبل، حميد الذي جاء إلى بيتنا اليوم يختلف عن حميد ابن عمّتي الذي رأيته مرّات من قبل، هو الآن ليس ابن عمّتي فحسب، بل سيصبح شريك حياتي.

قدّمت الشاي إلى الجميع، وجلست قرب عمّتي، كان السرور يرتسم على وجهها أمسكت بيدي وقالت: استئذنا من أبيك أن نجري عقد القران يوم الجمعة القادم، هل يمكنك غداً أن تذهبي لشراء خواتم الزواج؟

قلت: عندي درس حتى الساعة الرابعة، أصل إلى البيت عند الرابعة والنصف وبعدها لا شيء عندي، وتقرّر أن يأتي حميد لمرافقتي عند الساعة الخامسة ونذهب معاً إلى السوق.

وصباح اليوم التالي كانت دراستي تبدأ من الساعة السابعة صباحاً، وكلّ صف كان في كلية، كنت أركض وأركض لأصل إلى الدرس التالي، وعندما وصلت إلى البيت كانت الساعة الرابعة والنصف، كان أبي وفاطمة يلعبان كرة الطاولة في فناء الدار، ومن شدّة التعب لم أتمكن من الوقوف معهما.

بدّلت ملابسي وجلست أشاهد التلفاز ومددت رجليّ، كان الحذاء الجديد الذي اشتريته يؤلمني، وكان التلفاز يعرض مسلسل» دونگي[٤]« ليرتفع رنين جرس الباب، إنه حميد وها هي الساعة الخامسة.

كنت على درجة من التعب أنستني ما كنّا قد اتفقنا عليه بالأمس، لم يدخل حميد وبقي ينتظر خارجاً، نظرت من النافذة فرأيته يرتّب شعره، يرتدي الملابس نفسها التي رأيته فيها في المرّة الأولى بنطالاً رمادياً، وقميصاً رمادياً يغطي بنطاله، أحياناً تكون البساطة رائعة.

---

٤ مسلسل ياباني.

ولأني كنت منذ الصباح خارجاً لم يكن لدي رغبة بالخروج، وكانت قدمي تؤلمني، حاولت التملّص، لكنّ أمي التي كانت تقف إلى جانب حميد في كل الأحوال قالت: هيا قومي فهذا غير لائق، حميد ينتظرك المسكين منذ مدة واقف في الخارج.

جهزّت نفسي بسرعة وخرجت من البيت، كانت الرياح القوية تهبّ، والغبار والتراب يملآن المكان، وكان حميد قد جاء بسيارة أخيه سعيد، كنت غير مرتاحة وطلبت منه أن نذهب بسيارة أجرة، فهكذا أكون مرتاحة أكثر، ورغم أنّ اقتراحي لم يعجبه لكنّه قبل واستقلّينا سيّارة أجرة.

وعندما وصلنا إلى «ميدان سبز» ونزلنا من السيّارة اشتدّ الهواء بعنف، فقلت: يا حميد! يبدو أنّه لم يقسم لنا الشراء اليوم، فأنا متعبة والطقس على ما ترى. ولكنّ حميداً لشدة حماسه أغلق عينيه أمام الطقس السيء وقال: طقس بهذه الروعة يعطي نشاطاً للشراء، اليوم يجب أن نشتري الخواتم، لقد وعدت أمّي.

دخلنا إلى عدّة محالّ لبيع الذهب، كنت أبحث عن شيء بسيط يريحني عندما أضعه في إصبعي، ولكنّ حميداً كان يبحث عن خاتم خاص يكون مرصعاً بالعقيق. وعندما كنا ننظر إلى الواجهات شعرت أن حميداً يريد أن يقول شيئاً، ولكنّه كان يمتنع، فقلت له: أهناك ما تريد أن تقوله؟ أشعر أنك تمتنع عن قول شيء.

تأمّل قليلاً ثمّ قال:أجل، ولكن لا أعلم هل أقوله الآن أو فيما بعد؟

قلت: كما تحبّ وترغب، لا تؤذ نفسك، إن كان هناك شيء فقل.

مرّت ربع ساعة، وتشتت انتباهي بسبب التفكير بما يريد أن يقوله حميد، فلم يعد لديّ تركيز في النظر إلى الواجهات، ولم أستطع أن أختار شيئاً، ثمّ قلت: حميد، أرجوك أخبرني بما تريد أن تقوله، تشتّتت أفكاري مما تريد أن تقوله، وكنت أخاطبه بشكل رسمي.

قال ممازحاً: لم أنهِ بحثي!
أشكرك إن انهيت بحثك حتى أستطيع في هذا الطقس أن أختار خاتمي بدقة.
من جديد انتظر قليلاً وقال أخيراً: هل يمكن تقليل المهر؟ أنا أرجّح الأربعة عشر.
وما إن قال كلمة المهر حتّى تذكّرت ما قالته أمّي بالأمس، حيث قالت له أثناء شراء الخواتم غداً تحدّث إلى فرزانة عن تخفيف المهر فقلت: وكلّ هذا التأمّل من أجل هذا؟! لقد قلت رأيي بالأمس، كلّ أفراد عائلة أمّي مهرهم أكثر من خمسمائة ليرة ذهبيّة، وجيّد إن قلت ثلاثمائة، لقد تنازلت عن مئتين فاقبل وكفى، لم يقل شيئاً، منذ اليوم الأول الذي تحدّثنا فيه كان يتّبع الأسلوب نفسه، كلّ ما يبحث عنه هو رضاي، وكان هذا الأسلوب ذا قيمة بالنسبة لي.
وبعد بحث وتفكير اشترينا خاتماً متوسّط القيمة، الغرام منه يساوي مئة وأربعة عشر ألف تومان، وكانت قيمته ستمائة ألف تومان، وعند العودة رجوت حميداً أن نعود مشياً على الأقدام، فقد كنت أحبّ أن نتكلّم مع بعضنا وأتعرّف عليه أكثر، وهكذا أشعر بارتياح أكبر.
ومشينا من السوق راجلين حتى مستديرة «نظام»، كان حميد يبحث عن محل لعصير الفاكهة حتى يدعوني إليه، ولكن مهما بحثنا لم نجد فقال: ألا يوجد هنا محلّ لعصير الفاكهة حتى يدعو أحد زوجته إليه؟
ضحكت وقلت: هنا المحالّ تعود للأدوات الإلكترونيّة، من الذي سيأتي إلى هنا ويفتح محلاً للعصير؟
ابتعدنا عن المحال الإلكترونيّة واقتربنا من نبع الماء قرب شارع «سعدي» وأخيراً وجدنا ما نريد، لقد أفرط حميد في سخائه، فاشترى اثنتان من المثلّجات وعصير الجزر والشمّام وعبوة ماء أيضاً.
شربت بالكوب بعض الماء ثمّ قلت لحميد: يقال ومراعاة للصحّة أنّه

يجب شرب الماء بكوب شخصي، ولكن سمعت أنّ أحد العلماء يوصي لجلب المحبّة يستحسن أن يشرب الزوجان من كوب واحد، وما إن قلت هذا حتى ترك حميد كوبه وملأ الكوب الذي شربت منه، وكان يخجل من أن يشرب فقال: هل يمكن أن لا تنظري إلي وأنا أشرب. أردت أن أؤذيه فركّزت عيني عليه، صار يضحك ولم يستطع أن يشرب شيئاً، قلت: أنت تعرفني جيداً، فتاة شقيّة، ثمّ بدأت أسرد عليه ذكريات من طفولتي، وما كنت أسبّبه لأختي الصغيرة من أذى، فقلت: أذكر عندما كنت صغيرة كنت أغمس شوكة الطعام بالفلفل الحار وأقدمه لأختي وهي لم تكن قد تجاوزت السنتين من عمرها، طفلة لا تعرف شيئاً، كانت تضع الشوكة في فمها وكنت أشعر بفرح عارم من بكائها. كنت أحدّثه عن ذكريات طفولتي وشقاوتي فقال حميد وهو يضحك ويمزح: يا ابنة خالي، لم يفت الوقت بعد، انسي ما قلنا هل يمكن أن ننصرف عن الزواج؟ فقلت: لا لم يتأخر الوقت، ولم يحدث شيء بعد، اذهب وفكّر بالأمر ثمّ أخبرني.

وبعد أن فرغنا من تناول المثلّجات، ومع أنّي كنت أشعر بالتعب، عدنا إلى المشي وانطلق في كلامه فقال: عندما كنّا نأتي في الأعياد إلى بيتكم، كنت أتمنّى أن تفتحي الباب وتخرجي من الغرفة لكي أراك، وعندما كنت تمتنعين كنت أشعر بالغضب، وعندما كنّا نغادر كنت أشعر في قلبي أن تصرّفك أسعدني لأنّك لم تخرجي وتجلسي مع أحد غريب. وكان حقاً ما يقول: فقد كان من عادتي عندما يأتي أحد غريب إلى منزلنا لا أخرج من غرفتي.

وكان مثيراً بالنسبة لي أن أعرف ردّة فعل حميد عندما رفضت خطوبته أول مرّة، فقلت: وما جرى عندما سمعت أني رفضت فكرة الخطوبة، فقال: لا تضعي الملح على الجرح، لم أكن أعلم، وعندما سمعت بالخبر

خرجت من غرفتي وسألت أمي: إلى أين ذهبتِ يا ترى؟ وما هذا الكلام؟ حكت لي أمي ما جرى وأنها ذهبت إلى منزل خالي تقي، وفرزانة رفضت الخطوبة. فقلت باستياء ومزاح: آه منك يا أمي، ذهبت للخطوبة وحدك ودون مرافقتي؟ متى يذهبون للخطوبة دون العريس حتى ذهبتِ وحدك؟ ثم دخلت إلى غرفتي ودمعت عيناي وكنت أقول في نفسي: أنا أحبّ ابنة خالي وكلّ ما كان يجري كان يطمئنني بأنّها ستصبح زوجتي، ولكن بعد أن سمعت برفضها كان يدور في داخلي: أيعقل أن تفكر بأحد ما وتحبه وهو لا يحبّك، وعندما وصل الكلام إلى هنا. حكيت له نذري وعهدي مع الله فقلت: وقبل أن تأتي مرّة أخرى ونتحدّث مع بعضنا كنت قد نذرت أن أقرأ دعاء التوسّل لمدّة أربعين يوماً، ثمّ أوافق على أول خاطب جيّد سيأتي، ولكن كأنك كنت مستعجلاً وجئت في اليوم العشرين. ضحك حميد وقال: أقول لك شيئاً ولكن لا تشعري بالغرور. وبينما رحت أضحك من لهجة حميد قلت: تفضل ها أنا أستمع. قال: في الحقيقة وقبل أسبوع من مجيئي إلى بيتكم للمرّة الثانية، كنت قد ذهبت إلى حرم السيّدة المعصومة عليها السلام في قم، وهناك قلت لها: يا سيّدتي هل لك أن توصليني إلى من أحبّ، لقد بقي قلبي مع فرزانة، أوصليني إلى من كنت أتمنى، لقد أخذتك من كريمة أهل البيت عليهم السلام. تأملت قليلاً وقلت: حميد بما أنك أخبرتني بهذا، اسمح لي أن أقص عليك حلماً رأيته منذ سنوات، ولكن عدني أن لا تغالي في توقّعاتك؟ فسألني: وما الحلم الذي رأيته؟

قلت: منذ سنوات رأيت في منامي أن طائرة مروحيّة تدور فوق بيتنا وتناديني، وعندما صعدت إلى السطح رموا إلى صدري خروفاً مقطوع الرأس. فقال حميد: حلم غريب، ألم تفسّريه؟! فقلت: بقي هذا الحلم في ذهني ولكن لم أخبره لأحد، حتّى ذهبنا مرة إلى مشهد، وفي صالة

الاستقبال في الفندق كان هناك عدّة كتب حول قصص الشهداء ومذكّراتهم، وبينما أنا أقرأ صدفة مذكرات زوجة الشهيد «ناصر كاظمي» قائد فيلق «پاوه»، قرأت أن زوجة الشهيد عندما رفضت الخطوبة لأول مرّة مثلي، رأت حلماً مماثلاً، وذلك أنّ طائرة مروحيّة قد جاءت فوق منزلها ورمت إليها خروفاً مقطوع الرأس ومعه سمكة، وعندما حكت الحلم لزميلتها أخبرتها أنّ الخروف المقطوع الرأس هو قربان في سبيل الله، ومن المحتمل أن تتزوجي ويستشهد زوجك والسمكة علامة على طفل، وبلا شك يستشهد زوجك قبل قدوم الطفل. وفي النهاية تكون القصّة كما جاء في الحلم على وجه الدقة ويستشهد زوجها قبل أن يولد طفلها. وعندما قرأت تلك المذكّرات فهمت أنّ من المحتمل أن أصبح زوجة شهيد.

وبعد أن حكيت هذه القصّة لحميد نظر إليّ مستغرباً وقال: هل يمكن؟ أمنيتي هي أن أكون شهيداً ولكن أنا أين والشهادة أين؟ وفي ذلك اليوم مشينا كثيراً وتحدّثنا كثيراً، وكانت المرّة الأولى التي تبادلنا فيها الأحاديث بهذا الشكل، وعندما وصلنا إلى مجرى المياه كنت أشعر بالتعب حقيقة، وعندما لاحظ هذا حميد اقترح أن نستقلّ سيّارة، وما إن ركبنا حتى قال: يا إلهي لقد نسينا الحلوى، كان علينا أن نشتري الحلوى.

ولم نبق كثيراً في السيارة حتّى ترجلنا منها، واتجهنا نحو سوق «كابل البرز» واشترى من هناك علبتين من الحلوى، واحدة لعائلته والأخرى لنا، وأوصى على كيلو آخر من الحلوى وقال: هذه الحلوى لك أنت كلي منها في الصباح قبل أن تذهبي إلى الجامعة.

أحببت أن أعرف تاريخ ميلاد حميد وكيلا أسأله بشكل مباشر حتى أهيئ له كعكة ميلاده، تقدّمت عمداً نحو الثلاجة التي وضعت فيها

قوالب الحلوى، ألقيت عليها نظرة وقلت: أترى هذه الكعكة كم هي جميلة ورائعة! لقد مرت ذكرى عيد ميلادي هذا العام، ولكن في الثاني من شهر«تير»[٥]، هل نوصي على واحدة مثلها، وأنت متى تاريخ ميلادك يا سيد حميد؟ فقال بقي وقت طويل على ميلادي فأنا من مواليد الرابع من شهر ادريبهشت[٦].

وما إن قال حميد تاريخ ميلاده حتى راح عقلي يحسب يوم وشهر ولادتنا، واستطعت بسرعة أن أجد وجه اشتراك جميل بيننا، فرحت كثيراً لأن تواريخ ميلادنا يمكن أن تتوافق مع بعضها فأنا قد ولدت في اليوم الثاني من الشهر الرابع من السنة، وحميد قد ولد في اليوم الرابع من الشهر الثاني من السنة.

وكان علينا أن نذهب من محل الحلوى إلى مستديرة «كوثر» مشياً على الأقدام، وكان حميد رياضياً ويتدرب في النادي منذ صغره، وكان هذا المشي عادياً بالنسبة إليه، ولكنّي لم أكن أمتلك القدرة على كلّ هذا المشي، جلست عدّة مرات وسط الشارع وقلت: لم أعد أستطيع: لقد تعبت كثيراً، كان حميد يحمل الحلوى بيده ويقوله بشقاوة: لست حلالاً لأمسك بيدك، وهنا لا يوجد سيارات، نحن مجبرون على المشي حتى أول الشارع لنستقل سيارة.

وكان مشينا وسلوكنا يدلان على أننا حديثا العهد بالخطوبة، وفي مدينة كقزوين من الصعب أن تمشي في الشارع ولا يراك عدة أفراد من معارفك أو عائلتك وخصوصاً حميد الذي يكثر معارفه.

جلسنا قرب القناة فرآنا اثنان من الذين يدربهم حميد في نادي الكاراتيه، كانوا على ما يبدو في المرحلة الابتدائية، كانا يشيران نحونا

---

٥ الشهر الرابع من الشهور الإيرانية.

٦ الشهر الثاني من الشهور الإيرانية.

من بعيد ويتمتمان شيئاً وقال أحدهما بصوت مرتفع: هل هي زوجتك أيها المدرب؟ نظرت إلى حميد خلسة كان العرق يتصبّب من جبينه خجلاً، وكأنهم يقطعونه، رفع يده نحوهم مسلماً عليهم ثم قال: هؤلاء الأولاد يفضحون الناس، غداً ستعرف كلّ قزوين بالقصة.

وصلنا إلى البيت عند التاسعة مساء، وجاءت أمي لاستقبالنا وهي تحمل البخور. وتنقّل خاتم الزواج بين يدي أمي وفاطمة عدّة مرات، قدم حميد الحلوى لأمّي قائلاً لها بعد إصرارها على دخوله: لقد تأخّر الوقت، سأزعجكم فيما بعد إن شاء الله، الأيام قادمة.

وعند توديعه أراد أن يعطيني الخاتم لكنّي قلت: أوصله ليد عمّتي، وعندما تأتي يوم الخطبة تحضره معها فقال: إن كان الخاتم يجب أن يبقى معي، فإن لك معي هدية أخرى، ثم قدّم لي من داخل سترته هديّة مغلّفة.

فوجئت كثيراً، كانت الهدية الأولى التي قدّمها إليّ حميد، فتحت الورقة على مهل حتى لا تتمزق كانت عطر «لاكوست»، ذا رائحة جميلة، ولقد كانت فترة خطوبة كلّها مرافقة لهذه الرائحة لأنّ حميد أيضاً كان يضع منها دائماً.

ويوم الجمعة في الواحد والعشرين من شهر مهر عام ١٣٩١[٧] كان يوم عقد قراننا أنا وحميد، وكان مصادفاً ليوم دحو الأرض[٨]، كان هناك الكثير من المدعوّين من طرف عائلتي وعائلة حميد، فرشنا فناء الدار للرجال، وكانت النساء في غرف الطابق الثاني، ومن بعد عطلة العيد

٧ الموافق لـ 12 تشرين الأول 2012 م.

٨ 25 ذي القعدة، 1433 هـ.

كان هناك الكثيرين من أقاربي وأصدقائي لم أرهم، وكان والد حميد وأخوه حسن يُحضران الفاكهة والحلوى إلى بيتنا منذ الصباح.

كان المكان مزدحماً ومليئاً بالمدعوّين، وكنت مع عدد من الأقارب والأصدقاء داخل إحدى الغرف، ورغم الهدوء والاطمئنان الذي كنت أشعر به لاختياري لحميد، إلا أنّ قلبي كان مضطرباً، كنت أبذل قصارى جهدي كي لا يشعر أحد أنّ في داخلي حرباً. وكنت أتحدّث بحرارة إلى أصدقائي حيث دخلت مريم أخت حميد إلى الغرفة قائلة: أيّتها العروس أخي يريد أن يكلمك.

وضعت «شادوراً» فضيّ اللون على رأسي واقتربت من باب المدخل، كان حميد ينتظرني وهو يحمل باقة من الورد الزهريّة والصفراء اللون، كان رأسه إلى الأسفل لم يرني بعد، وعندما ناديته التفت إليّ واقترب منّي مبتسماً، لم يكن يرتدي ملابس رسميّة بل ملابس هي نفسها التي يرتديها دائماً، البنطال الرمادي والقميص من فوقه.

أخذت باقة الورود من حميد وشممت رائحتها وقلت: شكراً كثيراً، لقد أتعبت نفسك، ابتسم وقال: ليست من قيمتك، ثمّ قال: لقد جاء العاقد، سنقرأ الخطبة لبضعة دقائق جهّزي نفسك،أجبته بحركة من عيني ودخلت إلى الغرفة.

ورغم أنّنا كنّا في شهر مهر[٩] إلا أنّ الغرفة وبسبب الازدحام كان جوّها خانقاً، مرّت نصف ساعة ولم يحدث شيء، لم أكن أعلم لماذا لا يجرون العقد كي لا يتعب الضيوف؟ وعندما جاءت أمّي إلى الغرفة سألتها بصوت منخفض: قال حميد إنّ العاقد قد أتى فلماذا لم يحصل شيء؟ فقالت: لا بدّ أنهم يسجلون بعض تفاصيل العقد وهذا يستغرق بعض الوقت.

---

[٩] الموافق للثاني والعشرين من أيلول فما بعد.

حضر جميع المدعوين إلا حميد الذي غاب عن الأنظار، وبعد قليل تبين أن حميد قد نسي بطاقته الشخصيّة، وحتّى يحضرها يحتاج إلى ساعة من الوقت، وانتقلت القصة من فرد إلى آخر وعرف الجميع أن حميداً قد نسي بطاقته، وبدأ الضحك والكلام، وكنت أشعر بالامتعاض من هذا النسيان.

وبعد أن عاد حميد مع بطاقته عكف كبار العائلة على كتابة العهود المقررات للطرفين وتقرر أن تتكفل عائلة حميد بتجهيز أربعة أشياء من مستلزمات الزواج.

وأثناء قراءة العقد كنت أنا وحميد نجلس على كنبة تتّسع لثلاثة أفراد، أنا في جهة وحميد في جهة أخرى، وقد التصق بطرف الكنبة الخشبي وكان هناك حائل بيننا.

كانت سفرة العقد[١٠] بسيطة جداً ولكن مليئة بالحبّ: قطعة من خبز «السنگك»[١١] علامة على البركة، صحن من الخضار، وردة مجفّفة داخل إناء من الماء لتعطير الحياة، ووعاء من العسل، وعلبة محابس الزواج ومرآة كانت أمامي وأمام حميد، فأحياناً تكون البساطة رائعة. وكان في يد حميد قرآن كريم، قرآن مترجم وله تفسير ملخّص، وأنا كنت أحفظ حينها خمسة أجزاء من القرآن، رحنا نقرأ كلانا القرآن، وعندما عرف العاقد أني أحفظ بضعة أجزاء من القرآن شجّعني ووعدني بهديّة. ثمّ طلب الفحص ليجري عقد الزواج. قدّم له حميد نتيجة الفحص وعندما رآها الشيخ قال: هذه تعود لزواجكما العائلي، أنا أقصد الفحص الذي كان يجب إجراؤه في المركز الصحي للشهيد «بلنديان» وعليكما أن تحضرا هناك فصلاً دراسياً ضمن العقد. قال حميد بعد أن عرف أنه خرب كل

---

١٠ من التقاليد الإيرانيّة أن توضع سفرة رمزيّة في حفل العقد.

١١ خبز إيراني تقليدي يصنع على الحصى.

شيء وهو واضع يده على لحيته: أليست هذه هي؟ لقد اعتقدت أنّ هذه تكفي. وما إن قال هذا حتى سرت همهمة بين الحاضرين، قلت لحميد بخجل: كنت أعرف أن هناك شيء ناقص، هناك قلت لك: علينا الذهاب لإجراء فحص آخر ولكنّك قلت: هذا يكفي.

شعرت بالاضطراب، لقد دعونا كل هؤلاء الضيوف، والآن متحيرون ماذا نفعل، بدون الفحص لا يمكن للعاقد إجراء العقد الدائم، حتى قرر بنفسه أن يجري العقد الآن بشكل مؤقت حتى نجري فيما بعد في المحضر العقد الدائم بعد المشاركة في الفصل الدراسي الذي يتطلبه العقد وإجراء الفحوصات اللازمة.

وفي اللحظة التي بدأ فيها العاقد بقراءة الخطبة سكت الجميع احتراماً لهذه اللحظات الجميلة وراحوا ينظرون إلينا، كان يعتريني إحساس عجيب، كنت أسمع صوت قلبي وأتمتم سورة ياسين، ودعوت لكي يقضي الله حاجات الجميع، ووقع ناظري للحظة على صورتي وصورة حميد في المرآة، كانت عينا حميد مغلقتين، ويداه على ركبتيه مرفوعتان بالدعاء ويدعو متمتماً، وقد انسابت على جبينه خصلة من شعره، ودون تكلّف منّي رأيته أجمل رجل على وجه الأرض، شعرت بالاطمئنان وارتسمت على وجهي ابتسامة.

وفي تلك اللحظات قطفت الورود وأحضرت ماء الورد[١٢]، وعندما قال العاقد للمرة الثالثة: هل أنا وكيلك أيّتها العروس؟ نظرت إلى أمي وأبي وبعد أن قلت بسم الله قلت بصوت هادئ: من بعد إذن أبي وأمي والكبار «نعم».

وبعد أن قلت نعم ارتفع صوت المغرب بالأذان، وكانت حالي تشبه من

---

[١٢] من التقاليد الإيرانيّة أن تؤخّر الفتاة الجواب ويتذرّع الحاضرون بأنها تقوم بتلك الأفعال.

سقط من مكان مرتفع، لقد وصلت إلى غاية السكينة واطمئنان البال
بعد العقد استأذن حميد أبي ليلبسني خاتم الزواج، وبقي خاتم حميد
حسب عادتنا ليوم الزواج، وكان الجو أثناء التقاط الصور جميلاً. وأثناء
التصوير ورغم أننا كنا قد عقدنا قراننا إلا أننا لم نكن نجلس قريبين
من بعضنا ولم نتصنّع حركات، كنّا في كلّ الصور نقف أنا وحميد
بشكل ثابت والشيء الوحيد الذي كان يتغيّر في الصورة هم الأفراد
الذين يتصوّرون معنا مرّة عائلتي ومرة عائلة حميد وأخرى أخواته.
ومع خلوّ المكان من أكثر المدعويين أصر البعض على أن نطعم بعضنا
العسل، كان حميد خجولاً جدّاً، وما إن رأيت إصبعه حتى تراجعت
وكنت قد عرفت أنه لما ذهب لإحضار بطاقته الشخصيّة كانت الدراجة
النارية لأحد أصدقائه قد تعطّلت، وبما أنّه كان خبيراً في مجال التصليح
فقد ساعده على إصلاحها وبعد أن وصل ونظراً للتأخير الذي حصل في
إجراء العقد فقد جلس إلى سفرة العقد بهاتين اليدين الملطختين
بالزيت، ثم قام بتنظيفها جيداً بمنديل، وأخيراً أكلنا العسل.
وبعد أن انتهى كلّ شيء كان حميد يتحدّث مع عليّ في فناء الدار، ومع أنّ
أبي كان خاله، إلا أنه كان يشعر بالخجل وينتظر أن يرحل الجميع حتّى يدخل.
وقالت مريم أخت حميد: الحمد لله فقد انتهى كلّ شيء بسلام، فاذهبي
أنت وحميد خارجاً وتنزّها، وأنا سأساعد زوجة خالي في أعمالها. وبينما
كنت أجمع سفرة العقد قلت: لا مشكلة، ولكن بعد أن يسمح لي أبي.
فقالت مريم: غداً يذهب أخي إلى الخدمة في همدان لمدّة ثلاثة أشهر.
فقلت متعجّبة: ثلاثة أشهر؟ يا لها من مدّة طويلة! وكأنّ عليّ أن أعوّد
نفسي على غيباته من الآن.
نقلت الأشياء إلى مكانها وبعد أن غادر كلّ الضيوف أخذت إذناً من
والدي وخرجت من البيت مع حميد، وما إن مشينا حتّى حلّ الظلام.

ركبنا في سيّارة سعيد والتي كانت من نوع «پيكان»[١٣] صنعت عام السبعين[١٤]، كانت سكّريّة اللون بمقاعد بنيّة، وكما يقول حميد: مقودها زيتي، وكان هذان الأخوان قد أوليا اهتماماً كبيراً بهذه السيارة حتّى بدت وكأنها مصنوعة للتو. وكان حميد يدّعي بأنّه «شوماخر»[١٥] الأول في قيادة السيّارات، فكان يسير بها بكامل الطمأنينة والأمان ولو كان فيها ماء لما تحرّك من مكانه.

انطلقنا نحو مرقد السيّد «اسماعيل» ابن أحد الأئمة، فوصلنا عند الساعة التاسعة والنصف، وعندما أردنا أن ندخل تردّد قليلاً ثمّ قال: من فضلك أعطني رقم جوّالك حتى اتصل بك بعد الصلاة والزيارة، ولم نكن نعرف أرقام بعضنا حتّى ذلك الوقت. وبعد أن أخذ الرقم ابتسم وقال: لقد حفظت رقمك باسم خاص، ولكن لن أخبرك به. فقلت في نفسي: لا بد أنّه حفظه باسمي أو باسم «زوجتي»، ولم أدقق في الأمر أكثر من هذا. قرأنا الزيارة وصلّينا، وبعد ربع ساعة اتصل بي، وبعد أن خرجنا مشينا إلى آخر شرفة المرقد، ومررنا من أمام مزار الشهيد «أميد علي كيماسى»، وعندما دقّقت النظر في حميد رأيته يسير نحو المقبرة فتعجّبت كثيراً؛ ففي اليوم الأول لعقد قراننا وفي هذا الوقت من الليل، وبدل أن نذهب إلى الحديقة والجبل والمطعم والمقهى نمضي الوقت هنا؟!

كان الطقس هناك جبليًّا، وكان حميد يتقدّمني في المشي، كانت القبور مبعثرة في الأعلى والأسفل كدت أعثر لعدّة مرّات، ولم أجرؤ أن أقول لحميد: أمسك بيدي، كان المكان مظلماً لكنّي لم أشعر بالخوف أبداً. وما إن تقدّمنا قليلاً حتّى قال حميد: فرزانة لقد جئنا في اليوم الأول من

---

١٣ من أقدم السيّارات المصنوعة في إيران.

١٤ الموافق لعام 1991 م.

١٥ بطل ألماني في قيادة ال

حياتنا الجميلة إلى هنا حتّى نتذكر أنّ النهاية هي إلى هنا، ولكنّي متأكد أني لن آتي إلى هنا، فسألته بنظرة مني: ماذا تقصد؟ نظر إلى السماء وقال: أنا متأكد أني أذهب إلى روضة الشهداء، لقد دعوت اليوم وأثناء عقد القران أن أصبح شهيداً.

وما إن قال هذا حتى شعرت بقلبي يخفق، كانت كلماته ذات وقع خاص ولم يكن هذا الكلام غريباً بالنسبة لي، كنت أعرف هذه الأشياء منذ طفولتي، ولكنّي لم أكن أريد أن أفكّر حالياً بالموت والنهاية والفراق فهذا لا يزال مبكراً؛ نحن في أول الطريق ولديّ الكثير من الأحلام والأمنيات، كنت أحبّ أن تمتلئ حياتي لسنوات من وجود حميد وهذا العشق الجميل.

وكنّا نتحدّث فأحضروا أحداً لدفنه، تعجّبت كثيراً فلم أكن قد رأيت من قبل أحداً يدفن في الليل، والمدهش أنّ المتوفى كان من أقارب عمّتي البعيدين فقال حميد: ابقَي هنا، أريد أن أشارك في جنازة هذا المسكين؛ فله عليّ حقّ الجوار، وسأعود بسرعة. وبقيتُ جالسة وحدي وسط المقبرة، وكنت أفكّر كم الموت قريب منّا، وفي اللحظة نفسها كنت أشعر أنّا بعيدين عن الموت. وكان تلألؤ مصابيح المدينة والمرقد يعطيني الأمل، الأمل بأيام يحملها لنا المستقبل.

وفي الساعة الحادية عشرة ركبنا السيّارة، وكنّا نشعر بالجوع، لقد انهمكنا في المراسم والضيوف حتّى نسينا أن نأكل شيئاً ذا بال منذ الصباح، ولم يكن قرب ذلك المرقد أيّ مطعم.

اقتربنا من المدينة، ولأنّ اليوم كان يوم الجمعة، وكان الوقت متأخراً، فكنّا كلّما اقتربنا من مطعم إمّا نجده مغلقاً أو قد أنهى ما لديه. وأخيراً وجدنا في أسفل السوق محلاً صغيراً يبيع اللحم المشوي، ولم يكن عنده مكان نجلس فيه، فقرّرنا أن نأخذ الطعام معنا. وكان حميد يحبّ

اللحم المشوي فطلبه لنفسه، واشترى لي دجاجاً مشوياً. وبعد أن جهز الطعام سألني: أين سنأكلها؟ رفعت كتفي أن: لا أدري! وكان ان انطلقنا بالسيّارة نحو «باراجين».[١٦]

وبعد حدود عشرة كيلومترات صعدنا فوق تلة، وكانت المدينة تبدو من الأعلى، فرش حميد قطعة نايلون على الأرض وقال: اجلسي هنا حتى لا يتسخ «الشادور» بالتراب.

وما إن بدأنا بتناول الطعام حتى بدأ المطر، أردنا بداية أن نأكل عشاءنا في جو عاشق تحت المطر، ومرّت لحظات لنرى أنّ هذا المطر أشدّ من رغبتنا، فجمعنا أغراضنا بسرعة وركضنا باتجاه السيارة. ولكي يلفت حميد انتباهي كان يأكل البصلة كالتفاحة، كان يتأذى منها ولكنه كان يضحك، كان يغلق عينيه ويفتح فمه ولشدّة ما ضحكت لم أعرف كيف تناولت طعامي. وعند عودتنا كدنا نصدم السيّارة، كنّا نجرّب عالماً جديداً، الدنيا التي تقرّر أن أقدّمها إلى حميد وأن يقدمها هو إلي، لم نكن ندري ما نقول، كان هذا الإحساس بالنسبة إلي غريباً ومبهماً وممتعاً في الوقت نفسه، وكان الصمت غالباً يحكم على عالمنا، وكان حميد يقول باستمرار: تكلّمي، لماذا أنت ساكتة إلى هذا الحدّ؟ ولكن في الواقع لم أكن أدري عمّ أتكلم، وكنت أشعر أنّي كثيرة الصمت، ولكن كان الأمر خارجاً عن إرادتي. واستفاد حميد من كلّ فنٍ ليجرّني إلى الكلام، فحدّثته عن الجامعة وحكى لي عن عمله، ولكن بقي هناك وقت كثير، وعندما كنت أسكت لدقائق كان حميد يعود ليسألني: لماذا لا تتكلّمين؟! عندما أطعمتك العسل اكتشفت أنّ في فمك لساناً فلما لا تتكلمين إذن؟! وما إن قال هذا حتى قلت ضاحكة: آه تقصد ذلك

الإصبع الملوّث بالزيت؟!

عدنا إلى البيت عند الساعة الواحدة، كانت أمي قد وضعت مقداراً من العنب حتّى يأخذه حميد معه إلى عمتي، أخذه وذهب، وكان من المقرّر أن يذهب في الصباح إلى الخدمة، هناك لن يبقى ليوم، ولا ليومين بل لثلاثة أشهر، اشتقت له قبل أن يذهب، ومرّ اليوم الأول لعقد قراننا بهذه البساطة، وأحياناً تكون البساطة رائعة.

الفصل الثالث

وجودي من وجودك، عشقي من أجلك

ومن الساعة الأولى لعقد قراننا كان يمتلكني إحساس عجيب، صرت أؤمن بقدرة العشق وبأشواق العشق، وبلا إرادة منّي صرت على علاقة وثيقة به، وبدأت أشواقي مبكّرة، وبدأت صفحة جديدة، صفحة أخرى لم نعد فيها أنا وحميد ابن عمة وابنة خال، ومنذ الساعة الخامسة غروب الرابع عشر من شهر «مهر»[1] صرنا أصحاب سرّ واحد و مسار واحد. وفي اليوم التالي لعقد القران كان عليّ أن أحضر الدروس في الجامعة، فاشتريت الحلوى لصديقاتي، ودعوت بعضهنّ لتناول المثلّجات، فأخذن مني المحبس وصرن يتناقلنه الواحدة تلو الأخرى، وكانت العزباء منهنّ تضعه في إصبعها وتقول: يد فرزانة اليمنى على رأسنا.[2]

---

[1] الشهر السابع من الشهور الإيرانية.

[2] وهو اصطلاح شعبي متداول بين الإيرانيين تضع العروس يدها على رأس الفتاة العزباء وتقوله كي تتزوج أيضاً.

ولكثرة تعليقاتهنّ ومزاحهنّ انتبه الأساتذة وباركوا لي بدورهم، ورغم مزاح صديقاتي وتجمّعهن حولي كان الإحساس بالاشتياق لا يفارقني ومنذ تلك الليلة وبعد أن ودّعت حميداً اشتقت إليه، وبقيت هذه الأيام التسعين فكيف سأقضيها؟ وكنت في أعماق قلبي أقول: ما هذا العمل؟! ليتنا أجّلنا العقد لما بعد الخدمة حتى لا نضطرّ لتحمّل كلّ هذا الفراق. وعند الساعة الرابعة من بعد الظهر كان الدرس الأخير يوشك على النهاية، وكانت كلّ فكري عند حميد، ولم أكن أفهم شيئاً من الموضوعات التي يطرحها الأستاذ، ورحت أحسب: على كلّ حال يجب أن يكون قد وصل إلى همدان، وهناك وعلى مقعد الدراسة فتحت حقيبتي وأخرجت الهاتف النقال وشغّلته، أحببت أن أسأل عن أخبار حميد، وكانت الرسالة الأولى التي أرسلها لحميد، ولمجرّد أن اخترت رقم حميد بدأ قلبي بالخفقان، كتبت الرسالة عدّة مرّات ومحوتها، صرت تماماً كمن يستعمل الهاتف النقّال لأوّل مرّة، وكان إصبعي مترّدداً أمام لوحة المفاتيح، لم أدر لم كلّ هذا التردّد في اختيار كلماتي؟! وكانت رسالة من سطر واحد قد استغرقت كتابتها ربع ساعة من الوقت وكتبت في النهاية: سلام، أعتذر لعدم سؤالي عنك؛ فقد كان عندي محاضرة منذ الصباح. هل وصلت بخير؟

وكأنّ حميداً كان يحمل الهاتف بيده وينتظر رسالة منّي، ولم تمرّ دقيقة واحدة حتّى أجابني: وعليك السلام، متى تنتهي المحاضرة؟ وكانت هذه الرسالة الأولى من حميد. فقلت: بعد عدّة دقائق. فكتب: أنا الآن في بداية طريق «همدان» في قزوين سآتي إليك لنعود معاً إلى المنزل. كنت أعرف أنّ حميداً يجب أن يكون الآن في همدان نفسها، وليس في طريق «همدان» داخل قزوين، فقلت في نفسي: عاد لشقاوته، لأنه كان مقرراً أن يذهب إلى همدان منذ الصباح.

وعندما خرجت من الجامعة لم أر أحداً، كنت متأكّدة بأنّ حميداً كان يمزح، ابتعدت مئة متر عن مدخل الجامعة الرئيسيّ فسمعت صوت بوق دراجة ناريّة لفت انتباهي، وعندما أمعنت النظر جيّداً وجدت حميداً قد جاء ليصطحبني بدراجته. سألته: ألم تذهب إلى الخدمة؟ خلع القبعة عن رأسه وقال: لحسن حظّنا تمّ إلغاء المهمّة. كان سعيداً جداً وفرحت أكثر منه، فلم أكن أطيق ذهابه في مهمّة في صبيحة اليوم التالي لعقد قراننا، ولقد مرّت تلك الساعات القليلة بصعوبة، فكيف لو كنت سأنتظر لبضعة أشهر؟! وما إن قال: اركبي لنذهب، قلت بتعجّب: لا يا حميد، أنا لم أركب دراجة نارية لحدّ الآن، وليس هذا من شأني، اذهب أنت وسألحق بك بسيّارة أجرة. لم يدعني وشأني وقال: اركبي وستعتادين على الأمر، سأقودها على مهل.[٣]

قرأت سورة التوحيد عدّة مرات وركبت، وطوال الطريق كنت كمن يريد أن يدخل في نفق مخيف، فكانت عيناي مغلقتين من الخوف، وتذكّرت سيركاً قديما كان يقام في منطقتنا، وكان أحدهم يقود درّاجة ناريّة على الجدار. وحتّى نصل أكون قد فقدت نصف حياتي، وعند المستديرة وما إن أردنا أن ننعطف ودارت الدراجة، حتّى ارتفع صوتي منادياً: يا زهراء! وقلت: سنسقط الآن على الأرض ونقع تحت السيارات.

وبعد أن ألغيَت مهمّة حميد قرّرنا أن نذهب نهار الثلاثاء لإجراء الفحص والدروس الخاصة بالعقد في مركز الشهيد «بلنديان»، وحتّى نهار الثلاثاء كان يأتي لمرافقتي بعد الظهر على هذا النحو، فقد سأل عن ساعات دراستي وصار يعرف متى تنتهي وصار ينتظرني حين انتهائها، و كان اهتمامه هذا بي يسعدني كثيراً، كان يأتي بالدراجة نفسها درّاجة هوندا

---

٣ ليس من المستهجن في العرف الإيرانيّ أن تركب المرأة الدراجة النارية خلف زوجها وإن كان مستهجناً في ثقافات وأعراف أخرى.

زرقاء وخضراء اللون قد صدمها عدّة مرّات ولم يبقَ فيها مكان سليم وعندما كان يأتي كان يقف بعيداً عن الباب الرئيسيّ بخمسين متراً أو مئة متر، وكنت أمشي كلّ هذه المسافة، ويوم الاثنين كنت منهكة القوى من شدّة التعب، وعندما خرجت من الجامعة رأيته يقف على بعد مئة متر، وعندما وصلت إليه قلت له معاتبة: وبما أنك تتعب نفسك وتأتي لتأخذني فلماذا تقف هنا؟ اقترب من باب الجامعة حتى لا أضطر إلى كلّ هذا المشي. قال حميد: لا أخفي عليك كما لا أخفي على الله، أخاف أن تخجلي من أن تعرف صديقاتك أنّ لدينا درّاجة نارية، لذا أقف بعيداً حتى لا تشعري بالإحراج أمام البقية. قلت له: ما هذا الكلام؟ ما يفكّر به الآخرون وما يقولونه ليس مهمًّا، كما أنّ وسيلة نقل أنصار صاحب الزمان يجب أن تكون متواضعة، فمن الآن فصاعداً اقترب من الباب. وفي الأيام التالية كان يقوم بذلك فيقف أمام باب الجامعة وبعد أن أودّع صديقاتي كنت أركب الدرّاجة ونذهب معاً.

ذهبنا يوم الثلاثاء وأجرينا الفحص، ثمّ جلسنا في صفوف منفصلة كانت معدّة لمرحلة العقد، وبعد ساعة من دخولنا أرسل إلي عدّة رسائل: هل أنت بخير؟ هل تشعرين بالجوع؟ هل تشعرين بالعطش؟ فهو حتى في الأوقات التي لا نكون فيها معاً كان يبحث عن ذريعة ليتحدث معي، وما إن انتهى الدرس حتى عاد بي إلى الجامعة، فقد كان لدي محاضرتان بعد الظهر.

في تلك الليلة كان عرس مهدي ابن عمة حميد، ولم يحدث أن التقينا في العرس، لأنه منذ الصباح ذهبنا لإجراء الفحص وبعدها الجامعة ثم العرس، فتعبت كثيراً، وما إن وصلت إلى البيت حتى استسلمت للنوم وعوّضت نومي في الليالي السابقة.

عندما استيقظت في الصباح ونظرت إلى هاتفي انتبهت إلى عدّة

وعلقت يدي بشباكه، بكيت كثيراً، لم أكن أريد أن أتصرّف بهذا النحو، التمست العون من الله ومن صاحب الضريح، فلم أكن أحبّ أن يؤذي سلوكي القاسي ذرّة من حميد.

وتعقّد الأمر أكثر حتى تدخّلت أمّي، فعندما وصلنا إلى البيت قالت لي: لماذا ترتدين حجابك يا ابنتي في وجود حميد؟! أمسكا يدي بعضكما، كونا أكثر ألفة، هو الآن زوجك وشريك حياتك. ثمّ اقترحت عليّ لكي يزول خجلي أن أضع على يدي حميد مرطباً، ولأن حميداً يعمل في مجال الاتّصالات وأكثر وقته في وصل الأسلاك الخشنة والعسكريّة، وفي برد الشتاء أيضاً كان مجبراً أن يعمل في إعداد مراكز الاتّصالات، لذا لم يكن هناك مكان معافىً في يديه، وعندما كنت أضع له بلسماً كانت يدانا نحن الاثنان ترتجفان، وشعر حميد بالخجل أكثر منّي، ومر شهر حتى تقبّلنا فكرة أننا خطيبين.

❋ ❋ ❋

لم تكن المرّة الأولى التي أغيّر فيها ورقة هديّة حميد، كان عندي ما يشبه الوسواس، أحببتُ أن تكون أول هديّة أقدّمها إلى حميد شيئاً يبقى في ذاكرته إلى الأبد، وما إن قرع جرس الباب حتى أخفيت بسرعة اللاصق والمقص وورقة التغليف داخل الدُّرج، كان حميد ينتظرني في الأسفل ومهما فعلت لم يصعد إلى الأعلى.

أخفيت الهدية تحت «الشادور» ونزلت. قال حميد: غداً دعتنا أمي لتناول الطعام مع بقيّة العائلة، جئت لأقول لك أن لا تخطّطي غداً لشيء آخر. شكرته وقلت: حميد أغلق عينيك، فضحك وقال ماذا تريدين؟ أن تبللّيني بالمياه؟ قلت: لا تفعل شيئاً، أغلق عينيك وعندما أقول افتحهما فافعل وعندما أغلق عينيه قلت: لا تخدعني، أغلق عينيك

جيداً ولا تنظر من أسفلهما. جعلته ينتظر لعدة ثوان، أخرجت الهدية من تحت «الشادور» ووضعتها أمام عينيه وقلت : يمكنك أن تفتحهما الآن. وعندما وقعت عيناه على الهديّة سرّ كثيراً فلم يكن يتوقع شيئاً كهذا، وفتح الهديّة وهو في مكانه، كنت قد وضعت في الهدية تربة مكان استشهاد أحد الشهداء المجهولين وإلى جانبها قطعة من كفنه، هذه التربة والقطعة من الكفن قدّموها إلينا أثناء سفرنا إلى الجنوب، كانت عزيزة عليّ كثيراً وكنت أشعر بهدوء خاص قربها. شكرني حميد كثيراً وقال: لن أنسى أبداً أوّل هديّة قدّمتها إليّ، ثمّ وضع التربة داخل جيب قميصه قائلاً: أحبّ أن تبقى هذه التربة في جيبي كعلامة ترافقني، وأعدك أن لا أبعدها عني أبداً.

وداخل فناء الدار قرب الزهور كان كلانا يشعر بالحماس، تناولنا شتى الأحاديث، وكان حميد يشعر بحساسيّة بالنسبة لدعوة الغد؛ لأنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى منزل عمّتي بعنوان كنّة لهم؛ فقال حميد: عندما تذهبين إلى بيتنا لا تجلسي، فالعادة تقتضي أن تساعد الكنّة في الأعمال، وليس جيّداً أن تجلسي بينما تعمل الأخريات. فأجبته: حاضر، لا تقلق، أنا أعي هذا، وماهرة فيه. وكان رذاذ المطر الخفيف باعثاً لفراق القلوب قبل أن يبلّلنا أكثر فأكثر.

كانت قطرات المطر الخريفية اللطيفة تستقرّ فوق أوراق الزهور والأشجار داخل الحديقة وتبلّل وجهينا، وما إن غادر الباب وقبل أن أغلق خلفه قلت له للمرّة الأولى: ... يا حميد! ثمّ أغلقت الباب بقوّة واستندت إليه، كان قلبي يخفق بشدّة، وعيناي مغلقتين، ومن خلف الباب سمعته يقول: وأنا... يا فرزانة. ومن شدة الخجل ركضت إلى الداخل، كانت هذه هي المرّة الأولى التي يخبر فيها أحدنا الآخر أنه يحبّه.

وفي الغد ذهبت مع عائلتي إلى منزل عمّتي، والاضطراب الذي شعرت

به منذ الأمس زال بفضل السلوك الحميم والمزاح الذي دار بين بنات عمتي وزوجات إخوانهم، أما والد حميد الذين كنت أناديه أبي منذ عقد قراننا فقد رحّب بي بحنان، وعمّتي كانت تكثر من ملاطفتي، وبعد الغداء جرى الحديث عن موعد العقد، وتقرّر أن يكون يوم السادس والعشرين من الشهر وذلك في ذكرى زواج الإمام علي عليه السلام والسيّدة الزهراء عليها السلام وسنذهب للمحضر لإجراء العقد بشكل رسمي، ولكن حميداً قال: لو سمحتم أن نؤجل العقد قليلاً، لأني نظرت إلى التقويم فرأيت أن القمر في برج العقرب ويكره إجراء العقد.

وبعد أن انتهينا أوصلني حميد إلى الجامعة وذهب ليحضر نتيجة الفحص، ومن حسن حظّنا تغيّب الأستاذ ولم يكن هناك محاضرة، فكنت أتحدّث مع صديقاتي، وفجأة ظهر على شاشة الهاتف اسم زوجي العزيز وتاج رأسي حميد، فقالت إحدى صديقاتي التي انتبهت للرسالة بمزاح: تعالوا وانظروا إلى هاتف فرزانة لقد كتبت بدل اسم زوجها موضوعاً إنشائياً.

كان حميد قد أصبح مخاطَبي الخاص، ليس فقط في الهاتف بل في قلب حياتي، وكلّ ما أملك.

وكتب لي حميد في رسالته أنه استلم نتيجة الفحص وكلّ شيء يسير على ما يرام، فكتبت له ممازحة: هل أنت متأكّد أن كلّ شي جيّد، لم أكن أتعاطى المخدّرات؟! فقال حميد: لا، الحمد لله كلانا سالمان.

وبعد عدّة دقائق أرسل لي رسالة أخرى: من الطائرة إلى برج المراقبة، هل يوجد مكان في قلبك لأحط أو يجب أن أحلّق حولك قليلاً؟ فأجبته: حلق قليلاً لنرى ما الأمر التالي، ولم يسمح لي قلبي أن أؤذيه أكثر فقلت: شرفونا والقلب لكم، ولكن اغسل يديك ورجليك ولتكن غير ملوثتين بالزيت كما في ذلك اليوم. ولمثل هذه الكلمات كان

به منذ الأمس زال بفضل السلوك الحميم والمزاح الذي دار بين بنات عمتي وزوجات إخوانهم، أما والد حميد الذين كنت أناديه أبي منذ عقد قراننا فقد رحّب بي بحنان، وعمّتي كانت تكثر من ملاطفتي، وبعد الغداء جرى الحديث عن موعد العقد، وتقرّر أن يكون يوم السادس والعشرين من الشهر وذلك في ذكرى زواج الإمام علي عليه السلام والسيّدة الزهراء عليها السلام وسنذهب للمحضر لإجراء العقد بشكل رسمي، ولكن حميداً قال: لو سمحتم أن نؤجل العقد قليلاً، لأني نظرت إلى التقويم فرأيت أن القمر في برج العقرب ويكره إجراء العقد.

وبعد أن انتهينا أوصلني حميد إلى الجامعة وذهب ليحضر نتيجة الفحص، ومن حسن حظّنا تغيّب الأستاذ ولم يكن هناك محاضرة، فكنت أتحدّث مع صديقاتي، وفجأة ظهر على شاشة الهاتف اسم زوجي العزيز وتاج رأسي حميد، فقالت إحدى صديقاتي التي انتبهت للرسالة بمزاح: تعالوا وانظروا إلى هاتف فرزانة لقد كتبت بدل اسم زوجها موضوعاً إنشائياً.

كان حميد قد أصبح مخاطَبي الخاص، ليس فقط في الهاتف بل في قلب حياتي، وكلّ ما أملك.

وكتب لي حميد في رسالته أنه استلم نتيجة الفحص وكلّ شيء يسير على ما يرام، فكتبت له ممازحة: هل أنت متأكّد أن كلّ شي جيّد، لم أكن أتعاطى المخدّرات؟! فقال حميد: لا، الحمد لله كلانا سالمان.

وبعد عدّة دقائق أرسل لي رسالة أخرى: من الطائرة إلى برج المراقبة، هل يوجد مكان في قلبك لأحط أو يجب أن أحلّق حولك قليلاً؟ فأجبته: حلق قليلاً لنرى ما الأمر التالي، ولم يسمح لي قلبي أن أؤذيه أكثر فقلت: شرفونا والقلب لكم، ولكن اغسل يديك ورجليك ولتكن غير ملوثتين بالزيت كما في ذلك اليوم. ولمثل هذه الكلمات كان

يقول لي: «سيدة نظافة» لأني كنت أدرس في كلية الطب وأهتم كثير
بهذه الأمور، ولكنه لم يكن يبالي كثيراً بذلك، كان يراعي ولكن ليس
بقدر «السيدة نظافة».

وبعد أن أخذنا نتيجة الفحص قررنا أن نجري العقد بعد يومين، ولم
يتم الأمر لنا، لقد ذهبت عائلة حميد إلى قرية سنبل آباد وطال عملهم
هناك، وهذه هي المرة الثانية لتحديد موعد للعقد دون أن يتم.

كان حميد قلقاً من أن أستاء من التأخير لأن نتيجة الفحوصات لا تصلح
لأكثر من شهر، فأرسل لي رسالة: عزيزتي أنت ذات قلب كبير، لا تحزني
أبداً سنذهب في أسرع وقت لإجراء العقد، وفي هذه اللحظة نظرت إلى
التقويم وأرسلت رسالة إلى حميد، اليوم العاشر من الشهر القادم ولادة
الإمام علي الهادي عليه السلام، ما رأيك أن نجريه حينها؟ فأجاب على الفور:
ممتاز، سأتحدث الآن إلى أبي وأمي ونحسم الأمر.

ويوم الخميس وبينما كنت أكوي ملابسي، ارتفع جرس رنين الباب
وبعد لحظات عادت أمي لتقول: حميد ينتظر قرب الباب، ويريد أن
يذهب إلى «الهيئة»[1] لذا لم يصعد وكأنه يريدك في شيء، وضعت
«الشادور» على رأسي واقتربت من فناء الدار وأنا أحمل كوباً من العصير،
كان حميد يقف تحت شجرة التين، وما إن رآني حتى اقترب مني، وبعد
السلام قدمت له كوب العصير، وبعد أن شربه شكرني وقال: أتمنى
لك زيارة كربلاء، وفي هذه اللحظات أعطاني كيساً بيدي وقال لي: لقد
أرسلت لك أمي جوزاً ممتازاً.

شكرته وسألته: هل فعلت شيئاً من أجل العقد؟ هزّ رأسه وقال:
ذهبت اليوم إلى المحضر وأخذت موعداً للعاشر من الشهر القادم.

---

[1] هي تجمع تقام فيه مجالس العزاء وتحي فيه أيضاً جميع ولادات ووفيات أهل البيت عليهم السلام.

فقلت: ولم لا تأت إلى الطابق العلوي؟ فقال: أريد أن أذهب إلى الهيئة. وكما تعلمين وحسب البرنامج الأسبوعي فإنّ لدينا برنامجاً كلّ خميس، وبعد تردّد قال: فرزانة هل أقول لك شيئاً ولا ترفضين؟ فقلته متعجّبة: ماذا حميد؟ هل حصل شيء؟ قال: هل يمكن أن ترافقيني إلى الهيئة، صدّقيني الناس هناك عطوفون و طيّبون. لقد أخذت سيّارة صديقي بهرام لنذهب معاً، تعالي مرّة احدة وإن لم تعجبك فلن أقول لك شيئاً بعدها.

وكان حميد قد أصرّ عليّ لمرّة أو مرّتين ان أرافقه إلى الهيئة، ولكنّي كنت أشعر بالخجل وأتذرّع بشتّى الأعذار لأهرب من الذهاب، ومن خلال كلام حميد كنت أشعر أن جوّ الهيئة تطغى عليه الألفة وأنا غريبة بينهم. وعندما تكلّم هذه المرّة عن الهيئة لم أحبّ أن أرفض طلبه، ولذا ذهبت للمرّة الأولى، وكان الأمر شاقّاً بالنسبة لي كوني لا أعرف أحداً، حتّى أنّي قلت له وسط الطريق: حميد أرجعني، اذهب أنت وعد بسرعة، ولكنه كان قد عزم على أن يأخذني على أيّ حال.

وكنت في البداية أشعر بإحساس غربة، وجلست في زاوية، ولكنّ تصرفات الأفراد المشاركين دعتني لأرى نفسي واحدة منهم، ومع أنّي لا أعرف أحداً فقد صرت صديقة للموجودين، كان الجوّ رائعاً، كان لدى الجميع إحساس بالصداقة والألفة.

وفي صباح اليوم التالي كان عندي محاضرة في الجامعة، وبعدها جاء حميد لمرافقتي كعادته بدرّاجته الناريّة، ولكن هذه المرّة مع باقة من الزهور يحملها بين يديه، زهور كانت تلمع من بعيد تحت أشعة الشمس التي تميل نحو الغروب، وبعد ان استقبلني ببشاشة قدّم إليّ الزهور، شممتها وقلت له: شكراً عزيزي حميد، لقد فرحت بها كثيراً، وما مناسبة زهور بهذه الروعة؟! تستحقين أكثر منها، لأنّك وافقت أن

تذهبي هذا الأسبوع إلى الهيئة، كانت هذه الزهور شكراً لك.
وليس خفيًا على الله، أن نيتي من الذهاب كانت فقط أن يكفّ عن إصراره، ولكنّ سلوكه هذا كان دافعاً لأن تبقى تلك الليلة في خاطري ومنذ ذلك الوقت صرت عضواً ثابتاً في «هيئة خيمة العباس»، وقد جعل حميد الكثيرين من أهل الهيئات بتلك التصرّفات وذاك الأسلوب

صرنا نشعر بالألفة مع بعضنا أكثر فأكثر، وأحببت أن اشتري له ملابس تلائم ذوقي، وفي الصباح أرسلت له رسالة أن تعال باكراً حتّى نذهب إلى السوق ونشتري ملابس جديدة.

وعندما نظرت إلى تاريخ الرسالة على صفحة الهاتف اضطرم قلبي شوقاً للقياه، كان اليوم هو يوم موعدنا لإجراء العقد في المحضر وهو مصادف لولادة الإمام الهادي عليه السلام، كنت في غاية الاضطراب، وكان العاقد قد طلب منّا أن نحضر عند الساعة الرابعة من بعد الظهر ليجري لنا العقد قبل أيّ أحد.

كان حميد عندنا على الغداء، أكلنا المعكرونة بسرعة وخرجنا سريعاً من المنزل، واستقلّينا سيّارة قديمة وانطلقنا نحو السوق، لم يكن لدينا متّسع من الوقت، كان علينا العودة بسرعة حتى نصل إلى المحضر، لم أكن أريد أن نجعل العائلة والعاقد ينتظرون كما في المرة السابقة. كان لدى حميد جاكيت فاشتريت له قميصاً أبيض ذا خطوط بنيّة اللون مع بنطال، ولأنّ الطقس أصبح يميل إلى البرودة فقد اشترينا معطفاً صوفياً، وبقينا لساعة ونصف الساعة في السوق، لقد تأخّرنا، أوصلني حميد إلى البيت حتى أذهب برفقة عائلتي ثمّ ذهب لإحضار أبيه وأمّه، وعندما اقتربنا من المنزل، ولشدّة ما كنا على عجل، ركن حميد

السيارة جانب القناة تماماً، وبينما كنت أتحدّث إليه وأنا ذاهلة عن كلّ شيء وقعتْ دفعة واحدة في مجرى المياه حين نزولي من السيارة. فارتفع صوته بالضحك وقال: ما شاء الله أيّها السائق! لا بد أن وقوفي هنا أعجبك! لقد ركنت السيارة على طريقة «°شوماخر». ولم يكن أبداً ليشعر أحداً بأنه مخطئ، وكان ينهي الأمور بكلامه وتصرّفاته الخاصة. وعند الساعة الرابعة وصلت مع أبي وأمي إلى المحضر في شارع فلسطين، وكان رقمه ١٢٥ ويقع مقابل مسجد محمد رسول الله ﷺ، وبعد نصف ساعة وصل والد حميد وأمّه مع أخيه سعيد، سلّمت عليهم وعيناي ترقبان رؤية حميد لكنّه لم يظهر، امتعضت، جاء كلّ هؤلاء ولكن صاحب المشروع العريس لم يأت! وبعد أن تقصيت عن السبب عرفت أنّ قصّة المرّة الماضية قد تكرّرت. وسط الطريق انتبه حميد أنّه لم يحضر بطاقته الشخصيّة وحتّى يصل تكون الساعة قد تجاوزت الخامسة.

ولأنّ أبي كان عسكريًّا كان دقيقاً في أوقاته، وكانت الساعة الرابعة بالنسبة إليه تختلف عن الساعة الرابعة والخمس دقائق، وقد كبرنا على هذه التربية، فشعرت بالاستياء من التأخير، وكأنّ الدم قد جفّ في عروقي.

كان حميد يجلس في الغرفة مع أبيه وأمه، وكنت أنا مع أمي وأبي تماماً في مقابلهم، فقال العاقد: بما أننا تأخّرنا وقد أخذ الجميع مواعيد سابقة، فعلينا أن نصبر حتى يفرغ البقيّة ثم نجري العقد بعد الجميع. كان العرسان يأتون دفعات دفعات ويدخلون لإجراء العقد ونحن فقط متفرّجون.

وعندما رآني حميد متعبة أرسل إليّ رسالة، «دارلينك» لا تحزني، لا بد أن هناك حكمة من نسيان بطاقتي الشخصيّة مرّتين، وعندما عرف أنّي

أشعر بالاستياء كتب لي «دارلينك» وهي تعني باللغة الإنكليزية زوجتي العزيزة، حينها كان يذهب أوقات فراغه لتعلّم اللغة، فقد كان يحبّ أن يتعلّم اللغة الإنكليزيّة وكان يقول إنّها ضرورية لأبناء الشيعة، وستفيدنا يوماً ما، وكان يستعمل كلماتها من حين لآخر.

قرأت الرسالة ولم أجب، كنت مستاءة حقاً، وسمعت من جديد صوت رسالة هاتفية، وعندما نظرت وجدت أنّه قد أرسل لي نكتة هذه المرّة، ولم أستطع أن أخفي ضحكتي، وعندما رآني أبتسم، ابتسم هو بدوره، وهكذا كنّا نزيل بسهولة الأسى من قلوبنا، وإن حدث وصادفنا مشكلة أو تعباً ما كنّا نجتازه بسرعة، وأحياناً تكون البساطة والتجاوز ببساطة أمراً جميلاً.

كان حميد يرتدي المعطف البنّي الفاتح مع البنطال البنّي الغامق والملابس التي اشتريناها فسألته: هل كان مقاس القميص جيّداً؟ وهل أعجبك؟ وعندما سمعت عمّتي سؤالي نظرت إلى حميد وضحكت، فسألتها أمّي هل تضحكين يا أختاه، ما الذي جرى؟ فقالت عمّتي: عندما وصل حميد إلى البيت قلت له: لقد كويت لك قميصك وهو جاهز، البسه كي لا نتأخّر ونذهب إلى المحضر بسرعة. فأيّ وقت للشراء كان هذا الذي ذهبتم فيه إلى السوق! ولكنّه لم يقبل وقال: سألبس القميص الذي اشتريته اليوم، ومهما حاولت إقناعه بأنّ القميص مكويّ وجاهز لم يكن يسمع، لقد أمضيت وقتاً طويلاً في كيّ هذا القميص. فرحت كثيراً لسماع هذه الكلمات وعلمت أنّ ذوقي كان مهمًّا بالنسبة إلى حميد.

وتمّ قبلنا عقد قران سبعة عرسان، كان المحضر جميلاً، ستائر بنيّة اللون قد انسدلت على طرفي كرسيّي العريسين، وكان فوق سفرة العقد زينة مصنوعة من القماش السكّريّ اللون، قد رتبت بطريقة تجعلها تظلل العريسين.

وعندما وصل دورنا دخلنا فسأل العاقد: هل تهب العروس مهرها

حق نفسخ العقد المؤقت؟ العروسات السبع اللاتي دخلن قبلن ووهبن مهورهن، فنظرت إلى حميد وقلت: لا، لا أهبه!

نظر الجميع إلي بتعجب، لقد أصابتهم الدهشة، سألني والدي: هل ستقبضين المهر؟! ... قلت بشكل قاطع وصريح: بلى سأقبضه. قال حميد: حاضر، سأعطيك المهر، ومستعد لتقديمه الآن نقداً.

ابتسم العاقد قال: إذن المهر هو للعروس، ويجب أن يدفعه العريس، وبعد فسخ العقد المؤقت قرأ المقدمات وأردت أن أفتح قرآن الإستخارة ولكنّ حميداً اقترح أن أفتح على سورة ياسين.

وأثناء قراءة الخطبة قال: ادعِ الله يا فرزانة، اطلبي من الله أن يستجب لي دعائي، نظرت إلى حميد ولم أكن أعلم ما هو دعاؤه، كنت أحبّ أن أعرف ما يدعوه في هذه اللحظات، ورجوت من قلبي إن كان ما يريده صلاحاً وخيراً أن يحصل.

وطلب العاقد موافقتي أن أكون وكيلته لثلاث مرات، قطفت الورود، وأحضرت ماء الورد[6] ثم قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، بإذن إمام العصر والزمان وأبي وأمي والكبار نعم، وقال حميد الجملة نفسها: سرَّ العاقد كثيراً وقال: لقد أتى الكثيرون إلى هنا من أجل عقد قرانهم ولم يقل أحد منهم بسم الله ولا أخذوا الإذن من صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

وهذه المرّة كانت كلمة نعم مقارنة لحلول أذان المغرب، ضحك حميد ثم أمسك بيدي وقال: هل رأيتِ كانت هناك حكمة، كان نصيبنا أن تقولي نعم مع أذان المغرب.

---

[6] عادة إيرانية أن يقال عن الفتاة أثناء إجراء العقد وقبل أن تجيب بنعم أنها ذهبت لقطف الورود أو لإحضار ماء الورد.

تبادلنا القبلات مع أمي وعمتي، وكانو قد اشتروا «للكلمة»[٧] سواراً ذهـ
ولأنه كان صغيراً على يدي، قرروا أن يشتروا قلادة بدلاً عنه. وكانوا قـ
أحضروا أيضاً حقيبة مليئة بالأشياء: قرآن، «شادور»، ثوب للصلاة، بعـ
فرشاة أسنان، مع عطر ذو رائحة مميّزة. وكان حميد قد اختار كل شيء
وفقاً لذوقه الخاص.

وأثناء خروجنا من المحضر قال حميد: عندما ذهبت إلى كربلاء أردت
أن أشتري لك «شادور» العرس ولكن قلت ربما لا يعجبك، وإن شاء الله
عندما نذهب إلى كربلاء نشتري واحدً جميلاً تختارينه بنفسك.

وبعد أن انتهت الإجراءات قال لي سعيد الذي كان قد عقد قرانه منذ
مدّة: لقد عقدتما قرانكما للتوّ، خذا السيّارة واذهبا لتناول الطعام
خارجاً، كان سعيد يعمل شرطياً ويذهب عادة في مهمات ودورات
تدريبيّة إلى سيستان وبلوچستان، وقليلاً ما يتواجد في قزوين، وحتى
يوم العقد وعندما دعونا جميع العائلة إلى المنزل كان في زاهدان. فقال
له حميد: لا يا أخي، أنت أتيت للتوّ من مهمّتك العسكريّة فاذهب أنت
وخطيبتك خارجاً ونحن لا بأس في أن نذهب مشياً على الأقدام.

ودّعنا الجميع وبعد أن صلّينا في المسجد، مشينا باتجاه طريق
السوق، وبسبب قيادة حميد البطوليّة وطريقة ركنه للسيارة وسقوطي
في مجرى المياه، لم يسمح لي بالبحث عن جوارب وعلى عجلة لبست
... أبيض اللون فقلت لحميد: أنا منزعجة من هذه الجوارب البيضاء،
... سنراه دعنا ندخله ونشتري آخر أسود اللون.

... محلّ يبيع الجوارب، فقال البائع: هل أعطيك واحداً شفافاً أو
... ليس مهماً، لكن المهمّ أن يكون أسود غير ملفت للنظر.

فقال حميد على الفور: لا يا آنسة، أن يكون سميكاً أفضل، ضحكت، كان سلوكه هذا محبباً إلى قلبي، كنت أشعر أن جميع تفكيره معي.

وعندما وصلنا إلى «ميدان سبز» ذهبنا إلى المطعم وأوصى حميد كالعادة على لحم مشوي، وحتى يجهز الطعام عدّ خمسة عشر ألف تومان وقدّمها إليّ قائلاً: هذا المهر لك آنستي.

أخذت المال وقلت: اسمح لي أن أعدّها كي لا تكون ناقصة! ضحك حميد وقال: أنت متورّطة بألف تومان أو ما يزيد قليلاً. لم أعدّ المال بل مررته بشكل دائري فوق رأس حميد ووضعته في صندوق الصدقات وقلت: نذر لسلامة زوجي.

تومان وقدّمها إليّ قائلاً: هذا المهر لك آنستي.
أخذت المال وقلت: اسمح لي أن أعدّها كي لا تكون ناقصة! ضحك حميد وقال: أنت متورّطة بألف تومان أو ما يزيد قليلاً. لم أعدّ المال بل مررته بشكل دائري فوق رأس حميد ووضعته في صندوق الصدقات وقلت: نذر لسلامة زوجي.

صادفت أيّام الخطوبة مع أيام الخريف والشتاء الباردة، كانت لحظات محبّبة، وعائقها الوحيد أنها كانت قصيرة وكانت برودة الطقس باعثاً لبقائنا في المنزل أكثر من الخروج.
وفي اليوم الثاني لعقدنا دعونا حميداً لتناول طعام العشاء، وما إن بدأت بقلي أقراص العِجّة حتى ارتفع رنين جرس الباب، أدركت أن حميداً كالأيام السابقة قد أتى باكراً جدًّا، ومنذ اليوم الذي عقدنا فيه قراننا ما دعوناه لتناول الغداء أو العشاء إلا وجاء مبكّراً، فقد كان يحبّ أن يساعد، ولم يكن يأتي وقتَ الغداء أو العشاء على وجه الدقّة.
وبعد التحيّة والسلام على الباقيين، جاء إلى المطبخ معي وقال: رائع، لنرَ ماذا أعدّت لنا الطبّاخة! قلت: لا، أمّي هي التي أعدّت هذه الأقراص، وأنا أريد أن أقليها فقط، كان الزيت قد غلا كثيراً فبدأت بقلي الأقراص.
قال حميد: إن كنت أستطيع مساعدتك فأخبريني. فقلت له: هل لديك خبرة في تنظيف الدجاج؟ لقد أحضر أبي بعض الدجاج ويحتاج إلى

التنظيف، تململ قليلاً على الكرسيّ وقال: أحبّ أن أتعلّم وأساعدك.
ضحكت وقلت: من الواضح أنه في بيت ربّة منزل كعمّتي وبناتها اللاتي يقمن بجميع الأعمال لا يمكن أن يكون لكم أنتم الشباب في أعمال المنزل أيّ أثر. فقال: لا ليس الأمر بهذا النحو يا آنسة فرزانة، أنا أعدُّ أمام بقيّة الرجال طباخاً ماهراً؛ لأنّنا عندما نذهب إلى سنبل آباد فأنا الذي أطهو وينادونني أخوتي على سبيل المزاح بـ «يانگوم»[٨]
لقد شتّت الكلام مع حميد انتباهي، وأثناء تحمير كرات العجة طال الزيت يدي اليمنى، وما إن رأى حميد يدي المحترقة حتى قال: تعالي واجلسي على الكرسي وأنا أتولّى تحمير البقيّة، وفي المرّة الثانية سأشتري لك قفازات طويلة حتى لا يسكب الزيت على يديك.
جلست على الكرسي وقلت: بما أنك تنتبه للكرات فسأنظف أنا الدجاج، وأنت انظر وتعلّم، وفيما بعد وعندما نذهب إلى بيتنا تساعدني في تنظيف الدجاج، ولأنّه كان يحبّ أن يساعدني في أمور المنزل فقد جلب كرسياً وجلس قربي، شغّل كاميرا هاتفه وقال: سأسجّل فيلماً لأنّي أريد أن أتعلّم بدقّة ولا أنسى شيئاً. فقلت: آه منك حميد.
بدأت أنظّف الدجاج وأثناء العمل قلت موضّحة: «نقطع هنا أولاً، وننتبه أن ننزع الجلد بهذه الطريقة، وهذا القسم ينفعنا لإعداد الأجنحة المشوية و...» قلت ذلك تماماً كالفيديوهات التعليميّة وقد شاهده لأكثر من ثلاثين مرّة حتّى أتقنه ونظّف بقية الدجاج بشكل احترافي وبسرعة فاقت سرعتي.
وبعد أن تناولنا العشاء لم يسمح حميد لأمي كالعادة أن تنظف الصحون فقال: سننظفها أنا وفرزانة ونتحدّث أثناء التنظيف، كنت أجلي

---

٨ ممثلة في مسلسل صيني تقوم بإعداد الأطباق كثيراً.

الصحون وحميد يصب الماء عليها، وكان أحياناً يقوم بأعمال شغب ويريق الماء على وجهي ورأسي. قلت له: هل تعرف ما هي أمنيتي في الخطوبة؟ فقال: ما هي؟ قد تكونين وضعت خطة لتلك الملايين الست؟ فقلت : تلك الملايين لا تحتاج إلى خطة، كل ما يملكه حميد فهو لي، وكل ما أملكه هو لحميد فقال: إذن أخبريني ما هي أمنياتك؟ لقد أثرت فضولي لسماعها.

فقلت: أول أمنية لي هي أن نتمشّى من الجامعة إلى البيت ونكون معاً، والثانية أن نتسلّق جبل «ميلدار»[٩]؛ فعندما كنت صغيرة ذهبت مع خالي إلى أسفل الجبل ولكنّا لم نتسلقه. قال حميد: أنا سعيد لأنك فتاة قنوعة، ولديك أمنيات بسيطة، أنا مستعدّ للمشي من الجامعة ولكن الجبل لا أعدك لأنه أصبح الآن جزءاً من الثكنة ومحلّ عملنا ومن الصعب أن يسمحوا لنا بتسلّقه.

واستمرّ وداعنا في فناء الدار نصف ساعة، قال حميد لقد أخذت إجازة غداً وأريد أن أذهب إلى سنبل آباد، نريد أن ننظّف أرض بستان الكرز، أبي هناك وحده وأريد أن أذهب لمساعدته فقلت: أرجوك أن تهتمّ بنفسك، أنا أخاف من شارع «ألموت»، تمهّل أثناء القيادة، وعندما تصل إلى هناك اتصل بي.

وعند الساعة العاشرة وبينما كنت أتصفّح دروسي أرسل لي حميد رسالة: صباح الكرز. فحدست أنه يكتب الرسالة من سنبل آباد قرب شجرات الكرز، كان بين قزوين وسنبل آباد سبعين كيلو متراً، كانت القرية في منطقة «ألمَوت» شديدة الخضرة، تقع على جانب الجبال الجميلة التي تضيع غالباً بين الضباب، كان بيت والد حميد داخل هذه القرية جنب نهر هادئ.

---

[٩] جبل يقع في شمال مدينة قزوين ويقع على رأسه برج تاريخي كان يشكّل دليلاً للمسافرين، كان سابقاً مكاناً لتنزّه أهالي قزوين في أيام العطل ثمّ صار في وسط ثكنة عسكريّة.

وعندما اتصل اكتشفت أنّ حدسي كان صادقاً، وبعد السلام قال: سيادة الضابط! شجرة الكرز الكبيرة هذه هي لك، وليس لأحد الحقّ أن يقترب منها. كنت أنادي حميداً بألقاب مختلفة، فأمام الآخرين كنت أناديه فقط حميد، ولكن عندما نكون وحدنا كنت أقول «حميدي» كنت أحب أن أجعله يقبل أنه ليس لنفسه فقط بل لي أيضاً، بدأت بالمزاح وقلت: يا ابن قرية سنبل آباد منذ متى صرتُ ضابطاً؟ ضحك وقال: أنت ضابط منذ زمن ألا تعلمين؟ واستمرّ اتصالنا الأول مدّة سبعة وخمسين دقيقة، وسمعت من الهاتف أن أخوه يثير غضبه وقد قال ممازحاً: حميد لقد أصبحت ذليل زوجتك، كان حميد يحترم أخاه الأكبر فلم يقل لحسن شيئاً ولكن قال لي: أنا لست ذليل امرأة، أنا شهيد المرأة، أنا لا أقبل الذلّ، وكان قصده شيئاً كالحوار في فيلم «الملائكة الذين يقتربون من بعضهم» حيث كان: على الرجل أن يكون خادماً لزوجته وأطفاله.

وعندما عاد من سنبل آباد أحضر معه الكثير من الجوز والبندق، وضعنا شرشفاً وسط المطبخ وبدأنا بتكسير الجوز ثم قلت لحميد: عزيزي إن قلت لك شيئاً لا تغضب؟ فقال: لا اطمئني. قلت: هل يمكنك عندما تذهب إلى صالون الحلاقة أن تقصّ ذقنك مثلما أقول، أحبّ أن تغيّر طريقة حلاقة ذقنك وشعرك فقال: أي شكل تحبّين؟ أحضري ماكينة الحلاقة وقصّي شعري كما تحبّين، فقلت: حميد كفّ عن هذا، لقد قلت مجرّد كلام، أنا لا أتقن الحلاقة، وسأخرّب لك شعرك. فقال: دعي أعلّمك كيف تستعملين ماكينة الحلاقة، وإن خرب شعري سأقصه أنا. فقلت: أنا لم أقم بهذا العمل من قبل يا حميد. فقال: لا مشكلة،

تتعلّمين: يجب أن يكون شكل الزوج ملائماً لذوق زوجته.
ولشدّة ما أصرّ عليّ بدأت بالعمل، وقد علّمني كيف أستعمل الماكينة، رتّبت له شعره وذقنه، والحقيقة أنّه لم يحدث أيّ خطأ، وصار كلّ شيء كما أريد تقريباً، ومنذ ذلك الحين صرت أضع مفترشاً من النايلون على الأرض وأقص له شعره كما أحبّ. كنّا نرى بعضنا تقريباً كلّ يوم، واشتدّت الروابط بيننا، وكان إما يأتي هو إلى بيتنا أو كنت أذهب أنا إلى بيت عمّتي، وفي ذلك اليوم وكما جرت العادة كنّا نخرج من البيت عند الغروب. كان مقصدنا هو مقبرة «چهار انبيا»[١] وابن أحد الأئمة الذين دفنوا في وسط مدينة قزوين، ولكثرة ما ذهبنا إلى هناك صار المسؤول عن الأحذية يعرفنا، كان يضع أحذيتنا في مكان واحد ولا يعطينا رقماً، وكان حميد ينتعل دائماً حذاء طبيّاً بسبب جراحة أجراها في رجله.

وبعد أن فرغنا من الزيارة ركبت الدرّاجة وقلت له: «دعنا نمشي بسرعة البرق والريح!» وكنّا عادّة نقدّم لأنفسنا ضيافة على ظهر الدرّاجة، خصوصاً رقائق الذرة، فقدّمت عدّة حبات منها لحميد وبعد أن أكلها قال: فرزانة! إن رآنا أحد نأكل الرقائق على الدراجة وأنا صاحب لحية، وقد تلوثت بالذرة فسيراق ماء وجهي. فقلت: لا تبال واستمتع حميد، ربّما لن تحصل على هذه الرقائق فيما بعد.

وكان المسير هو نفسه من شارع العسكر حتى روضة الشهداء، وفي أطراف المكان عرضت هناك بعض المنتوجات الثقافية، ووفقاً لاقتراح حميد اقتربنا منها، وكان قسم الكتب هو الأكثر جاذبيّة بالنسبة لحميد أما أنا فرحت أتأمل اللوحات الفنية.

تناول حميد كتاباً مطبوع حديثاً وسأل البائع: هل قرأت هذا الكتاب؟

---

١. الأنبياء الأربعة

هل تعرف ما موضوعه؟ قال البائع: يبدو من ظاهره أنه يتحدّث عن إثبات يوم القيامة، اقرأ مقدّمته يتّضح لك موضوعه، أجابه حميد: لا، لم أدفع قيمة الكتاب ليس لي الحقّ في قراءة حتّى المقدّمة، يمكنني أن أقرأه إذا أردت شراءه وإلا فصفحة واحدة فيها إشكال شرعي، ربما يكون الكاتب أو الناشر غير راضيين. شعرت بإحساس جيّد، وكان البائع أكثر منّي تعجّباً من دقّة حميد. ثم قلت له: هل نشتري لوحة لبيتنا، ألقى نظرة على اللوحات وقال: اقتراح جيّد، يجب أن نفكّر منذ الآن حيث لدينا متّسع من الوقت، تفحّصنا جميع اللوحات وفي النهاية أخذنا لوحة تتضمن صورة للسيد الخامنئي في حالة ابتسام.

وعندما كان حميد يدفع ثمن اللوحة كان ينظر إلى قسم خواتم العقيق وسأل البائع: هل لديك خاتم در نجفي؟ أجاب البائع: لقد أوصينا عليه وقد يأتون به، وعندما خرجنا من هناك رفع يديه نحو عيني وقال: هل ترين هذا الخاتم، هذا درّ نجفيّ، ألبسه دائماً، وقد سمعت أنّ من يلبسه لا يتحسّر يوم القيامة، يجب أن أقسم حجره نصفين، وأشتري لك خاتماً ليكون عندك خاتم درّ نجفيّ أيضاً، فقلبي لا يسمح لي أن تشعري بالحسرة يوم القيامة، وكان هناك نصف ساعة لصلاة المغرب، وعندما وصلنا إلى قبور الشهداء كان حميد يتقدّمني بالمشي، والمكان الوحيد الذي لم يكن حميد يحبّ أن نمشي فيه جنباً إلى جنب هو مزار الشهداء، فقد كان يقول: يمكن لزوجة شهيد ولو أصبحت الآن عجوزاً أن ترانا وتتذكّر الأيّام التي كانت فيها مع زوجها فتشعر بالشوق، فمن الأفضل أن ننتبه ونمشي بعيداً عن بعضنا قليلاً.

ذهبنا أولاً إلى القسم الأول في الصف الأول، عند مزار الشهيد «برات على سياهكالي» من أقارب حميد البعيدين، ومن هناك إلى الصفّ السابع مشياً، وفي الصف العاشر كان موعد حميد الدائم هو مزار

الشهيد «حسن حسين پور»هذا الشهيد الصديق والذي كان مع حميد أثناء التدريب، من شهداء عمليات «پژاك» والذي استشهد عام تسعين وكان في عالم الصداقة يحتلّ مكانة لدى حميد. وعندما وصلنا إلى مزاره قال لي: إذا قرأت الفاتحة فاذهبي إلى بقيّة الشهداء فأنا لديّ كلام مع حسن، وبعد أن ابتعدت قليلاً بدأ يشكو له وأهمّ ما كان في كلامه أن قال له: متى ستأخذني إليك؟!

وعندما ارتفع صوت الأذان وجدت نفسي في حسينية «السيد حسين» ابن أحد الأئمة، وكنت سعيدة لتوطد العلاقة بيني وبين حميد يوماً بعد يوم، وعندما جئت في المرة الماضية إلى هذا المكان ولأني لم أستطع أن أتكلم مع حميد بسهولة بكيت كثيراً، ولكن الآن وخلافاً للسابق حيث لم نكن ندري عمّ نتحدّث، مهما تحدّثنا لا ينتهي الكلام وكأنّنا معلّقان ببعضنا ولا يمكننا الانفصال.

كان الطقس في تلك الليلة شديد البرودة، لا أثر لأحد في الشوارع والأزقّة، اتصل بي حميد لكي يتكلّم إلي، ومن صوتي عرف أني لست بحال جيّدة، ولم أشأ أن أقلقه في ذلك الوقت من الليل، ولكنّه أصرّ عليّ كثيراً حتى قلت: لست بحال جيّدة، أشعر بمغص شديد، لا تقلق! سأشرب شراباً دافئاً وأتحسّن، لقد أصبت بألم حادّ وكنت أقنع نفسي بأنّه ألم بطن بسيط، ولكنّه كان يشتدّ أكثر فأكثر. كان حميد يشعر بقلق شديد، ولم تمض ربع ساعة على قطع الاتّصال حتّى ارتفع رنين جرس الباب، وكان حميد هو الطارق فقال لي: جهّزي نفسك لنذهب إلى المستشفى. قلت له: عزيزي حميد ليس هناك شيء مهمّ، لا تقلق. ومهما قلت لم يقتنع، وكان كلّما يشعر بالقلق من أجلي في مواقف

مماثلة كان يتشبّث برأيه، إذ كان حريصاً على سلامتي، وحسب ما كنت قد نسجته في خيالي، لم أكن أظنّ أنّ حميداً رجل إلى هذا الحدّ الذي يجعله حريصاً على مثل هذه الأشياء.

ومهما حاولت بقي على إصراره، جهّزت نفسي وذهبنا إلى طوارئ مستشفى «ولايت»، كان التشخيص الأوّلي أنّ التهاب الزائدة الدوديّة قد عاودني، حقنوا يدي بالمصل، فنزفت يدي الكثير من الدماء، وتلوّثت جميع ملابسي وحذائي بالدم، وصار حميد يمسح يدي بشاش معقّم وينظّف حذائي، ويحوم حولي كالفراشة. ومن أجل إجراء صورة شعاعيّة كان علي الذهاب إلى مستشفى شهيد «رجائي»، ولم يرافقنا أحد من الممرّضات، صعدنا أنا وحميد إلى سيارة الإسعاف، كنا في آخرها، كنت أشعر بأني أفضل ولم أستقرّ في مكان، كنت أقوم وأقف، وكانت المرة الأولى التي أركب فيها سيارة إسعاف، ومن الحماس نسيت ألمي، وكنت أنظر من الزجاج إلى الخارج، وتحرّكت كثيراً حتى ارتفع صوت حميد: اجلسي يا فرزانة، ستشعرين بدوار، لقد أرقت ماء وجهنا، فنحن ننقل مريضاً مثلاً. كانت الساعة تناهز الحادية عشرة ليلاً ولشدّ ما تحرّكت نسيت مرضي. ولما شاهد الطبيب الصورة الشعاعيّة قال: ليس هناك شيئاً مهمًّا ولكن من الأفضل أن تبقى الآنسة تحت المراقبة هذه الليلة، وعدنا مجدّداً إلى مستشفى «ولايت»، واتصلنا بالعائلة وأخبرناهم، وبقي حميد معي كمرافق، كان يوم الخميس وكالعادة كان حميد على موعد مع الهيئة ولكنّه لم يذهب من أجلي، ولم يغادر المكان قرب سريري، كان ينظر إلى وجهي ويقول: حقًّا ما يقولون أنك تشبهين جدّتي، ابتسمت وكنت متعبة جدًّا، ولشدّة تأثير الدواء لم أستطع أن أحدّثه. ولم أدر كيف استسلمت للنوم، وبعد أن مرّت ساعة على منتصف الليل، استيقظت من النوم على بكاء حميد، كان يمسك بيدي بينما

دموعه تتساقط. قلت: لماذا تبكي؟ لا تقلق! ليس هناك شيء مهم. فقال: أخاف أن يحدث لك سوء، وطوال وقت نومك كنت أفكر بأنه إن كان لا بدّ أن نفترق يوماً، فأنا يجب أن أرحل أولاً؛ لأني لا أحتمل.

وبقي تلك الليلة حتى الصباح يصلّي قرب سريري، ولم يغمض له جفن، أظنّ أنّه أنهى قراءة مفاتيح الجنان، وعندما رأته ممرّضة القسم يصلّي قرب السرير قالت: هناك مصلّى إن أردت أن تصلّي، فيمكنك أن تذهب إليه، لم يقبل حميد وقال: أريد أن أبقى إلى جانبها.

كان سلوك حميد غريباً حتى للممرّضات، لقد اعتقدوا أننا متزوجين منذ سنوات، وعندما أخبرتهم أننا مخطوبون منذ شهرين فقط أصابتهم الدهشة، وقالت إحداهنّ لي: هو إذن حماس الحبّ، لو كان زوجي لكان نام منذ الساعة الواحدة. تلك الليلة في الثامن من شهر «آذر»[11] عام ألف وثلاثمئة وواحد وتسعين[12] لم يذق فيها حميد طعم النوم، تماماً كما جرى بعد ثلاث سنوات وكان أيضاً في الثامن من شهر «آذر»، ولكنّي لم أبق إلى جانب حميد.

ولقد استيقظت من النوم عدّة مرّات وفي إحدى المرّات عرفت أن رفاق حميد قد اتصلوا به، لقد كان ملتزماً دائماً بالذهاب إلى الهيئة، وتلك الليلة لم يذهب فشعروا بالقلق من أجله، وكان هاتف حميد خارج التغطية، ومن شدّة قلقهم سألوا كلّ المستشفيات ومراكز الشرطة، فلم يحدث أن ترك الذهاب إلى هناك ولو قطع رأسه، ومن شدّة خوف رفاقه لم يتصلوا بأهله، وقلت في نفسي: لا بدّ أن حميداً سيقع تحت عتابهم لعدم إخبارهم.

ومع أني كنت جائعة إلا أنّي لم أكن أشعر برغبة في تناول الفطور، أخذ

---

[11] الشهر التاسع من الشهور الإيرانية.

[12] ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١٢ م.

حميد إجازة من عمله. تحسنت حالتي بشكل كبير، وكنت أحب أن أخرج من جو المستشفى المتعب، أمسكت بهاتف حميد وكان فيه لعبة البطريق التي تعجبني ورحت أسلي نفسي بها، ثم رحت أشاهد الصور وكنا قد شاهدناها معاً من قبل.

وكان لكل صورة التقطها ذكرى، وكان أغلبها في مهماته العسكرية التي ذهب إليها، وفي بعضها كان له نظرات خاصة، وكان يقول لي: هذه الصورة توحي بالشهادة، وكان يصرّ عليّ أن أعطيه رأيي في الصورة التي تناسب أكثر لإعلان شهادته.

لم آخذ كلامه على محمل الجدّ، وبمزاح وضحك، وقبل أن أصل إلى آخر صورة سألته بفضول: ألا تريد أن تخبرني بأي اسم حفظت اسمي على الهاتف؟ قال: حفظته باسم جيّد، أنت فتّشي واكتشفي أي اسم، وبذكاء منّي ذهبت إلى صفحة جهات الاتصال ووجدت رقمي قد حفظ باسم «كربلائي أنا».

ابتسمتُ وقلت: جميل، يعطي إحساساً حسناً، ولكن لماذا اخترت هذا الاسم؟ أجابني: لأني أحبّ كربلاء وأنت أيضاً، لذا اخترت لك هذا الاسم. وبعد يوم من المرض كانت هي المرّة الأولى التي يرتفع فيها صوتي بالضحك وقلت: من أجل هذا كلّما سألتك سؤالاً قلت كربلاء، وإن قلت حميد أين نذهب؟ قلت كربلاء، أقول الزيارة تجيبني كربلاء، أقول نريد الذهاب إلى الحديقة تقول كربلاء، ومنذ ذلك اليوم وعندما نكون وحدنا كان يناديني كربلاء، وأحياناً تكون المحبّة بهذه البساطة رائعة. وفي الساعة التاسعة جاءت أمي لعيادتي، وكنت لا أزال تحت المراقبة، ومنذ الساعة العاشرة صباحاً كان أصدقائي وزملائي في الصف لديهم تمرين في المستشفى، وكانوا يظهرون واحداً تلو الآخر، لقد عثروا على مريض يتعلّمون فيه، أحدهم يقيس ضغط الدم، وآخر يضع ميزان

الحرارة وقد راحوا يعاينونني، تعبت وقلت لهم بمسكنة: دعوني، صدقوني إنه ألم بطن طفيف وانتهى، اسمحوا لي أن أعود إلى المنزل، ولكن لم يعرني أحد سمعه، وأخيراً وفي الساعة الرابعة بعد الظهر بعد فحوصات كثيرة رضي الأصدقاء ومعارفي في المستشفى أن أغادر.

كنا نحاول في أيام الخطوبة أن نذهب في كلّ مرة إلى مكان ما، مراقد أبناء الأئمة، الحدائق، المقاهي، ففي فترة الخطوبة جلنا كلّ قزوين ولكنّ مزار الشهداء كان أمراً ثابتاً، حيث كنّا نأتيه كلّ يومين أو ثلاثة. وقبل أسبوع من حلول ليلة «يلدا»[٣]، كنا قد ذهبنا إلى مزار الشهداء، فأخرج حميد من جيبه منديلاً وراح ينظف إطارات صور الشهداء وقال: قد يكون أهل هؤلاء الشهداء قد رحلوا عن الدنيا، أو أصبحوا كباراً في السن ولا يمكنهم المجيء، فلنمسح هذه الصور على الأقل، وكان يحبّ عندما نأخذ السيّارة أن يجلب سطلاً من الدهان ويضعه في صندوق السيّارة، وعندما نأتي إلى مزار الشهداء نعيد اللون إلى الكتابات التي أصبحت قديمة.

ومن هناك أكملنا طريقنا نحو السوق، وأحبّ حميد أن يشتري لي ليلة «يلدا» هديّة تعجبني، ومن مدخل السوق اشترينا «شادور»، وبينما كنّا نشتري ساعة اتّصلت عمّتي ودعتنا إلى العشاء عندها.

وبعد أن أنهينا الشراء ذهبنا إلى منزل عمّتي، وكانت هناك فاطمة أخت حميد، ورغم كلّ المحبة والعلاقة الوطيدة التي كانت بيني وبين حميد كان سلوكنا يبدو عاديًّا أمام البقيّة، وفي كلّ مكان كنّا نذهب

---

[٣] أطول ليلة في السنة وجرت العادة أن يحتفل بها الإيرانيون.

إليه لم نكن نجلس قرب بعضنا، كنّا نريد أن نحافظ على احترام الكبار في حضورهم، وكان هذا يبدو غريباً، شعرت ببساطة أنه آثار استغراب فاطمة التي سألت عن سبب جلوسنا بعيدين عن بعضنا. لقد كان ظني في محله وعند العودة قال حميد: هل تعرفين ما قالت لي أختي فاطمة؟ سألتني هل أنت على خلاف مع فرزانة؟! لماذا لا تجلسان بالقرب من بعضكما؟! فقلت: لقد فهمت من نظراتها أنّها تتساءل وبماذا أجبتها؟ قال حميد: قلت لأختي: إنّ بعض الأشياء لها حرمة أنا وفرزانة مرتاحين، ولكن هذا لا يعني أن نجلس دائماً جنب بعضنا أنا أحبّ في منزل أبي وأمي أن أجلس قرب أمّي. وإن كنّا ننادي بعضنا عندما نكون وحدنا ننادي بعضنا بكلمات محبّبة، أو حبّي ولكن في وجود الآخرين ننادي بعضنا باسمنا فقط. كان حميد يقول لي: آنسة فرزانة. وأنا أقول له: سيد حميد، لم نكن نرغب في أن يظنّ الآخرون بأنّنا مختلفون عنهم.

وبعد الوداع ذهبنا إلى البيت مشياً، وعادة كنّا نمشي إلى أيّ مكان بقدر ما نستطيع، وفي تلك الساعة من الليل كانت الشوارع خالية، صعدت إلى أعلى القناة، وقد أمسك حميد بيدي من الأسفل حتى لا أقع، وطوال الطريق كنا نمشي ونتحدّث ولكثرة ما كنّا نتحدّث بحماس لم نشعر بطول المسافة، وقطعنا الطريق كلّها مشياً.

وسهر عندنا في البيت لمدّة نصف ساعة، وأثناء توديعه في فناء الدار قلت له: تعال إلينا ليلة «يلدا» لأن أبي ضابط مناوب ولن يكون في المنزل، وأثناء فترة خطوبتنا كان يطول توديعنا لبعض ما يقارب الساعة، وأحياناً كان الوداع يطول فيه البحث والكلام أكثر من أصل مجيء حميد. حتى أصدقائي لم يفهموا الأمر وكلما اتصلوا بي كانت أمي تقول لهم: لا تزال في فناء الدار تتحدّث إلى خطيبها، اتّصلوا بعد نصف ساعة، وبعد نصف

ساعة حيث يتّصلون نكون لا زلنا هناك نتحدّث، وكأنّه لا بيت عندنا، فعند الرحيل نتذكّر أن نتحدث. ومنذ اللحظة التي نفترق فيها، نذهب نحو الهاتف وتبدأ رسائلنا واتصالاتنا، يبدأ حميد بقول الشعر، وأنا أرسل إليه أشعاراً من ديوان حافظ، وبعد عدّة رسائل لحميد قلت له: لا أدري لماذا اشتهيت الآن فجأة رقائق التشيبس واللبن بنكهة الكرّاث، إن أردت اشتري لي في الغد عندما تأتي. لم يجب على رسالتي وحدست أنّه نام من التعب، فأرسلت إليه: إلهي، امنح حبّي نوماً هادئاً، تصبح على خير يا حميد. لم أشعر بالنعاس، رحت أدرس، وألقيت نظرة على الدفاتر الدراسيّة. ولم يمض وقت طويل حتى رنّ الهاتف، تعجّبت وفتحت الهاتف وقلت: ظننت أنك نمت، ماذا هناك؟ قال: منذ خطوبتنا اعتدت أن أنام متأخراً تعالي إلى الباب لدقيقة أنا في الأسفل. فقلت: لقد ودّعنا بعضنا منذ مدّة ماذا تفعل هنا يا حميد؟! وضعت «الشادور» على رأسي ونزلت إلى الأسفل، كان قد اشترى الكثير من التشيبس والسكاكر، وجاء بدرّاجته في برد الشتاء، قلت مسرورة: عزيزي حميد في هذا الطقس البارد لست راضية بهذا التعب، لو كنت أعلم أنك ستشتريها بسرعة كنت أوصيتك على أشياء أخرى. ضحك، وأعطاني ما اشتراه بيدي وركب درّاجته. فقلت له: بما أنّك أتيت فتعال إلى الأعلى لتدفأ قليلاً ثم تذهب. قال: لا يا عزيزتي الوقت متأخّر، جئت لأوصل لك هذا فقط، ابتسمت وقلت: لقد أخجلتني يا حميد، هل آكل التشيبس الآن أو أشعر بالخجل.

وفي آخر يوم من أيام الخريف كنت مشغولة مع أمي بإعداد العشاء، فأرسل إليّ حميد رسالة: إن لم يكن عندك درس وامتحان سآتي إلى بيتكم باكراً، وكان يفعل هذا دائماً، كلّما أراد أن يأتي إلى بيتنا كان يرسل لي رسالة. فأجبته ممازحة: اسمح لي أن أرى إن كان لديّ وقت، فأجابني:

من فضلك، قولي للسكرتيرة أن تهيّئ لنا موعداً فأنا مشتاق لك. قلت: تفضّل سيّد حميد نحن مشتاقون لك، قدومك يشرّفنا.

ويبدو أنّه أرسل رسالته وهو في الزقاق، فلم تمرّ دقيقة على ما قلته حتى طرق الباب، وكانت أوّل ليلة يلدا لحياتنا المشتركة. وبعد أن تناولنا طعام العشاء، فرشنا بساط ليلة يلدا ووضعنا بطيخة في وسطه، راحت أختي فاطمة تفتح لنا فالاً، أخذت بيدي وقالت: أريد أن أتفأل لك عند حميد. لم نكن أنا وحميد نؤمن بهذه الأشياء، وجلسنا فقط كنوع من التسلية لنرى ما النتيجة، وكل ما ما كانت أختي تقوله كان يحدث العكس تماماً. كنت أنظر نظرة غضب مفتعل إلى حميد، وعندما فسرت لي أختي جميع خطوط يدي لوّحت بيدي وقلت ضاحكة لحميد: هل رأيت؟! أنت لا تحبّني وقد أخبر الفال بذلك، فسلمت يداي لاختيار هذا الزوج! وبدأنا كلانا نضحك. وقال حميد لأختي: بوسعك يا ابنة خالي أن تخربي حياتنا وتعدّي لنا مشاجرة هذه الليلة.

وبقينا حتّى منتصف الليل نتبادل أنا وحميد حلو الكلام، وكان هذا من عادتنا، كنّا نجلس عادة إلى منتصف الليل ونتحدّث ولكن لم يكن يبقى عندنا في الليل، وعند الوداع وعلى الأدراج وفي الممرّ كنا نتحدّث بحماس، وعندما كانت ترى أمي وداعنا الطويل كانت تحضر لنا الشاي والبطيخ، كنا نشرب الشاي هناك ونتحدّث، ولم نكن نأبه ببرودة الطقس أو مرور الوقت. وعند الوداع وبينما كان حميد يفتح باب الممرّ رأينا أن الثلج يتساقط بشدّة، كان فناء الدار والحديقة قد ارتديا ثوباً أبيض، ومشى حميد فوق الثلوج ولوّح بيده مودعاً ورحل. كان موطئ أقدام حميد وخطواته فوق الثلج تشبه خطوات من يسير بحماس نحو هدفه، وبقيت أمام عيني لبعض الوقت، ومؤسف أنه طوى ذلك المسير وحده تلك الليلة، وقليلاً ما تكرّر ذلك الأثر لأقدامه على الثلج.

وفي اليوم التالي لليلة «يلدا» أخذت مقاس «الشادور» الأسود الذي اشتراه لي حميد وخِطته، وقد كنت أحبّ أن أجعل الـ «شادور» يغطي مقداراً من وجهي طلباً للستر والحجاب، فكان هذا الـ «شادور» ذريعة لأشرع بهذا الشكل من الحجاب، وعندما ذهبت إلى الجامعة كنت مثار العجب لصديقاتي، ولمّا سألنني عن السبب قلت: إنّ حجابي القديم قد تمزّق. ولكنّ شيئاً فشيئاً صار حجابي بهذا الشكل عاديّاً لدى الجميع، وعندما رآه حميد لأول مرّة أعجبه وقال: يليق بك أكثر.

الفصل الرابع

دلني ما دواء من لا دواء له

لقد كانت الأيامُ الأخيرة من السنة. حيث يمتلئ كلّ مكان بالأوعية المليئة بالأسماك الحمراء وسُفَرِ عيد النوروز المؤلّفة من الأشياء السبعة المبدوءة بحرف السين[1]. تثير في نفسي ذكريات السفر إلى الجنوب أكثر من مشاعر الاحتفال بقدوم السنة الجديدة. ومنذ الصفّ الثاني للمرحلة الثانويّة حيث كانت أول رحلة لي إلى الجنوب أحببت أن يدعوني الشهداء كلّ عام لأكون بضيافتهم، ومن السفر الأول إليهم جعلوني أسيرة لهم.

---

[1] من العادات والتقاليد التي تقام في استقبال السنة الإيرانيّة شراء الأسماك الحمراء الصغيرة والعشب الأخضر ومستلزمات ما يسمّى بسفرة السينات السبع المؤلّفة من سبعة أشياء تبدأ بحرف السين في اللغة الفارسيّة الخلّ والثوم والتفّاح والعملة النقديّة المعدنيّة و...

ورغم أنّنا في تلك الرحلة شاغبنا كثيراً أنا وصديقاتي، وقد كنا نغيّر برنامج الرحلة ونمضي أكثر الوقت في مزاحنا ومشاغبتنا، ولكنّ الجاذبيّة التي يمتلكها تراب الشهيد وهذا السفر كانت باعثاً على أن أحبّ السفر إلى تلك الأماكن في آخر شهر من العام أكثر من مراسم قدوم العام الجديد. وبسبب الاستعداد لمباراة امتحان الدخول إلى الجامعة في العامين الأخيرين لم يكن بوسعي السفر إلى الشمال، وفي هذه السنة سأذهب مهما كلّف الأمر، وفي اللحظة الأولى التي تأكد فيها تاريخ الانطلاق إلى رحلة الجنوب أرسلت رسالة إلى حميد فأجابني: اسمحي لي أن أتقصّى أعمالي، ومن الصعب الحصول على إجازة آخر العام، وبعد الظهر سنأتي إلى منزلكم ونعود جدتي، وأخبرك إن كان ذهابي قد تمّ أم لا. وبعد أن أدّيت صلاة المغرب انتبهت إلى جدّتي وقد رفعت يديها نحو السماء لتدعو للجميع، اقتربت منها وقلت: جدّتي مرت سنتان ولم أستطع الذهاب فيها إلى رحلة الجنوب، ادعِ لي أن تكون من نصيبي هذا العام. عبست جدتي وقالت:، أنت تعرفين كم يحبّك حميد، إلى أين تريدين أن تذهبي؟ فقلت: وأنا من الصعب عليّ أن أذهب دون حميد، لذا طلبت منه أن يأخذ إجازة لنذهب معاً.

وما إن رفعنا سفرة العشاء حتّى دقّ حميد الباب، لقد جاء برفقة عمّتي، وما إن دخل من الباب حتى بدا في وجهه ما يدل على أنّه لم يستطع الحصول على إجازة، ولم يكن راضياً بذهابي وحدي، لقد تعلّق بي ولا يحتمل هذا السفر لعدّة أيّام.

دخلت مع أمّي وعمّتي إلى الغرفة لنجلس قرب جدّتي، كنت أرتّب أغراض الغرفة وقد أخرجت الملابس من الحقائب، فوقع نظري على حجاب أخضر اللون، قلت لعمّتي: عمّتي العزيزة! ضعي هذا الحجاب على رأسك، أعتقد أنه يليق بك كثيراً. لبست عمّتي الحجاب، وكان توقعي في محلّه،

فقلت: رائع، لقد نُسج من أجلك. لم تقبل عمّتي وقالت: عندما تذهبين في زيارة خذيه لأحد كهدية، لديّ الكثير منه، ناديت حميداً كي يرى عمّتي بهذا الحجاب، وقد ألحّت عليها أمي كثيراً حتى قبلت.

وبعد عدّة دقائق أشرت لحميد بنظرة من عيني أن نذهب إلى المطبخ، كنت أحبّ أن أعرف ما إن كان حصل على الإجازة أم لا، وعندما جلسنا شكرني على الحجاب وقال: لو لم تقبل أمّي بهذه الهدية، لكنت بحثت كلّ قزوين حتّى أجد لها حجاباً بلونه فأشتريه لها، لأنه بدا جميلاً جداً على وجهها. كان احترامه لأمّه محبّباً بالنسبة إليّ، ولم أكن أشعر بالانزعاج أبداً من كل هذا الاهتمام الذي يكنّه لأمّه، بل كنت على العكس أشجّعه عليه ويشعرني بالسعادة، كنت أعتقد أنّ الرجل الذي يحترم أمه سيحترم زوجته بدرجات أكبر.

سألته: ماذا عن الإجازة يا حميد؟ هل يمكنك أن تذهب إلى الجنوب؟ فقال: كنت أحبّ أن آتي، ولكن لا نصيب لي، عندي مهمّة في العمل ولا يمكن أن آخذ إجازة. فقلت: لقد كنت طيلة هاتين السنتين أسيرة للامتحان والدرس، وأحببت أن نذهب هذا العام معاً ولكن لم يحدث. فقال: لا مشكلة، إن أحببتِ فاذهبي، ولكن اعلمي بأني سأشتاق لك. فقلت: إن كان زوجي غير راضٍ فلا أذهب، فقال: لا يا حبيبتي ما هذا الكلام هذا سفر لزيارة الشهداء، اذهبي وادع لنا نحن الاثنين.

ومع أنّ الأمر كان شاقّاً بالنسبة له، ولكنه أوصلني إلى الباص ومضى في طريقه، ولم أكن قد غادرت قزوين حتى بدأت رسائل حميد، كان يشتكي من الاشتياق، فكتب في رسالته: صحيح ما يقولون أن المرأة بلاء، إلهي لا تحرمنا من هذا البلاء.

وأثناء السفر إلى الجنوب فهمت حديثاً كم نحن بحاجة إلى البقاء معاً. كانت الرحلة خمسة أيام، ولكن كأنّها خمسون يوماً، لم أكن أعتقد أننا سنصبح

ولكننا عُذّبنا بشدة في تبادل الرسائل، ولكننا عُذّبنا بشدّ

هكذا، ومع أننا كنا نمضي الليل في تبادل الرسائل، ولكننا عُذّبنا بشدّة وفي الليلة الأخيرة، وعندما اتّصلت به كان صوته مختنقاً فسألته: هل أنت على ما يرام يا حميد؟ فقال: أحبّ أن تعودي بسرعة أكثر، صور عقارب الساعة هو عذاب بالنسبة لي، ولا رغبة عندي في تناول الطعام فقلت: وأنا مثلك أشعر بالشوق، ليتني سمعت كلامك وتركت الرحلة إلى فرصة أخرى حتى نأتي معاً. فقال: وفي اليوم الأخير هل تذكرتني في المنطقة التي ذهبت إليها؟ فقلت: أجل، في المناطق المميزة أتذكّرك وهنا في المخيّم صورة كبيرة للشهيد "همّت" كلّما مررت قربها أشعر أنك أنت الذي تقف، ضحك وقال: أين الشهيد "همّت" وأين أنا؟ أنا أحب أن أعمل تحت يده في جهاز الاتصالات اللاسلكي.

وكانت حالتي يرثى لها، ولكني لم أشأ أن أخبر حميداً على الهاتف عن حالتي الغريبة؛ لأنّي أعلم أنّه سيشعر بالاشتياق أكثر فأكثر، ومع أنّي كنت ضيفة للشهداء، ولكنّ الأيام كانت صعبة عليّ، أحببت أن أبقى عند الشهداء وكنت أريد أن أذهب إلى حميد في الوقت نفسه؛ ربما لأنّي كنت أشعر أنّ هؤلاء الاثنين من نسيج واحد.

وفي طريق العودة اتّصل بي عدّة مرّات، كان يريد أن يعرف متى أصل إلى قزوين، وعندما ترجّلت من الباص كان يقف في ذلك الطرف من الشارع قرب درّاجته الناريّة، استقبلني بحرارة، وعندما ركبنا الدرّاجة كان يقود بيد ويمسك يدي الأخرى بقوّة، لم يقل شيئاً، أحببت أن أقول شيئاً يمزّق هذا الحاجز، ولكنّ إحكامه بقوّة على يدي كان عالماً من الكلام.

❋ ❋ ❋

وعندما عُدت من الجنوب كان قد بقي لعيد النوروز أيام قليلة وتعويضاً عن أيام الرحلة القليلة كنت أركض حتى أنهي أعمال آخر

العام، من شراء، إلى مساعدة في تنظيف المنزل، وكنت أنظّف الزجاج المقابل لفناء الدار، وإذ بحميد يرسل لي رسالة، وعندما سأل عن برنامج العيد فقلت: لا أدري، هل نذهب إلى مزار الشهداء؟ قال: أحبّ أن نذهب إلى قم، وألحّ في أن نكون ساعة قدوم العام الجديد جنب السيّدة المعصومة عليها السلام قلت: حميدا آخر العام الشوارع مزدحمة، ونحن لا نملك سيّارة، هذا صعب علينا، فقال: استأذني من أبيك وأمّك، سيترتّب الأمر، لقد أخذتك من السيّدة المعصومة عليها السلام وأريد أن نذهب ونشكرها.

استأذنت من والدي لنذهب يوماً ونعود، وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر الأخير من العام، انطلقنا قبل أن تشرق الشمس، كنا نريد أن نصل قبل أن يبدأ الازدحام، وكانت الشوارع مزدحمة جدًّا، وكأنّ الجميع قد نوى أن يكون في لحظة العام الجديد إلى جانب السيّدة المعصومة عليها السلام، وبألف مشقّة وصلنا إلى قم، وكان قد بقي ساعة للعام الجديد، وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر كنّا في الحرم.

وعندما أردنا أن نفترق كي نزور، لم ننتبه أن نتّفق على مكان نلتقي فيه، لنكون اثناء لحظة بداية العام الجديد معاً، كنت أعتقد أنّ الهاتف موجود ويمكننا بعد الزيارة أن نتّصل، وكانت رحلتنا عبارة عن ضياعنا. كان الهاتف خارج التغطية، وتنقلت عدّة مرات بين أفنية الحرم أبحث عنه وسط الضجيج، وكنت أعلم أنه يبحث عنّي زاوية زاوية، وكأنّه لم يكتب لنا أن نكون معاً لحظة حلول السنة الأولى لحياتنا المشتركة، قبل أن نفترق كنت أرتدي نظّارة شمسيّة وكان حميد طوال الوقت يبحث عن فتاة ترتدي "شادور" وتضع على عينيها نظّارات شمسيّة، غير ملتفت إلى أنّي ربّما نزعتها. وكنت أنا أبحث بعيني بين تلك الجموع من الناس، وأحرّك رأسي في كلّ اتّجاه حتّى نفدت طاقتي،

وكانت صعوبة الطريق التي قضيناها للوصول إلى قم شيئاً والساعات التي استغرقت البحث شيئاً آخر.

وجلست إلى جانب الحوض في الصحن، وبان أنّ هناك إرسال على الهاتف، واستطعنا أن نجد بعضنا بعد ساعة ونصف من حلول السنة الجديدة، وما إن رأيت حميداً حتّى قلت: لشدّة ما كان همّي هو العثور عليك، لم انتبه لمراسم قدوم العام الجديد. فقال: وأنا بحثت عنك كثيراً، وقد دعوت كثيراً لحظات قدوم العام الجديد من أجل حياتنا. أمسكت بيده بقوّة، لم أرد أن تكون بيننا لحظة فراق، وكان المكان مزدحماً لدرجة لم تسمح لنا بالاقتراب، ومن الرواق المقابل للضريح قال حميد: سيّدتي، لقد جئت بزوجتي إليك، شكراً لك لأنك أوصلتني إلى حبي.

كان الوقت يقارب الغروب، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك مطعم، ولم يمكن لنا أن نجد أيّ طعام، كنّا متعبَين لا نقوى على البحث عن طعام، فاشترينا بعض البسكويت واستقلّينا سيّارة باتجاه ميدان "هفتاد ودو تن"[٢]، وكنا قد اتفقنا أن نكون ليلاً في المنزل، واعتذر لعدّة مرات لأننا لم نتمكّن من أن نأكل شيئاً بسبب الازدحام وضياعنا، ولم يكن هناك سيّارة تتوجّه إلى قزوين، فركبنا أحد باصات "زنجان"[٣] على أن نترجل وسط الطريق.

أصبت بتعب شديد، وكان يعدّ البسكويت بهذا الجوع ألذّ طعام، فقال حميد ضاحكاً: أنت غير مسرفة أبداً، فأنا منذ الصباح لم أقدّم لك فطوراً ولا غداء، والعشاء نكون في قزوين، إن كنت بهذا النحو فسآخذك في رحلة كلّ أسبوع. وكنّا نذهب كثيراً في رحلات مماثلة ليوم واحد، أحياناً تكون البساطة والرحلات البسيطة رائعة.

---

٢ مكان مخصص لوقوف الباصات وسط ...

وعندما عدنا من قم كانت زيارات العيد قد بدأت، وكان حميد قد اشترى لي بنطالاً وقميصاً، وكالعادة اختار لي أجمل الثياب، وكثيراً ما كان يبادر بمثل هذه الأفعال. وكان عادة يشتري لي ملابس أو ورداً طبيعيًا، وأنا بدوري اشتريت له عطراً، وكان يستعمل كلّ أنواع العطور كالياسمين والورد المحمّديّ وحتى العطور الفرنسيّة. كان حميد أنيقاً جداً ذاك العيد، فقد كان يرتدي بنطالاً ومعطفاً ونظاراتٍ شمسيّة، ولبس أيضاً الساعة التي اشتريتها له هديّة يوم العقد.

ويوم الخميس وبعد يومين من العيد ذهب إلى الهيئة بالثياب نفسها، واتّصل بي في منتصف الليل، وحكى لي عن تصرّفات رفاقه هناك، وغالباً ما كان رفاقه يرونه في الملابس العسكريّة أو ملابس الخدمة وما إن رأوه بالمعطف والبنطال اللذين كويا بشكل لافت قال: لقد أخذ أعضاء الهيئة يسخرون منّي، فيأخذون المعطف ويلبسونه، ويقومون بمشاكستي. وقد سررت لسرور حميد، وعند وداعه قلت له: هل نذهب غداً إلى "بوئين زهرا"[4] إلى منزل خالتي "فرشته" قال حميد: حسناً نذهب، نحن زرنا كلّ أقاربنا، فلنذهب إلى منزل خالتك الصغيرة لا بدّ أنّها ستسرّ.

وفي الصباح قرع جرس الباب، وبسرعة ودّعت الجميع ولبست حذائي، واتّجهت نحو الباب قال حميد: هيّا اركبي لنذهب. فقلت: حميد! دع المزاح! تريد أن نذهب إلى بوئين زهرا مسافة أربعين كيلو متراً! فدع الدراجة في البيت لنذهب بالسيّارة! ومهما قلت له لم يقبل. ثم قال لي: الذهاب بالدراجة أروع. وما إن ركبت الدرّاجة حتّى صرت كناطق الخارطة الإلكترونيّة: انتبه حميد، اذهب إلى اليمين، الآن إلى اليسار،

نحن نقترب من الميدان، انتبه فكاميرا المراقبة قريبة خفّف السرعة انظر هناك أحد، لا تدهس هذه القطة، وكنت أقول هذا بسبب القلق الذي شعرت به. فقال حميد: لماذا تفعلين هذا؟ السائق ينتبه لكل شيء، وأنا شوماخر. فقلت: أنا لم أركب درّاجة إلى الآن في طريق مزدحم كهذا وخارج المدينة؛ ليس الأمر بيدي، أشعر بالخوف. وعندما كانت تمرّ قربنا الشاحنات كنت أتشبث بكلّ قوتي بحميد وأدعو في سرّي أن نصل سالمين فقط.

وفي هذه الحال بدأت مشاغبة حميد، وكان يمرّ متعمداً فوق المطبّات أو الحفر ثم يقول: انظروا كم هذا ممتع! استعدّي للحفرة القادمة! ثم كان يذهب وينزل الدولاب داخل الحفرة، في ذلك الحين كنت أخاف من نفس الركوب على الدراجة كيف إذا وصل الأمر إلى أننا سنقع في الحفر أو على المطبّات، وقد أمسكت بيدي على وسطه كي لا أقع ووصل بي الأمر إلى أن قلت: حميد قف جانباً لأنزل، فأن أذهب مشياً أفضل بالنسبة لي.

ولكي أبدو أنّي غاضبة أدرت وجهي إلى الخلف فقال حميد: دعينا نتصالح يا عزيزتي، لا يجب أن تطول مشاجرة الزوجين أكثر من عشر ثوان، فالله لا يحبّ هذا. وعرف حميد أنّي أتظاهر بالغضب على سبيل المزاح فزاد من سرعته، فخفت كثيراً وقلت: حسناً يا عزيزي، أنا... لقد أخطأت وأريد أن أتصالح معك.

ولم نتجاوز نصف الطريق ومن سوء الحظ تعطّلت الدراجة، وقد لطف الله بنا لأننا كدنا أن نصبح تحت إحدى السيارات ووقفنا وسط الطريق نبحث عن مساعدة، وقفت قرب الدرّاجة المعطّلة وابتعد حميد قليلاً رافعاً بيده حتّى يأتي أحد لمساعدتنا، وساعدنا باص صغير ووضع حميد بمساعدة السائق الدرّاجة في مؤخرة الباص، ووصلنا إلى محلّ

لنفخ الإطارات وأكملنا طريقنا.

وأمّا خالتي "فرشتة" فقد أحسنت ضيافتنا، وأجبرتنا على البقاء عندها لتناول الغداء، وعندما ركبنا الدراجة لنعود كان الوقت قريباً من الغروب، وقد تجمّدنا من البرد، تجمّدت يداي ورجلاي، وعندما نزلنا لم أستطع تحريكهما، وكانت عيناي مثل بركتين من الدم، من يراني يظنّ أنّي بكيت طويلاً، لم أكن قد ذهبت مسافة كهذه على الدراجة، كنت أحبّ صعوبة هذه الأحداث، وكانت هذه الارتفاعات جذّابة بالنسبة لي، وعندما انتهت عطلة العيد، وفي اليوم الثالث عشر منها وهو الأخير ذهبت مع إخوة حميد وأخواته إلى مرقد "السيد فلار"[٥] وكان وقتاً ممتعاً، أشعلنا ناراً قرب النهر، والتقطنا الكثير من الصور، وكان حميد يلعب مع إخوته كرة السلّة، ولم يكن يشعر بالتعب أبداً، كان إخوته يلعبون لمدّة عشر دقائق ويجلسون طلباً للراحة، ولكنّه كان يقف على قدميه طوال الوقت، وكان كلّ أملي أن لا ترى هذه الحياة سوءاً ولا افتراقاً.

ولم تمض عدّة أيام على انتهاء أجواء العيد حتى قال حميد: هذا العام لم يقسم لنا الذهاب إلى الجنوب،أحبّ كثيراً أن نرتّب الأمور في هذين اليومين لنذهب كخدّام للشهداء، فقلت: وإن أمكن أذهب أنا أيضاً لأن الدروس لم تبدأ بعد. وفي تلك اللحظة أخذ الهاتف واتصل بالحاج "محمد صبّاغيان" المعاون في مؤسسة "راهيان نور"، وكان الحاج يعرف حميداً من قبل، فسلّم كالعادة بحرارة على حميد، وعندما قال له حميد أنّه عقد قرانه ويحبّ أن آتي معه إلى الجنوب للخدمة سرّ الحاج كثيراً.

---

٥ من سلالة أحد الأئمة

وفي اليوم السابع عشر من شهر "فروردين"[1] وحسب اتفاقنا مع العام "صباغيان" انطلقنا نحو الجنوب، ولأنّ هذا الأخير كان يذهب في سيارة إسعاف مرافقاً الحملات إلى المناطق كان يحتاج إلى مسعف، وافقت أن أكون خادمة مسعفة. أما حميد فكان أيضاً خادماً في منطقة دهلاوية مكان استشهاد الدكتور "شمران".

وكنت كلّ يوم ومنذ الصباح أركب في سيارة الإسعاف وأرافق الحملات للتجوّل في المناطق، لم يصادف أن التقيت بحميد في هذه الأيام ونظراً للطقس هناك وعدد الأشخاص المرضى أو الذين يحتاجون إلى المساعدة، والأصعب منه الاهتمام بزائري سيّارة الإسعاف المتنقلة والذي كان تحمّله بالنسبة لي في غاية الصعوبة، وكنّا نقضي ما يقارب الستة عشر ساعة في التجوّل من منطقة إلى أخرى، وفي الليل كنت أشعر أن عظامي تتفكّك.

وفي الليلة الأخيرة ذهبنا بسيارة الإسعاف إلى مخيّم الشهيد "گلهر" كان المخيّم تقريباً قرب "دو كوهه" ونهر مدينة "انديمشك"، وكنت قد اتّفقت مع حميد أن نلتقي، كان عندنا مرضى حتّى نصف الليل، وكنت مشغولة بالاهتمام بهم، وعندما انفرجت الأمور قليلاً، ألقيت برأسي على باب الإسعاف، وكانت رجلاي معلّقتان، كان جسدي متعباً ومنهكاً لدرجة جعلني لم ألتفت كيف استسلمت هناك للنوم، وفي الصباح وعلى صوت المناجاة الجميلة التي كانت تبث في محيط المخيم، وما إن فتحت عينيّ حتى رأيت حميداً، كان يجلس جانب القناة، وتحت ضوء القمر، كان وجه حميد المتعب جذاباً جدًّا وهو يرتدي لباس الخدمة وقبعة خضراء. سألته: حبيبي حميد منذ متى أنت هنا؟ لم لم

توقظني؟ فقال: لقد وصلت منذ ثلاث ساعات، وعندما وجدتك نائمة لم أحبّ إيقاظك، جلست هنا لأحرسك ولكي تستريحي. ابتسمت وقلت: مع أني متعبة جداً، وفي هذه الأيام الثلاث مشينا بهذه السيارة ثلاثة آلاف كيلو، ولكن زال التعب بمجرّد أن رأيتك، وإذا أردت اذهب معك مشياً إلى الأهواز نفسها.

ومشينا معاً مع برودة الصباح في محيط المخيم باتجاه الحسينية. ومن روائع مجاورة الشهداء والتي قليلاً ما تكون من نصيب الإنسان في المدينة، أن يصلي صلاة الصبح أول الوقت جماعة، كما كنّا نسمع أنّه أيام الحرب كانوا يتسابقون للوقوف في صفوف صلاة الجماعة، وبعد صلاة الصبح عاد حميد إلى دهلاويه بسبب الأعمال المتبقيّة هناك، على أن يرجع في الغد إلى قزوين، أما أنا ولأنّ درسي قد بدأ فقد ركبت القطار من "انديمشك" وذهبت إلى طهران حتى أعود بالباص إلى قزوين.

وعندما عدت من الجنوب، كان فكري مشغولاً بعيد ميلاد حميد، وكنت أحبّ أن أقيم له احتفالاً فيما بيننا بمناسبة عيد ميلاده الأول ونحن معاً.

وفي الرابع من شهر "اردیبهشت"[٧٠] كان يوم ميلاد حميد، وفي الساعة الخامسة صباحاً، قفزت من النوم مرعوبة، كان العرق البارد يتصبّب من جبيني، وفمي جافًا، لقد رأيت حلماً عجيباً، رأيت رجلاً ذا نور خاص، وفيما يبدو أنه شهيد، أراد هذا الرجل أن يقول لي شيئاً، وكان يسعى ليفهمني ما يقصده، ولكن ما إن أراد أن يقول حتى استيقظت من نومي، وكان وجه الشهيد عالقاً في ذهني ولكن انشغل تفكيري في ما كان يقول في كلامه الذي لم أستطع أن أسمعه.

كنا قررنا أنا وحميد أن نذهب في عيد ميلاده إلى مزار الشهداء، وأمضينا العيد هناك، كان هو وأنا والشهداء، اشتريت له كعكة الميلاد، وعندما وصلنا ذهب حميد كالعادة إلى مزار الشهيد "حسين پور" كنت أعلم أنه يريد أن يختلي بصديقه، ورحت أتقدّم من ذلك الصف وأمشي بهدوء، أحمل الكعكة بيدي، وأنظر إلى الصور التي تعلو المزارات، كان كلّ واحد منهم بعمر مختلف، وشكل مختلف، ولكن كان للجميع هدوء مميّز، كانت عيونهم تشعّ بالأمل، وكنت غارقة مع نفسي حتى صعقت فجأة، ومن بين إحدى الصور كانت صورة للشهيد نفسه الذي رأيته في الحلم، وكانت نظرته هي نفسها، هو الشهيد "اردشير ابراهيم پور" كان له جاذبيّة خاصة، وكان يدور في رأسي دائماً أنّ هذا الشهيد يريد أن يقول لي شيئاً، كان حميد يذهب إلى مزار الشهيد "حسين پور" وأنا كنت أذهب إلى هذا الشهيد، ومع أنّي لم أعرف ماذا كان في كلامه إلا أنّي كنت أشعر بسكينة عند مزاره.

وبعد قراءة الفاتحة وزيارة الشهداء، اقتربنا من العشب الأخضر هناك وجلسنا عليه، وضعنا الكعكة في الوسط والتقطنا صورة، وعندما كان حميد يقطع الكعكة كان يرفع رأسه ويقول وهو ينظر إليّ: شكراً لك يا فرزانة، أريد أن أقول لك شيئاً ولكن أخاف أن تحزني، خفق قلبي بشدّة، ولم أستطع أن أبتلع قطعة الحلوى التي كانت في فمي، وذهب خيالي إلى كلّ مكان، وأشرت له بيدي أن كن مطمئناً، فقال لي بجديّة: فرزانة أنت لست كما كنت أفكّر.

وما إن سمعت هذه الكلمات حتّى كأنّ مصيبة وقعت على رأسي، لم أعد أدري ما أفعل. قلت: ربما تذكّرَ أوائل أيام خطوبتنا، فقد قال لي عدّة مرّات على سبيل المزاح: أنت جبل من الجليد، لكن هذه المرّة كان يقول بجديّة، فقلت: كيف هذا حميد؟! كلّ همي أن أكون زوجة جيّدة.

وبعد عدة دقائق دخل في عالمه الخاص ولم يعد يقول شيئاً، ولم يتذوق أي قطعة من الحلوى، وبعد أن رآني كطائر مجروح يرفرف بجناحيه، خرج من حالته الجدية وقال ضاحكاً: لست كما كنت أفكر، أنت أرقى مما كنت أفكر، أنت خارقة، وكان من حسن حظه أننا كنا في محضر الشهداء وأمام الناس وإلا لأريته.

كان يعرف جيداً كيف يستولي على قلبي، وكنت أتعلّق به يوماً بعد يوم، وكان فراقه يعذّبني، وحتّى تلك الساعات التي كان يذهب فيها إلى العمل، كنت أشغل نفسي بالدرس والجامعة ودرس القرآن حتى لا أشعر بغيابه.

وفي النصف الثاني من شهر "اردیبهشت" كان عليه الذهاب إلى مشهد في دورة طبية تدريبية لثلاثة أشهر، ولم أكن أمانع تقدّمه، وكلّ دورة كان يجتازها كنت أشجّعه، ولكنّ ثلاثة أشهر من الغياب كانت صعبة بالنسبة لي وله.

وفي السادس عشر من الشهر نفسه ذهبنا أنا وحميد لحضور عيد ميلاد ريحانة ابنة أخ حميد، وفي اليوم التالي ورغم تأخّر الوقت ولكنّه جاء إلى منزلنا، ومرّ من تحت القرآن[٨] ثم ودّعنا وذهب.

وما إن أرقت ماءً خلف حميد وأغلقت الباب حتّى بدأت أشواقي، وكنت أشعر بالحالة نفسها التي رافقتني عندما سافرت إلى الجنوب، والتي كان حميد يخبرني بها، وكأنه قد أخذ قلبي معه، واتّصلنا لمرّتين أو ثلاثة في الطريق، ولأنه داخل الباص لم يكن يمكنه التحدّث كثيراً.

وفي اليوم التالي لذهابه، وقبل أن أترك سجّادة الصلاة اتّصل وقال: هنا في المخيم التعليميّ توجد شجرة ياسمين، جئت إلى قربها لأتّصل بك، أخذت الياسمين الجافّ في سجّادة الصلاة شممتُ رائحته وقلت: إذن

---

٨ عادة إيرانية عندما يذهب أحدهم في سفر يقف أحدهم ويحمل القرآن بينما يمر المسافر من تحته.

لم يكن اتفاقنا كلّ ليلة في هذه الأشهر الثلاثة قرب شجيرة الياسمين هذه، وكنّا نتحادث تقريباً كلّ يوم، وكنت أخبره أدقّ التفاصيل من انتعال الحذاء والذهاب إلى الجامعة حتّى اللحظة التي أعود فيها إلى المنزل. وكان حميد يخبرني بكلّ ما يشاهده في الدورة وأثناء التعليم. ومن الأسبوع الثاني اشتاق إلى أبيه وأمه كثيراً، وكلّما كان يتّصل كان يسألني هل ذهبت لزيارة أبي وأمّي؟ وعندما كنت أخبره عنهما كنت أشعر باشتياقه لهما عبر الهاتف، ومرّ شهر ونصف في غاية الصعوبة وخلال الدورة أعطوه عدّة أيام للاستراحة، كنت أحبّ أن أرى حميداً في أسرع وقت، لقد فرغ صبرنا كلانا، ومنذ اللحظة التي استقلّ بها الباص من مشهد كنت أتّصل به وأتقصّى أين أصبح وماذا يفعل؟ كنت أشعر أنّ الباص متوقّف عن السير، وكان الزمن يمرّ ببطء، نفد صبري، وفي كلّ مرّة كنت أتّصل فيها كنت أسأله: حميد، ألم تصل؟ كان يجيبني: لا لقد بقي نصف الطريق، وفي أوقات كهذه كنت أحبّ أن يعطى العاشقون بساط سليمان حتى لا ينتظروا هذا الانتظار.

وكان عندي كثير من الأعمال المتأخّرة التي يجب أن أنهيها قبل عودة حميد، وفي الصباح وعند الساعة الثامنة خرجت من المنزل مسرعة، ولشدّة سرعتي نسيت خاتم الزواج، وفي المرّة الأخيرة التي اتّصل بها كان على مقربة من قزوين، واتّفقنا أن نلتقي أمام "ميدان سبز"[٩]، وما إن رأى أحدنا الآخر كلّ ما استطعنا أن نفعله هو أن نمسك بأيدي بعضنا ونجلس على مقعد، كنت أحبّ أن أشبع من رؤيته، وعندما رأى يدي سألني: هل هذا يعني أنه في المدة التي غبتُ فيها كنتِ تخلعين الخاتم؟! كان يحسب لكلّ شيء حساباً، ويريدني خاصّة له، حتّى بقدر

٩ الميدان الأخضر.

الملكيّة التي يرمز إليها هذا الخاتم، وبألف فنّ برّرت له أنّني نسيته بسبب الفرح والشوق للقياه ولم يكن الأمر متعمّداً.

كنت أشعر بالشوق لكلّ شيء، لنزهاتنا مشياً على الأقدام، لأكلنا المثلّجات، لمزاح حميد، كنت أريد في هذه الأيّام القليلة التي تتخلّل الدورة والتي أخذ فيها إجازة للمجيء إلى قزوين أن لا نفترق للحظة.

اتّصلت عمّتي وقالت: الغداء جاهز، كانت تنتظرنا.

وبعد أن تناول حميد الغداء فتح حقيبته، كان قد أحضر لنا الكثير من الهدايا، اشترى لي بعض الثياب، وكان قد رتّبها داخل الحقيبة، وبين كلّ منها وضع زهوراً قد نثر عليها بعض العطر، وعندما رأت عمّتي هذا الذوق الرفيع لحميد قالت بمزاح: أنا لا أصدّق أنّك أنت حميد، التي كانت تهرب قبل الخطوبة من أعمال كهذه، لم تكن تهتمّ بأيّ شيء، حميد، الفتاة هي من عليها أن تحضر ملابسها إلى بيتها الجديد، لقد اشتريت أنت كلّ شيء. وما إن قالت عمّتي هذا حتّى رحنا نضحك، وكان من الواضح أنّه قد أمضى كلّ أوقات فراغه في هذا ليرى كيف يمكنّه إسعادي.

ورغم حرارة الطقس، أمضينا كلّ الأسبوع الذي بقيَ فيه حميد في قزوين معاً، كنّا نذهب إلى أماكن مختلفة، حتّى عند انتصاف النهار حيث يسعى الجميع للاحتماء في ظل مبرّد وظلّ، كنا نسعى لأن نكون معاً.

وعلى عكس أيّام الدورة مضى هذا الأسبوع سريعاً، وكان عليه الذهاب إلى مشهد لإكمال الدورة التدريبيّة، وكان الافتراق للمرة الثانية أكثر صعوبة، وكنت أحاول عند الوداع أن لا أظهر الحزن أمام حميد، لأني كنت أعلم أن انشغال حميد بهذه المهمّات والدورات كثير، وإن أردت في كلّ وداع أن أظهر الأسى والآهات فإنّ هذا سيكون ذا تأثير سلبيّ على إرادة حميد.

ولأنه في المرة القادمة لم يلائمه الطعام أثناء الطريق، أعددت له

شطائر منزليّة، وما إن مشى حميد حتى بكيت كثيراً وأنا واقفة في مكاني في فناء الدار قرب الحوض، وقلت في نفسي، نحن بلا حظّ، أوّل خطوبتنا صادفت مع أيام الخريف والشتاء وبسبب قصر النهار والبرد لم نستطع أن نبقى مع بعضنا طويلاً، والآن بعد أن صار النهار طويلاً والطقس جميلاً، فهو ليس قربي وعنده عمل.

وكانت الأيام تمرّ بصعوبة في غيابه، كنت أقول لو أنّ حميداً هنا لذهبنا إلى "چهل ستون"[١٠] وربما ذهبنا إلى "تپه نور الشهدا"[١١]، تقرّح قلبي اشتياقاً لكلامه الجميل ولعطفه، وخاصة في الثاني من شهر "تير"[١٢] أول عيد ميلاد لي بعد الخطوبة، اتصل بي عند الصباح وبارك لي ومازحني كثيراً، كنت حزينة لغيابه، ففراقه يشقّ علي.

وأحسست أنّ حميداً انتبه لعدم ارتياحي لأنّه أرسل إليّ بعد الاتصال مباشرة عدّة رسائل، وقال لي شعراً، وكان يناديني قرة العين، وكتب لي بعض المقطوعات الأدبيّة وأرسلها، ولو سنحت له الفرصة لصار شاعراً، كان يكتب نصوصاً رائعة وأحياناً ينظم الشعر، ويمكن الإحساس باشتياقه من خلال نصوصه كلمة بكلمة.

ورغم أنّي كنت أعلم أنّ النصوص والأشعار هي من كتاباته إلا أنّي ولإضفاء بعض المرح كتبت له: مختاراتك جميلة جدًّا يا حميد، ونصوص رائعة في الواقع، من أيّ كتب تختارها؟ قال دون كذب: هل تمزحين أو تسخرين منّي؟ كلّ هذه الكتابات هي لي، فكتبت: كنت ألاطفك يا عزيزي، وما تكتبه عزيز عليّ كلمة كلمة، وقد دوّنتها في مذكّرة حتّى تبقى ذكرى.

وفي اليوم التالي وعندما اتّصل بي طلب إليّ أن أقرأ الشعر الذي كتبه لي

---

١٠ مكان ترفيهي في قزوين.

١١ رابية نور الشهداء.

١٢ الشهر الرابع...

بالأمس، كان شعره ذا لحن ونغم خاصين، فرحت ألحّنه بطريقتي الخاصة، حسنت صوتي وبدأت بالقراءة، كانت القراءة خاطئة ومتداخلة مع بعضها، كنت أحرّك يدي ومهما فعلت لم أستطع أن ألحّنه بشكل جيّد فقال حميد: لقد أعميت جميع إحساسي بقراءتك. ضحكنا ثمّ قلت: أنا لا أعرف يا حميد اقرأ أنت، وعندما بدأ بالقراءة كان كلّ شيء صحيحاً، كان الوزن والقافية واللحن في أماكنها، وكان يمكث أثناء القراءة، ثمّ قال: حبيبتي عندما أقرأ لا يكون هناك لذّة، اقرأي أنت لنضحك على الأقل.

وفي التاسع عشر من شهر "تير" انتهت دورة مشهد، ونجح حميد بمعدّل عال، كانت جميع علاماته بين تسعة عشر وعشرين، وأنا اجتزت امتحاني بنجاح، وفي المرّة الثانية اشترى الكثير من الأشياء والهدايا، وخاصّة عطراً مميزاً لم أكن أحبّ أن أستعمله، وكنت أخشى أن ينفد، وأصغر الأشياء التي قدّمها لي كنت أحبّ أن أُطبِق عليها بيديّ الاثنتين.

وفي البداية كنت أقول لنفسي: ما لي وللعشق؟! ما لي وللوله؟! ولكن الآن أصبح حميد يمثّل لي كلّ شيء، كنت أشعر بأني عاشقة بكلّ جوارحي.

ولم تمض عدّة أيّام على عودة حميد حتّى وقع طريح الفراش، كنت أعتقد أنّ مرضه بسبب الظروف التي عاشها في الدورة، وكنّا نذهب معاً إلى مستوصف "پاكروان" الواقع في شارع "حيدري"، كتب له الطبيب مغذّياً، ولكي تجد الممرضة شريانه غرزت الإبرة في يده ثلاث مرات، وهذه هي المرة الأولى التي يعطى فيها أحد إبرة ولكن كنتُ أشعر أنا بألمها، وهذه المرّة الأولى التي يمرض فيها أحد ولكن كأني أنا المريضة. وأخذت إجازة من المسؤول هناك أن أبقى إلى جانب حميد حتى انتهاء الدواء في المغذي، وأخرجت من حقيبتي قرآناً، كانت حالتي أسوأ من حميد، وبدأت بقراءة القرآن، فقال لي: اقرأي بصوت عال، وقولي لي المعنى، هذا الدواء هو وسيلة والشفاء الحقيقي بيد الله.

رسائل من حميد، ولأنّي لم أره بعد العرس فقد أرسل إليّ كمّا هائلاً من الرسائل، رسائل حبّ وقلق وانتظار لجواب منّي، ولكني لم أنتبه لأيّ منها، وكان بداية قد أرسل بيتاً من الشعر: گر گناه است نظر بازی دل با خوبان بنویسید به پایم گناه دیگران.

إن كان ذنباً نظر القلب إلى الحسان فاكتبوا ذنوب الخلق في ذمّتي

وعندما لم أجب كتب من جديد:

به سلامتی کسانی که توی خاطرمون ابدی هستند

وما توی خاطرشون عددی نیستیم!

يقول:

سلّم الله من هم في قلبي إلى الأبد وفي قلبهم أنا لستُ شيئاً يذكر.

ولم يكن يخطر في باله أني نائمة فكتب من جديد:

چقدر سخت است حرف دل زدن با ما مگو

به دیوار بگو اگر بهتر است.

كم هو صعب الكلام من القلب لكن دون جواب! فقل للجدار ربما أفضل!

وقد قال لي بشكل غير مباشر: لو أرسلت كلّ هذه الرسائل إلى الجدار لأجابني.

كان يحبّ الشعر كثيراً، وهو أيضاً يكتب الشعر، وكنت أعلم أنّ بعض هذه الرسائل هي من أشعار حميد، ولكنّي لم أكن أستطع أن أبرز مشاعري على لساني، كان هناك نوع من الخوف في قلبي، كنت أخاف أن أحبّه ثمّ ينتهي كلّ شيء بسرعة، كنت في قلبي أكنّ له الكثير من الحبّ ولكن لا يمكنني أن أقول له في وجهه كلمات تعبّر عن الحبّ، وكنت أنكر حبي له أحياناً وكأني كنت أخاف أن أخسره بعد اعترافي بحبه. وفي مقابل جميع هذه الرسائل ومشاعر الحبّ من حميد أجبته بشكل رسمي وكتبت: كنت أفكّر بك، لقد استيقظت للتوّ، وكنت أقرأ

كتاباً، وحدست بأنه انتبه لبرودتي، فكتب:

عشق گاهی از درد دوری بهتر است
عاشقم کرده ولی گفته صبوری بهتر است
توی قرآن خوانده ام یعقوب یادم داده است
دلبرت وقتی کنار نیست کوری بهتر است

يقول:

أحياناً يكون العشق أفضل من ألم الفراق
لقد جعلني عاشقاً ولكن قال أن تصبر أفضل
قرأت في القرآن وعلمني يعقوب أن
إذا كان محبوبك بعيداً عنك فالعمى أفضل

ومرّت مدّة طويلة حتّى انطلق لساني معه، حتى صرت أبرز مشاعري لحميد وأكون مرتاحة معه، وفي الأسبوع الأول كنت أبقى بحجابي وقميصي الطويل وحتى جواربي، كانت هذه العلاقة القريبة بالنسبة لي شيئاً غريباً، وكأنّي دخلت في عالم آخر لم أجرّبه إلى الآن، وإلى هنا وصل هذا الإحساس بالغرابة حتى ذهبنا يوماً أنا وحميد إلى مرقد «السيد حسين» ابن أحد الأئمة فتكلّم وقال لي بعتاب: فرزانة، هل أنت غير راضية عن العلاقة معي؟! لماذا أنت جديّة معي وجافّة كجبل من الجليد، لا تتحدثين إلي، ولا تبرزين أي إحساس؟!

ومع أنّه كان محقاً فيما يقول ويرى، ولكنّي تعجبت لسماع هذه الكلمات وقلت: ليس الأمر على ما تقول، لقد اخترتك للحياة المشتركة، وأرجو أن تفهمني، فأنا أحاول أن أكون معك طبيعية أكثر ولكنّ ذلك يتطلب وقتاً حتى أعتاد على هذا الوضع الجديد.

وعندما دخلت إلى المرقد لم أعرف كيف قرأت الزيارة، لقد أدخلني كلام حميد في تفكير عميق، كان قلبي مضطرباً، جلست قرب الضريح

الفصل الخامس

قرأنا مئة بيت شعر قافيتها هي اسمك

كانت الأجواء في شهر رمضان رائعة، كنّا إما نذهب معاً إلى بيت عمّتي أو كان حميد يأتي إلى بيتنا، وأحياناً كنّا نعدّ إفطاراً ونذهب إلى مزار الشهداء، وفي أحد الأيام عندما دعونا عائلة عمّتي لتناول الإفطار عندنا، جرى الحديث عن تحديد تاريخ الزواج، قال حميد: لأنّنا عقدنا قراننا بعد سعيد، فدعوه هو أولاً يحدّد تاريخ زواجه. فقالت عمتي ضاحكة: وكما أذكر عندما اقترب تاريخ ولادتكما كنّا نعتقد بأن هناك طفل واحد، لقد ولدت أنت أولاً وبعد خمس دقائق ولد سعيد، وإذا أردنا أن نحسب من الأكبر ومن الأصغر يجب أن نزوّجك أنت أولاً، ورغم هذا لم يقتنع حميد لقد كان يحسب لكلّ شيء حساباً.

وعندما صار مؤكداً تاريخ زواج سعيد، اخترنا الثاني من «آبان»[١] ليكون تاريخ زواجنا، وصرنا نهيّئ مقدّمات العرس وبعد شهر رمضان، اتّفقنا مع الصالة، وحسبما كان مقرّراً في العقد فقد اشترى حميد أربعة اشياء من أثاث المنزل وهي: ثلاجة وتلفاز وغسالة وسجادة، وبقية الأثاث كان حميد إلى حد الإمكان يأتي معي لنشتريه.

لم نكن نهتمّ بالأشياء الغالية الثمن والكماليّات، وكلّما دخلنا محلاً سألنا عن الصناعات الإيرانيّة، وكان رأينا نحن الاثنين أن نهيّئ أثاث حياتنا المشتركة من الصناعة الإيرانيّة إلى أكبر قدر ممكن، وقال حميد في اليوم الأول من شرائنا للجهاز: عندما قال السيّد الخامنئي علينا أن ندعم الإنتاج الداخليّ فعلينا أن نمتثل ونشتري أصنافاً إيرانيّة.

وفي السادس عشر من شهر «شهريور»[٢] كان عرس سعيد، لقد كان العرس رائعاً، لكنّ حميداً لم يكن يبدو عليه الارتياح، كانت عيناه تبثّان قلقاً من أعماقهما، وبسبب زواج أخيه التوأم صار في عالم آخر، وبعد انتهاء العرس كنت أنتظره على باب الصالة، ولكنّه لشدّة ما كان غارقاً في عالمه الخاصّ كانت حواسّه مشتّتة، وتركني في الفناء الخارجيّ للصالة، وبعد أن مشى عدّة خطوات تذكّر وجودي.

شعرتُ ببعض الاستياء، وبمزاح رميته ببعض الكلمات، وتركت الخجل منه: ما شاء الله يا سيّد حميد! يا للروعة! مع من نذهب لمراسم اليوم الثالث عشر من شهر فروردين؟[٣] مع من نذهب إلى النزهات؟ ومتى سنكتب الذكريات على الجدران؟ من هو الذي ينسى زوجته ويمشي؟! وكنت أحبّ في مواقف كهذه أن أرفع من شأن نفسي حتّى يهتمّ بي أكثر.

---

١ الشهر الثامن من الشهور الإيرانية.

٢ الشهر السادس من الشهور الإيرانية.

وقد اعتذر كثيراً لهذا النسيان وكان خجولاً جدّاً. وكنت أراه محقّاً، فبعد كلّ هذ السنوات التي عاشها الأخوان معاً و كبرا فيها معاً، سيمضي كلّ منهما إلى حياته الخاصّة! لقد كان هذا صعباً جدًّا. ضحكت وقلت: أجل معك حقّ يا حميد، ولو أنّ أختي التوأم تزوّجت لكنت فعلت مثلما فعلت أنت، وأنت على احترامك السابق في عيني.

وبعد عرس سعيد كنّا كلّما ذهبنا إلى مكان نُسأل عن تاريخ عرسنا. لم يكن لدينا الكثير من الوقت، وكان أهمّ عمل عندنا هو استئجار منزل مناسب، كان رأي حميد أن نستأجر منزلاً كبيراً، كان يحبّ أن يهيّئ لي أفضل الأشياء، وأوّل منزل ذهبنا لنراه كان في حدود ١٢٠ متراً، كان كبيراً يشرح الصدر ويدخله النور جيّداً، وكانت القيمة التي طلبها السمسار تتوافق مع ما ادّخره حميد.

أعجبنا البيت تقريباً نحن الاثنين، وخرجنا فرحين لانتخاب بيتنا المشترك، ولم نكن قد ركبنا الدرّاجة بعد، حتّى اتصل أحد أصدقاء حميد، وعندما أنهى كلامه لاحظت أنّ حميداً قد غرق في تفكير عميق، وعندما سألته قال: أريد أن أقول لك شيئاً حتى يكون عندك اطلاع على الموضوع، وإن قبلت، حينها أفعل، لقد اتّصل أحد أصدقائي الآن، وكأنه يواجه مشكلة في استئجار منزل ويحتاج إلى المال، فإن قبلت نعطيه نصف ما ادّخرته، وبالنصف الباقي نرهن بيتاً أصغر، وعندما نحصل على مال نستأجر بيتاً أكبر.

وما إن سمعت اقتراحه حتّى أصِبت بالدهشة، تململت؛ فقد كنت أعرف أنّ المال الذي سيتبقّى لن يمكّننا من استئجار بيت جيد. وعندما حسبتها في نفسي رأيت أن بيتاً صغيراً في الأحياء الفقيرة أسفل المدينة يمكنه أن يكون جيداً، ولأنّ هذه الأمور لم تكن مهمّة بالنسبة لي فقد قبلت بسهولة وأنا في مكاني، كنت أعرف أنّ تكاليف العرس واستئجار

المنزل هي بعهدة حميد ولم أكن أحبّ أن يقع تحت أي ضغط.
وبالمال الذي تبقّى جلنا على عدّة سمسارين، وكان من الصعب استئجار منزل بمبلغ كهذا، وأعطانا سمسار في مستديرة الشهيد «حسن پور» عنواناً لمنزل يقع في شارع نواب، ومن رجل عجوز يجلس على كرسيّ في الزقاق سألنا عن عنوان منزل السيّد كشاورز، ومن طريقة نظرات الرجل العجوز وجوابه عرفنا أنّه مختل عقلياً، وتقدّمنا قليلاً فوجدنا المنزل، وكان هذا أوّل بيت يمكن أن نراه بعد انتصاف المال، كان المبنى مؤلفاً من طابقين ويبدو للوهلة الأولى قديماً وصغيراً.
رنّ حميد جرس الباب، وبعد قليل خرجت سيدة عجوز ترتدي الـ «شادور»، وبعد السلام طلب حميد الإذن لرؤية المنزل، ولأن المستأجرين كانوا لا يزالون في البيت والفوضى تعمّ المكان لم يدخل حميد.
دخلت وشاهدت غرفة الاستقبال، المطبخ والغرفة الباقية وأعجبني، كان بيتاً محبّباً وجميلاً، كان الطابق الأسفل صغيراً جدًّا ومرتباً، وكان يعيش صاحب المنزل في الطابق الأعلى، وعندما يُفتح الباب تطالعك غرفة الاستقبال من عشرين متراً، وغرفة نوم صغيرة من ثمانية عشر متراً، يفصلها عن غرفة الاستقبال فاصل من خشب مشبّك، ومطبخ من اثني عشر متراً مع شرفة صغيرة لها باب من غرفة الاستقبال، وكان الحمام داخل الشرفة، وكان داخل الشرفة حوض رائع تزرع فيه الورود.
كان هذا البيت بالنسبة إلى المال الذي نملكه جيّداً لبداية حياتنا، وعندما خرجت قلت لحميد هذا المكان جيّد لقد أعجبني، وفي اليوم نفسه دفع حميد سبعة ملايين تومان كرهن، وتعهّد بدفع مبلغ خمسة وتسعين ألف تومان شهريًّا كبدل للإيجار.[٤]

---

٤ وهذه الطريقة هي المتعارفة في إجارة البيوت في الجمهوريّة الإسلاميّة، حيث يودع المستأ
لدى صاحب البيت مبلغاً كبيراً من المال يستفيد منه صاحب البيت كرهن

وفي اليوم التالي الذي أخبرنا فيه صاحب البيت أنّ المستأجر قد أخلى المنزل ذهبت أنا وحميد من أجل أن ننظّفه. وأول شيء أخذناه معنا كان مرآة وقرآناً وصورة للسيد القائد الخامنئي، كانت هذه الصورة هي نفسها التي اشتريناها معاً لحياتنا المشتركة، فقد قال حميد: يجب أن يرى السيد منزلنا أولاً، ووضعنا القرآن وسط الرفّ الموجود في الغرفة، المرآة في جانب والصورة في جانب آخر، تأمّل حميد الصورة لدقائق وقال: أترين كم هو السيّد محبّب ونورانيّ؟! إنّه بسبب الإيمان الكبير، أنا مستعدّ لأفعل أيّ شيء كي لا تغيب الابتسامة ولو للحظة عن وجه السيد.

وعندما استأجرنا المنزل كان يحتاج إلى تنظيف، وكنت قد أحضرت من قبل أدوات التنظيف من سطل الماء والإسفنج والفوط ومنظّف الزجاج، وكان دأبنا هذا لعدّة أيام، فعندما كان يأتي حميد بعد الظهر من العمل كنا نذهب معاً من أجل التنظيف، وكان هذا العمل يعطيني إحساساً رائعاً، فالإحساس بأننا سندخل حياة مشتركة كان إحساساً رائعاً.

وفي اليوم الثاني كنت أنظف الزجاج فانتبهت لجرس الباب، ومن زجاج النافذة رأيت عمّتي تدخل وبيدها علبة من الحلوى، كان البيت قديماً وصغيراً وما إن رأته عمّتي حتى قالت: كيف أعجبك هذا المكان يا فرزانة؟ هل أعطيت عقلك لحميد؟ فقد تعجّبت من أن عروساً جديدة يعجبها مكان بهذا الشكل، فقلت لها: حميد المسكين لا ذنب له، أنا رأيت هذا المكان وأعجبني. وكثيرون اعترضوا علي ولكن لم يكن الأمر يهمّني، وكنت أقول: هنا يمكن أن نعيش أفضل حياة، لم يكن أحد يعرف القصّة وأننا أقرضنا نصف مالنا. قلت لحميد: كلّ من يعترض لماذا استأجرتم هذا المكان فقل لهم: لقد أعجب فرزانة فأنا أتولى

مسؤوليّة انتخاب هذا المكان.

وكان عند حميد في الأسبوع السابق لزواجنا دورة ثقافيّة عقائديّة، ولم يكن لديّ وقت كثير، ومع ذلك كان يحاول أن يرافقني إلى كلّ مكان ذهبتُ معه لشراء لوازم العرس إلى السوق وكلّما دخلنا متجراً وجدنا أمثالنا من العرسان منهمكين بالشراء أيضاً، وكان من الواضح أن كثيرين قد اختاروا مثلنا عيد الغدير ليكون تاريخاً لزواجهم.

اشترينا لحميد خاتماً فيه ثلاث خطوط ملتوية، وفي كلّ خطّ ثلاث حبّات من العقيق، وكان يلبسه منذ اليوم الأول لشرائنا له، واشترينا طاقماً بنيًّا غامق اللون من بنطال وقميص، واشترى لي حميد طاقماً من الذهب، ومن حسن الحظّ أني لم أكن طمّاعة أبداً، وكان حميد ذا ذوق رفيع، فكان يشتري أشياء لم تكن لتخطر على بالي، لذا كنت أفضّل أن يختار هو، لأني أعرف أن ذوقه رائع.

وفي ذلك الأسبوع كنت أنا أيضاً منهمكة في الجامعة، حيث كنت أجمع الإمضاءات لتشكيل عريضة لنتقدّم بطلب لدفن أحد الشهداء المجهولين في الجامعة، فقد كنت أحبّ أن يكون عندنا في حرم الجامعة قبر لشهيد مجهول كما هو الحال في بقية الجامعات، وفي الأيام القليلة المتبقّية للعرس كنت أجول بين الكليات لأحصل على إمضاءات، وبعد الظهر كنت أذهب مع حميد للتسوّق أو لترتيب أغراض المنزل.

وقالت لي إحدى صديقاتي المقرّبات بمزاح: أيّ عروس هي أنت؟! إنّ أيّة فتاة مثلك يكون كلّ همها البحث عن أيّ صالون تزيين ستذهب، وأيّ استوديو تأخذ فيه الصور؟ وأيّ لباس تشتري؟ في الوقت الذي تجمعين فيه إمضاءات لدفن الشهداء. ضحكت وقلت لها: لا تقلقي زوجي راضٍ، وعندما يتمّ جمع الإمضاءات فالباقي لا يهمّ. وبعد أن أحضروا شهيدين مجهولين إلى كليّة علوم الطبّ كان حميد يقول لي دائماً: ولأنّ شهداء

الجامعة خارج محيط الصفوف الدراسيّة اذهبي حتماً لزيارتهما، أنت من دعاهم ومن عدم الإنصاف أن تتركيهم.

ويوم نقل الجهاز كان عندي حماس وقلق في الوقت نفسه، وكانت جميع العائلة والأقرباء يبذلون جهداً كبيراً لنقل أثاث المنزل، وكنت مشغولة بتوضيب الأغراض فجلس قربي حميد وأعطاني في يدي مقداراً من تربة كربلاء وقال: ضعي هذه التربة بين الأغراض، أحبّ أن تتعطر حياتنا كلّها برائحة أهل البيت والإمام الحسين عليه السلام.

كنت أعرف أنّ البيت الذي اخترناه أصغر من أن نتمكّن من حمل كلّ هذه الأغراض إليه، لذا تركنا الكثير منها كالوسائد واللوحة الفنيّة وطاولة التلفون في منزل أمّي، وفي إجابتي على الاعتراضات كنت أقول: إن شاء الله عندما نذهب إلى بيت أكبر سنأخذها.

وكانت الأغراض تنتقل من يد إلى يد حتى تصل إلى داخل السيارة، عند خروج كلّ واحد منها كنت أرسم في ذهني مكانها، وشعرنا بالخوف لصوت مرتفع أتى من فناء الدار وعندما ذهبت إلى هناك، عرفت أن الغاز قد وقع على الأرض وانكسر زجاجه وقد أمضينا الأيّام المتبقيّة للعرس نبحث عن زجاج للغاز، ولكن لم نجد.

وفي الأيام الأخيرة كنت أذهب مباشرة من الجامعة إلى المنزل لترتيب الأغراض، وكان حميد يأتي من العمل لنقل الأغراض إلى مكانها، ولأنّ البيت صغير فقد كان ترتيب الأغراض يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد، كان حميد يبسط الورق المقوّى في أرضيّة غرفة النوم فقال: ما رأيك أن لا نشتري طعاماً من المطعم، وبما أنّنا قد شغّلنا الغاز فلنعدّ هنا شيئاً بسيطاً، وكان أول طعام أعددته هو البطاطا المقليّة مع البيض، وقلت: تفضّل، هذا طعام الطبّاخ.

ولترتيب الأغراض قرّرنا أن لا نخرج بعض أدوات المطبخ من الصناديق

لأنّ كلّ خزائن المطبخ لا تبلغ أربعة خزائن.

وفي إحدى أطراف غرفة الاستقبال فرشنا سجّادة من ستّة أمتار، ورتّبنا خزانة السفرة ومقاعد غرفة الجلوس بعد أن غيّرنا أماكنها لعدّة مرّات، وكان هناك عمود في غرفة الاستقبال الصغيرة أيضاً، وكان علينا أن نرتّب المكان بشكل نتعرّض فيه لأقل إزعاج من العمود، وكلّ ما كان حفيد صاحب المنزل يرى هذا العمود كان يقول: عندما كنّا نعيش هنا كنّا نصعد بواسطة هذا العامود إلى الأعلى، وعندما تصل يدنا إلى السقف كنّا ننزل.

و كنت مستغرقة في الأعمال، دورة العقائد من جهة، جمع إمضاء عريضة الشهداء من جهة أخرى إلى جانب تنظيف المنزل وترتيب الأثاث، وفي خضمّ كلّ هذه الأعمال اتّصلوا بي من الجامعة، وأخبروني أنّ المسابقات المحليّة في الكاراتيه لطلاب الطبّ ستجري قبل العرس بيوم وتقرّر أن تقام في مدينة ساري.

وكنت قد تعلّمت الكاراتيه حتّى الحزام الأصفر عند أبي، ثمّ ذهبت إلى النادي وأخذت الحزام الأسود، لم يكن قد أُعلن تاريخ المسابقات، قالوا لي يحتمل أنها ستكون في شهر «آذر»[٥]، فارتاح بالي لأننا سنكون حينها قد انتهينا من العرس بل وسافرنا وعدنا من شهر العسل، ولكن الآن أخبروني أنّ المسابقة في اليوم الأوّل من شهر «آبان»[٦].

كنت بين نارين أذهب أو لا أذهب، تعبت لمدّة ستة أشهر، وخضعت لتمارين قاسية، وكانت المسابقة تحوز أهميّة عندي فقلت للمدرّبة: اذهب معك يوم المسابقة، ولكنّ أوصليني إلى قزوين بسرعة حتى أقوم بما يلزم للعرس. وعندما عرفت المدرّبة تاريخ العرس ضحكت

وقالت: لا أفهم ما تقولين أيّتها الفتاة! هناك لا يقدّمون الحلوى المجانيّة، قد تتلقّين ضربة على وجهك ويصبح أزرق، عندها يقولون: «لم تكد العروس تصل، فمن اليوم الأول تلقّت ضربة من العريس» ضحكتُ وقلت: حميد هو مدرّب كاراتيه ولكنّه لا يضرب، و هو في المسابقات يحاول أن تكون ضرباته بشكل لا تؤذي خصمه، وفي النهاية أصرّت المدرّبة على رأيها ولم تسمح لي أن أذهب إلى ساري من أجل المسابقة.

وفي الثاني من شهر آبان، الموافق لعيد الغدير من سنة ١٣٩٢ هـ ش[٧] كان عرسنا، ونوينا أنا وحميد أن نصوم قبله لثلاثة أيّام حتى لا يكون في عرسنا أي ذنب. وفي الليلة التي كنّا نكتب فيها دعوة العرس كان في يد حميد لائحة طويلة من الأصدقاء، وكان يحبّ أن يدعوهم جميعاً، كان عنده الكثير من الأصدقاء، أصدقاء في العمل، أو في الهيئة، أو في النادي، والجيران، والعائلة، وباختصار كان عنده الكثير من الزيارات بينه وبينهم، كان يخالط الجميع، ولكن لم يكن ممّن يعطون جلّ وقتهم لأصدقائهم، لم يكن ليجعل هذه الصداقات تقلّل من لقائنا، وعندما رأيت لائحة أصدقائه قلت: إن كان لديك كلّ هذا القدر من الأصدقاء فإنّي أخاف أن تنشغل بهم ليلة العرس وتنساني.

كان حميد سادس فرد يتزوج من أسرته، لذا لم يكن هذا الأمر جديداً بالنسبة لهم، وكان أمراً عادياً، ولكنّ أسرتي كانت على النقيض، وكنت أول من يتزوج فيها، وفي الصباح عندما أردت أن أذهب لصالون التزيين

بكى أبي وأمي بشدّة، وكنت أشعر بالاضطراب منذ عدّة أيام ولم تذق جفوني طعم النوم، وعندما شاهدت اضطراب الجميع وقلقهم لم يكن لي وسيلة غير التوسّل والتوكّل، فأخذت ورقة وكتبت عليها: «إلهي أخاف من الدخول في حياة مشتركة، ساعدني لتكون عندي أفضل حياة»، وضعت هذه الكلمات بين صفحات القرآن وساعدني هذ العمل على استعادة هدوئي.

وجاء حميد لمرافقتي عند الساعة السادسة. وكان يعرف أنّي أحب ورود الجوري، فاشترى لي باقة منها، فيها عشر وردات من الجوري وستة وردات من الفلّ، وارتدى القميص والبنطال الذي اشتريناه معاً، كان أجمل وأحبّ من أيّ وقت آخر، وجاء إلى الاستوديو بإصرار منّي، كانت الآنسة التي تلتقط لنا الصور ترتدي حجاباً لم يكن بالشكل المطلوب، كان سلوك حميد معها جافّاً لدرجة جعلها تنتبه وتبدّل من طريقة حجابها.

كان العرس رائعاً، كنت أقول لحميد دائماً أنّي راضية عن العرس، لم ترتكب فيه ذنوب ومعاصي، وكان بسيطاً، ولم تتبعه مشاكل؛ لأنّه في الكثير من الأعراس وخصوصاً في زواج الأقارب وبسبب بعض المسائل السخيفة، قد تحدث بعض المشاكل، ولكنّ عرسنا كان رائعاً.

كان حميد متعاوناً ولم يصعّب الأمور عليّ، كان كلّ همه أن أكون راضية عن العرس، كان يسألني عن رأيي دائماً، وكان يقول: إن كنت لا تحبّين أو كان هذا لا يعجبك فقولي لنغيّره. وكان إصراره الوحيد أن لا يرتكب في العرس أيّ ذنب، وأوصينا على كباب مشويّ[٨] مع سلطة وكان يهمّه أن يكون الطعام بقدر الحاجة ولا يحدث إسراف.

وبعد أن خرجنا من الصالة جلنا في الشوارع قليلاً وذهبنا إلى المنزل،

وقد قام أصدقاء حميد تلك الليلة بالكثير من المشاغبات، فقد كانوا يقفون أمام سيارتنا وينظفون زجاجها بمنديل ويطلبون أجرة فيقولون: عريس بهذا الجمال يجب أن يعطينا هديّة، وكان حميد المعتاد على شقاوة أصدقائه أحياناً يعطيهم مالاً وأحياناً أخرى يضغط على البنزين ويقول لهم: صلّوا على محمد وآل محمد[9] ويذهب، وكان يقول لي: لقد أشعل هؤلاء الصالة بالمفرقعات، وكانوا يمسحون على رأسي ووجهي ويخزبون شعري.

وبعد أن وصلنا إلى المنزل وودّعنا العائلة والأقارب وشكرناهم، قرأنا القرآن أولاً، وفرش حميد سجّادة الصلاة، وبعد الصلاة شكر السيّدة المعصومة عليها السلام وكان يعتقد برعايتها له، وكان دائماً بعد الصلاة يشكر كريمة أهل البيت عليهم السلام أساس هذا الارتباط. كان يرفع يديه بالدعاء ويقول الجملة نفسها التي قالها بعد قدوم السنة الجديدة معي في مقابل الضريح: أشكرك لأنّك أعطيتني زوجتي وأوصلتني إلى من كنت أتمنى. أحياناً يكون التوكّل ببساطة رائعاً.

كان العرس يوم الخميس يوم عيد الغدير، ويوم الاثنين انطلقنا نحو مشهد لتمضية شهر العسل، كان المطر شديداً ذلك اليوم، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي نسافر فيها إلى مشهد معاً، وعندما ركبنا القطار كنّا مبلّلين من قطرات المطر، وبمعاونة مسؤول الحملة اهتدينا إلى غرفتنا، وعندما اقترب منّا مسؤول الحملة قال: يا سيّد سياهكالي، نريد منك خدمة، جميع أفراد الحملة غيركما هم من كبار السنّ، فإن أمكنك مساعدتهم... وهذا ما حدث، فقد صار حميد اليد اليمنى للجميع، وكان يساعد كلّما دعت الحاجة إلى المساعدة.

---

[9] من المعتاد في الثقافة الإيرانيّة أن يقال ذلك عند كون العمل بغير أجرة وكأنّ الصلوات على محمد وآله هي الأجرة.

وطوال الوقت الذي كنّا فيه في القطار لم نكن نجلس داخل الغرفة كنّا نشاهد مسير القطار خارجاً ونتحدّث، وعندما لم يكن كلام كنّا نصمت، وكنا نرسم حروفنا على الزجاج المغطّى بالبخار، ولكثرة سرورنا ببدء حياتنا المشتركة لم نكن نلتفت إلى شيء من حولنا، وانطوت الطريق بطرفة عين، كان حديثي مع حميد ممتعاً لدرجة جعلني أذهل عن مرور الزمن، كنت متأكّدة أنّ هذه الطريق لا توصل إلى أيّ مكان دون حميد. كان بالي مطمئناً أن وجوده هو وجود أبدي، إنّه دعامة قويّة كالجبل تساندني من ورائي، وعشق أزلي يفتح لي كلّ الأبواب المغلقة بسهولة ويسر، كنت أعتقد أنّ الحبّ لا يشبه قصص الأطفال حيث «لا يصل غراب القصة في النهاية إلى بيته»[١]. وصار شهر العسل بداية حياتنا في ظلّ الإمام الرضا عليه السلام. كان سفراً بسيطاً ولا يُنسى حيث كانت جميع لحظاته واحدة عزيزة عليّ ومقدّسة.

وعندما ترجّلنا من القطار ذهبنا باتجاه الفندق، كان الطقس في مشهد ماطراً، وكان يبدو لي هذا الطقس ذو الطعم الخريفيّ العاشق إلى جوار الإمام الرضا عليه السلام أخّاذاً بمجامع القلب، وضعنا حقيبتنا وأغراضنا داخل الغرفة، ومشينا نحو الحرم، كان يمتلكني شعور غريب، ومن بعيد عندما وقع نظرنا على القبة الذهبيّة للإمام عليه السلام امتلأت عيوننا بالدموع، وعندما وصلنا إلى بركة المياه وضع حميد يده على صدره وألقى السلام: السلام عليك يا عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

وعندما صرنا في صحن الجامع الرضوي لم أستطع أن أسير أكثر، وهناك في الصحن مقابل القبة كنت أبكي فقط، كان الأمر خارجاً عن إرادتي، وكان حميد يحاول أن يهدئ من حالي بمزاحه فقال: حبيبتي لمَ كل هذا

---

[١] مصطلح تختتم به قصص الأطفال...

الحزن؟! من أين جئت بكلّ هذه الدموع؟! إنّ مرّ أحد من هنا سيعتقد أننا لا يمكننا الإنجاب لذا أنت تبكين هكذا وتذرفين الدموع، وما إن سمعت كلامه حتى ابتسمت وحاولت أن أهدأ، ولكن لا أدري لمَ كان قلبي مضطرباً، كنت أشعر أنها المرة الأخيرة التي نأتي فيها إلى مشهد معاً.

كنّا نقضي أكثر الأوقات في الحرم، وكنّا نذهب إلى الفندق للاستراحة فقط ولتناول الطعام، وفي كلّ مرّة كنّا نجد زاوية مريحة في أحد الصحون ونجلس في مقابل القبّة، وفي كلّ مرّة ذهبت فيها للزيارة دعوت من أجل سعادتنا وحسن عاقبتنا، وطلبت من الإمام الرضا عليه السلام أن يبقى حميد إلى جانبي ما دمت على قيد الحياة، طلبت منه أن نبقى معاً حتى نكبر في السنّ ونهرم ونأتي لزيارته كل عام، ولكن لم أبق مع حميد حتّى أيام كبري، ولم يقسم لي أن آتي مرّة أخرى مع حميد إلى الإمام عليه السلام.

وفي اليوم الأخير للسفر لم أكن بحال جيّدة، لقد أصابني صداع غريب، وما إن عدنا من الحرم حتّى قلت لحميد: هذا الألم يؤذيني كثيراً، لو سمحت اذهب إلى الصيدليّة وهات لي دواءً مسكّناً، كنت بحال سيّئة جعلتني لا أنظر إلى اسم الدواء وكنت كل يوم أتناول منه حبّتين، لكنّ حالي كانت تسوء أكثر فأكثر فقلت في نفسي: لا بدّ أن هذا الدواء من الأدوية القديمة وعندما وصلنا إلى قزوين انتبهت إلى حقيقة الأمر، كان العامل في الصيدليّة وبسبب الازدحام قد أعطى حميداً خطأ بدل الدواء المسكّن مضاداً حيويّاً.

❋ ❋ ❋

كان بيتنا يقع في زقاق ينتهي أحد طرفيه إلى شارع نوّاب والآخر إلى شارع هادي آباد، وكانت أكثر بيوته مؤلّفة من طابق أو طابقين، ومن البيوت القديمة؛ فلو مشيت عند الظهر بينها تتصاعد منها رائحة

الطعام الإيراني الأصلي مثل الـ «قورمه سبزى»[11] و الـ «آب گوشت»[12] وتصل إلى سابع بيت في الطرف الآخر، لقد كانت رائحة تذهب بالعقل وكان حميدُ العسكريّ الوحيد في هذا الزقاق، لذا كان يؤكّد علينا أن ننتبه إلى كلامنا وسلوكنا، وكان ينتظر منّا ولأننا عائلة عسكريّ مراقبة كلامنا وسلوكنا ويقول: لا ترفعي صوتك أثناء الكلام فيسمعك أحد من النافذة المطلّة على الزقاق، وعندما تجيبين على الأنترفون تكلّمي بصوت منخفض، وإن غضبت منّي فأوصلي غضبك بالنظرات ولا ترفعي صوتك فيسمعه أحد» وكان صوت التلفاز لا يتجاوز الدرجة الخامسة وكنّا نتحدث في المنزل بهدوء لدرجة أنّ صاحب المنزل كان يعتقد أننا لسنا في المنزل.

وبعد عودتنا كنت أرتّب أغراض سفر مشهد فسمعت صوت السيّدة «كشاورز» على الدرج: أمّي فرزانة هل تأتين للحظة يا ابنتي؟ ومن كلمة أمّي تعجبت ورحت أضحك، كانت قد أحضرت لنا وعاء من الطعام وقالت لي: حبيبتي، لا بدّ أنّك متعبة من الطريق قلت لأعدّ لكم طعام الغداء، شكرتها وعدت إلى البيت بعد أن أخذت الطعام وقلت لحميد: هل سمعت كيف نادتني السيّدة كشاورز؟ طعامنا اليوم جاهز، قال حميد وهو يتذوّق الطعام: أجل سمعت، قالت لك يا أمّي، لقد سررت هذا دليل على محبّة هذه المرأة وزوجها لنا، كنت متحيراً من الذي سيقول لك يا أمي؟ أنت لا زلت طفلة!

وعندما جلسنا إلى السفرة تذكّرت الأرزّ بالدجاج الذي أعددته اليوم الأوّل لحياتنا بعد العرس، وبعد الوجبات المتبقيّة من العرس التي أكلناها حتى لا يكون هناك إسراف، وكنت قلقة من إعداد الطعام، ورغم

---

[11] طعام إيراني يعد من السبانخ واللحم وخضار أخرى.

[12] طعام إيراني يعد من اللحم ونخود والبطاطا.

أني بدأت منذ الخطوبة بالطبخ الحقيقي وبالتعلم شيئاً فشيئاً، ولكني لا زلت أشعر أني لا زلت غير راسخة القدم في هذا المجال، فسألت حميد: لقد كنا ضيوفاً للغداء عند صاحب المنزل وماذا عن العشاء؟ طرق حميد عدّة طرقات على صحنه بالملعقة وقال: أنت تعرفين ما هو الطعام الذي أحبّه، ولكن أخاف أن أتعبك! وهل تعرفين في الواقع أن تعدّي الطعام الذي يحبه زوجك؟ لم أجب وكنت أعرف أنّ اقتراحه هو طبق الفسنجان[١٣]، كان يعشق هذا الطعام من بين كلّ الأطعمة، ويقدّم روحه من أجل «الفسنجان» ولو كنت أفسح له المجال لكان طلب مني أنّ أعده له على الفطور، وكان الطعام الوحيد الذي يأكله مع الخبز ومع الأرز ومع الأرز المعدّ خصوصاً في قعر القدر.

ومن الساعة الثالثة بعد الظهر بدأت بتحضير «الفسنجان»، وكنت أشعر بلذّة منذ بداية تحضيره، لكنّي كنت مضطربة خوفاً من أن لا يكون كما يحبّ حميد، وكنت أشعر بتوتّر جعلني لا أجرؤ على تذوّق طعمه وهو على النار، كان حميد مشغولاً بإصلاح ستائر غرفة النوم، وفي الساعة الثامنة وضعت سفرة الطعام ووضعت وسطها وردة، سكبت الأرزّ في طبق والفسنجان في طبق آخر، وعندما جلس بدأ بالشكر، وكان يتصرّف بشكل يجعلني أجرؤ على أن أخصص وقتاً أكثر للطبخ، ويضاعف من حماسي لهذا العمل، وما إن تذوّق أول لقمة بدأ يمدحني بشكل جعلني أشعر أنّ الطعام قد أعدّ عند طبّاخ ماهر في مطعم نموذجيّ.

[١٣] طعام إيراني يعد من الجوز والدجاج أو اللحم.

كانت حياتنا تمضي بشكل جيّد، وكان كلّ شيء وفق ما نتمنى، وكنا سعداء لكوننا معاً، واليوم الأوّل الذي أراد فيه الذهاب إلى العمل من بعد الزفاف، أيقظته من النوم ليصلّي ولنتناول الفطور معاً، وعادة كان يصل صلاة الليل بصلاة الصبح، كنت قد أعددت طعام الفطور بشكل مرتّب وانتظرته حتى نأكل معاً ثمّ أدعه يذهب، طالت صلاته وتعقيباته بشكل لم يتبقّ وقت لتناول الفطور، ناديته عدّة مرات ورحت إليه حتى يأتي أسرع ويجلس إلى السفرة، ولكنّه كان يترتّث ويبقى جالساً على سجّادته يؤدّي التعقيبات، وعندما وجدته كذلك وشعرت أنّه يمثّل لا أكثر، أخذت مرشّة المياه وبلّلت ثيابه بالماء، ثمّ بدأت بتصويره بواسطة الهاتف، ووصل الأمر إلى أنّه - مع سعيه لإخفاء ضحكاته - أرسلني إلى غرفة الاستقبال وأقفل باب الغرفة عليّ.

وبعد عدّة دقائق، رضي أن يترك سجادته، فجلسنا إلى السفرة وتناولنا الفطور، وفي الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة ارتدى ملابسه حتى يذهب إلى مكان عمله، وقبل ذهابه قرأت له آية الكرسي بصوت لا يسمعه، ثمّ مشيت معه مودّعة إلى باب الشرفة وقلت: عزيزي حميد عندما تصل رنّ الهاتف رنة واحدة أو ابعث برسالة حتى أطمئنّ إلى أنّك وصلت بسلامة. ومن اللحظة التي مشى فيها حتى الوصول إلى محلّ عمله أي في السابعة تقريباً كنت أصلّي على محمد وآل محمد، وعند الساعة التاسعة تقريباً اتّصل، وبعد أن اطمأنّ عليّ قال ممازحاً: يكفي نوم، قومي وأعدّي لي الغداء.

وهذه القصة تكررت في الأيّام التالية، فكنت أعدّ الفطور كلّ يوم بعد الصلاة وأنتظره حتّى يأتي ويجلس إلى السفرة، وكنّا نتناول بعض اللقيمات، وبعد توديعي له يذهب إلى عمله، وعند الساعة الثانية والنصف كنت أنتظر صوت جرس عودة حميد، كنت أعدّ كلّ المائدة

وما إن يصل حتى أسكب الطعام، وغالباً كان يأتي إلى المنزل في الثانية والنصف، وبعض الأيام كان يتأخر قليلاً، وربّما بعد الساعة الرابعة، وعندما كان يدقّ على الأنترفون كنت أذهب إلى السلالم لأنتظره وعندما أراه كنت أشعر بسعادة.

وفي اليوم الثالث، وكما جرت العادة اتّصل حميد عند الساعة التاسعة وطلب مني أن أعدّ له نوعاً من الطعام، كنت مشغولة بإعداد الموادّ الأوليّة للكباب[١٤] المشوي، وضعت جميع اللوازم على السفرة وانتظرت حتى يأتي حميد لنضع اللحم على الأسياخ، وعندما كان حميد يضعها كنت أشوي الكباب على الغاز، وكنت منهمكة بتقليب الأسياخ على النار حيث كان حميد يشعل البخور في طرف آخر من الغاز، وعندما انتهيت من الكباب كانت رائحة البخور تملأ البيت فقلت: لقد أحدث هذا الكباب بخوراً كافياً لا تزد الأمر سوءاً فأجابني: عندما تتصاعد رائحة الطعام إلى الخارج ويشتهيه أحد ما نكون نحن المقصّرون، لقد أشعلت البخور حتى يذهب برائحة الكباب.

❋ ❋ ❋

كان حميد جالساً على الأريكة ويطالع كتاب «الدفاع عن التشيع» كان يضع يده على ذقنه ويغرق في التفكير، كان غارقاً في عالمه لدرجة أنه لم ينتبه للعصير الذي أعددته له، عندما ناديته باسمه لمرّتين أو ثلاث انتبه، ثم التفت إليّ وقال: كلّما فكّرت وجدت أنّ عمرنا أقصر من أن نمضيه بالبطالة، تعالي لنضع برنامجاً حتى تختلف حياتنا الزوجيّة عن حياة العزوبيّة، واقترح أن نقرأ في الصباح وفي المساء صفحة من القرآن،

---

١٤ طعام إيراني شهير.

وصار هذا دأبنا اليومي، وبعد صلاة الصبح ودعاء العهد كان حميد يقرأ صفحة وأنا أقرأ صفحة أخرى، وكنا ملتزمين بقراءة الآيات مع معانيها. كنا نجلس إلى جنب بعضنا، أحدنا يقرأ بصوت عال والآخر يستمع.

ولما سمعت اقتراحه تذكرت أعجب أداة في الأغراض التي جهّزتها للبيت وهي مسجلة الصوت، فعندما كنت في بيتنا كان عندنا مسجلة قديمة كنت قد حفظت بواسطتها خمسة أجزاء من القرآن، واشترت لي أمي من أغراض تجهيز المنزل مسجلة جديدة لأتابع الحفظ، وكان كلّ من رآها من أصدقائنا ومعارفنا يسألون: وهل في جهاز البيت في هذه الأيام مسجلّة صوت أيضاً؟[١٥]

وبعد الزواج لم يكن لديّ فرصة للالتحاق بدورة لحفظ القرآن، ولكن كنت أحبّ أن أكمل الحفظ، وفي الأوقات التي يكون فيها حميد خارجاً وأثناء الطبخ أو تكنيس المنزل كنت أشغّل مسجّلة الصوت وأردّد مع الأستاذ «پرهيزكار» الآيات عبر الكاسيت، وكنت أسمعها مرّة ثانية وأنتبه لأخطائي، وكنت أراجع محفوظاتي واستطعت مع الأيام أن أصبح حافظة للقرآن كلّه.

وكان حفظي للقرآن بالنسبة لحميد شيئاً مهمًّا، وكان يشجّعني لإكمال الحفظ ويسألني: هل راجعت القرآن؟ أين وصلت هذا الأسبوع في الحفظ؟ أنا لا أرضى أن تمنعك أعمال المنزل والطبخ وأمثال هذه الأعمال عن التراجع في الحفظ. وشيئاً فشيئاً بدأ حميد بحفظ القرآن، وكانت السورة الأولى التي حفظها هي سورة الجمعة، كنا نسأل ونجيب بعضنا، وكنا نحاول في الأوقات التي نتواجد فيها في المنزل أن نراجع الآيات، وفي مدّة قليلة استطاع حميد أن يحفظ خمسة أجزاء.

---

١٥ من العادات الإيرانيّة أن يشتري أهل الفتاة لها كامل ما تحتاجه في تجهيز بيتها.

وبعد مرور شهر على زواجنا دعانا حسن للعشاء، وعندما كنا نحضّر أنفسنا للذهاب، وقع نظري على حميد وكان كالعادة يحضّر نفسه بصبر وتمهّل، وكلّما أردنا أن نخرج كانت لنا قصة، كان يطيل الوقت في تحضير نفسه، كان معتاداً على التقدّم مرحلة بمرحلة، في البداية مشّط ذقنه لعدّة مرات، وأخذ وقتاً في ارتداء جواربه، وغيّرها عدّة مرات لتتلائم مع لون قميصه وبنطاله اللذين ارتداهما، ثمّ أفرغ قارورة من العطر على ملابسه.

حوّلت الطرف عنه وجلست على أريكة، كنت مستعدّة وجاهزة وأنتظر حتّى يجهز حميد وبعد مدة سألني: هل أعجبك؟ تنشقي، هل تحبّين رائحة العطر هذه؟ فقلت: لقد قتلتنا بهذا الترتيب يا سيّد الأناقة! دعنا نذهب فقد تأخرنا! ولكن مسلسل تحضير حميد لنفسه كان له تتمّة، لقد بدّل معطفه لعدّة مرّات، نقل قميصه إلى مكان آخر وعندما أراد أن يلبس بنطاله نفضه عدّة مرات في الهواء، وبعمله هذا ارتفع صوتي قائلة: حميد لا تثر الغبار، ارتدي ملابسك لنذهب، ولقد حدث لمرّات عديدة أن جهّزت نفسي وجلست على السلالم أنتظره، وكنت أقول عند الباب: أسرع يا حميد، أسرع يا رجل.

وفي النهاية قررنا أنه في كلّ مرّة نخرج فيها يبدأ حميد بتجهيز نفسه قبل نصف ساعة، وبعد نصف ساعة عندما نريد أن نركب الدراجة ترى أنّ حميداً قد نسي شيئاً مرّة المفتاح وأخرى قبّعة الأمان، مرّة الأوراق، وعندما يعود لا يكتفي، ينظر مرّة أخرى في المرآة ويضع لمسة أخرى على هندامه.

وبعد العشاء أعطتنا عمّتي ألف حبّة من الجوز الطازج حتّى نعدّ «الفسنجان» وعندما وصلنا إلى المنزل فرشنا أرض المطبخ حتى نكسرها بعد أن تجفّ وأكل حميد أكثر من مئة منها، كان يجلس في

غرفة الاستقبال أمام شاشة التلفاز يرش عليها الملح ويأكلها.
ويوم الثلاثاء كان عندنا برنامج في الجامعة، ومنذ الصباح وبسبب المؤتمر كنت واقفة طوال الوقت على قدمي، اتصل بي حميد عند الساعة الثانية عشرة وقال أنه بسبب بعض الأعمال المصرفية أخذ إجازة وذهب الآن إلى المنزل، وسألني إن كنت سآتي إلى البيت لتناول الغداء فقلت: حبيبي حميد اليوم عندنا مؤتمر وقد أتأخر، إن أكلت طعامك فاسترح قليلاً.

وعند الغروب وفي الساعة الخامسة وصلت إلى البيت، وكالعادة في مثل هكذا مواقف عندما كنت آتي إلى البيت بعده كان يأتي إلى الباب لاستقبالي، وعندما دخلت من باب غرفة الاستقبال قلت لحميد: لكثرة ما وقفت على قدميّ وتعبت لا يمكنني أن أقف بعد لدقيقة واحدة. وهناك وعلى الباب سقطت على الأرض، وما إن استعدت أنفاسي قليلاً حتى قلت لحميد: عذراً لأنّك أتيت اليوم قبلي فقد كان عندي برنامج ولم أستطع العودة، لا بد أنّك مللت وحدك في المنزل دون عمل، فأجابني: لم أكن دون عمل، ادخلي قليلاً إلى المطبخ وستعلمين، اعتقدت أنّه أعدّ الغداء أو منذ ذلك الوقت فكّر بشيء للعشاء، وعندما دخلت إلى المطبخ زال عنّي كلّ تعب، كان بطول بال قد كسّر حبات الجوز وبقيت عدّة حبّات منها فقط. وعندما يكون بمزاج جيّد كان يقوم بأعمال تتطلّب جهداً. قلت له: حبيبي حميد، جزاك الله خيراً، بهذه الحال من الدرس والجامعة كنت محتارة في أمر كلّ هذا الجوز، قال حميد وهو يحرّك الجوز داخل الصينيّة شمالاً ويميناً: انظري كم لدينا من الجوز، هذا يعني أنك تستطعين أن تطبخي لي «الفسنجان» كلّ يوم.

وفي شهر «دي»[16] من عام ٩٢ تغيّب حميد عن البيت لمدّة عشرين يوماً، وذهب في مهمّة إلى خارج قزوين، وكانت امتحاناتي قد اقتربت، الشوق وفراق حميد لم يتركاني أركّز في درسي وكتابي، وفي الأيام العشرة الأولى ذهبت إلى منزل أبي، وغروب اليوم الحادي عشر مشيت نحو بيتي، أحببت أن أتفقّد بيتنا وحياتنا، كما كنت أظنّ أنّ رؤية بيتنا المشترك ربّما تقلّل من لوعة الاشتياق.

وعندما دخلت إلى المنزل كان كلّ شيء في مكانه، بالتأكيد مع الغبار والتراب الذي استقرّ فوق الأثاث، كنت أعرف أن حميد سيساعدني عندما يعود حتى ننظّف البيت، كان البيت بدون حميد صامتاً، كنت أسقي إناء الورد على الجدار الفاصل بين المطبخ وغرفة الاستقبال حتى كدت أموت لرؤية حرباء إلى جانب حائط المطبخ، ركضت بسرعة على الأريكة ولم أكن أعلم ماذا أفعل، كان للحرباء عينان ذات نظرات حادة، وكانت تنظر إليّ، لم تتحرّك من مكانها، أردت أن أنادي السيّدة كشاورز، ولكن قلت في نفسي لا يحسن أن أؤذي المرأة العجوز بلا سبب، يجب أن أبعد شرّ هذه الحرباء العنيدة من بيتنا وحياتنا، ابتلعت خوفي، نزلت من على الأريكة وأخذت فردة من النعل وبألف مشقة قتلت الحرباء، وبعدها بكيت كثيراً، وربّما كان بكائي بسبب وحدتي، كانت هذه الأشياء تؤلمني، صعوبة الابتعاد عن حميد والمهمّات العسكرية الكثيرة التي كان يذهب إليها، وتحمّل أشياء من هذا القبيل إضافة إليها فقلت في نفسي: لقد صرت رجلاً في هذه الحياة.

ومرّت هذه الأيام العشرون بكلّ صعوباتها، ومنذ الصباح كتبت لائحة بالأغراض التي يحتاجها المنزل، وبعد الشراء أوصلت كلّ شيء بصعوبة

[16] الشهر العاشر من الشهور الإيرانية.

إلى المنزل، وأعددت «الفسنجان» للغداء، وعادة بعد كل خدمة يذهب إليها كنت أستقبله بطعام يحبّه، وبسبب جهاز التقويم الذي كان يضعه لأسنانه صارت معدته حساسة، كان لا يستطيع أن يأكل الكثير من الطعام الحارّ، ومع أنّي كنت أحبّ الطعام الحار ولكن من أجل حميد اعتدت على إعداد أطباق غير حارة.

وأوّل شيء كان يفعله عند عودته إلى المنزل سواء من الخدمات العسكريّة أو الحراسة الليليّة هو أن يحمل في يده وردة، كان يشتري دائماً وروداً طبيعيّة، وقد ازداد عدد الورود التي اشتراها كثيراً فقلت له: حبيبي أنت وردة، وأشكر لك محبّتك، ولكن حاول أن تشتري بدلاً عن الورد الطبيعي آخر اصطناعياً يمكننا الاحتفاظ به؛ لأننا هنا مستأجرون وليس لدينا مكان كبير يمكننا أن نجفف فيه كل هذه الورود.

وبعد أن غسل يديه ووجهه وعندما شاهد المائدة أول ما فعله كالعادة التقط لها صورة وبدا لسانه يلهج بالشكر، جلس بملابسه إلى السفرة وبدأ يأكل بشهيّة، وأثناء تناول الطعام وقع نظره على زاوية المطبخ، شاهد سلة بلاستسكية تعود للفاكهة قد لففتها بالنايلون فسألني: لمَ هذه السلة؟ أعددت عشاً للحمام؟ فقلت لا، لأنه في الشتاء هناك ثلوج ومطر أعددت هذه لنضعها في جانب الشرفة ونضع النعال تحتها حتى لا تتبلّل. ابتسم وقال: لا أعتقد أنه بإمكاننا الآن أن تشتري منزلاً، إن شاء الله عندما يحين دورنا سننتقل إلى البيوت الخاصة بموظفي الدولة، وهناك لكي نستعمل الحمّام لن نكون مجبرين أن نتحمّل برودة الشتاء، فقلت لحميد: مع أنّ هذا البيت صغير وقديم، وأحياناً وعندما تكون غائباً تظهر فيه حرباء ولكنّي أحبّه، فيه صفاء، وليس بلا روح، والحاج كشاورز وزوجته يتعاملون معنا دائماً بمحبّة، عندما كنت غائباً تلك الأيام سألوا عدّة مرات أين ابننا، هل تتواصلون معه؟

قال حميد: أجل، إنّهم محبّون بالفعل، يعاملوننا كابنهم وابنتهم ثمّ سأل: حقاً هل أعطيتهم بدل الإيجار عندما كنت غائباً؟ فقلت: حسب عقد الإيجار نعطيهم في العاشر من الشهر. قال حميد: لأني أحب أن نحسن الحساب نعطيهم قبل عدّة أيام أفضل، وانتبهي لفاتورة الماء والكهرباء والغاز، لنحسبها بدقة وندفع ما علينا في الوقت.

وبعد الغداء ارتاح قليلاً وبعد أن استيقظ قال: في هذه المدّة التي لم أكن فيها اشتقت لمزار الشهداء فقلت: إن لم تكن متعبًا قم لنذهب، فأنا لم يحدث أن ذهبت في هذه المدّة، لبسنا ثيابنا ومشينا، ولأنّ الطقس كان بارداً لم نركب الدرّاجة، وعندما وصلنا وعند مزار الشهيد «حسين پور» كانت هناك عدّة نساء، لم يقترب حميد فقلت: نحن لا نعرف من هنّ تلك النسوة، تعال لنقترب ونقرأ الفاتحة كالباقين فقال: لا، ربما هؤلاء من أفراد عائلة الشهيد ويردن أن يختلين به عدّة دقائق وإذا اقتربنا منهم قد نزعجهم، انوي من هنا على باب المدخل والشهيد يرانا، وليس هناك حاجة لنقترب من مزاره أو نضع يدنا على رخام القبر، في ذلك الوقت لم أفهم كلام حميد، ولكن فيما بعد فهمت معنى الخلوة إلى جانب مزار الشهداء.

ومن مزار الشهداء ذهبنا إلى بيت عمّتي، شوق الأمّ وقلقها لا نهاية له أبداً، وكالعادة عندما رأى حميد أمّه قبّلها في جبينها، وبإصرار من عمّتي بقينا لتناول العشاء وما إن جمعنا سفرة الطعام حتّى كانت القناة الأولى تبثّ خطاباً للسيّد القائد الخامنئي بمناسبة التاسع عشر من شهر «دي» وقد جاء أهالي مدينة قم للقائه.

جلس حميد بسرعة أمام شاشة التلفاز وراح يستمع إلى الخطاب، ووالد حميد الذي كان من الجنود الذين شاركوا في الحرب استمع كحميد للخطاب من أوله إلى آخره، وكان حميد يستمع لخطابات السيّد القائد

كلّها، وما تخلّف عنه كان ينزّله عن الانترنت ويسجّل النقاط المهمّة. وكانت عادته هذه في كلّ الخطابات، وأينما جلس ليستمع كان يحمل دفتراً صغيراً وقلماً، وعندما لم يكن الدفتر معه كان يستعمل أي ورقة صغيرة ولو كانت فاتورة شراء، وفيما بعد كان يستفيد من موضوعاتها في دروسه في حلقات الصالحين، وفي تجمّع رفاقه بعد الهينة أو يتحدّث به مع أصدقائه العسكريّين.

وفي الأيّام التي كنت أداوم فيها في الجامعة، كان برنامجي أن أبدأ بإعداد الغداء من الليلة السابقة، كنت أعدّ المرق في الليل، والأرز منذ أول الصباح، وهكذا كان غداؤنا جاهزاً لكلّ يوم، ولم أكن أقول لأنّي عندي جامعة لم أستطع أن أعدّ الطعام، وكان الغداء أو العشاء من المرق دائماً، فإن أعددت المعكرونة أو البطاطس عند الظهر فكنت أعدّ المرق للعشاء أو بالعكس، وإن كنت أنا الذي أصل أولاً كنت أعيد تسخين الطعام وإذا كان حميد هو الذي يصل أولاً كان يتولّى هو إعادة التسخين، ولكن كان الواحد منّا ينتظر على الأقل ساعة أو ساعتين حتى نتمكّن من تناول الطعام معاً، وأحيانا عندما أبقى لوقت طويل كان حميد ينتظر ساعتين أو ثلاث دون أن يأكل شيئاً حتى أصل ونأكل معاً.

وفي أيّام الاثنين من كلّ أسبوع كان برنامجي الجامعيّ مليئاً في الصباح وبعد الظهر، وكنت أعود إلى البيت لتناول الطعام ثمّ أعود إلى الجامعة. وفي أحد أيام الاثنين، عندما انتهت المحاضرة عند الساعة الواحدة ركبت سيّارة أجرة حتّى أعود إلى البيت بسرعة، سخّنت الطعام وأعددت المائدة وحضّرت كلّ شيء حتّى نأكل باكراً وبمجرّد عودة حميد، وفي الساعة الثالثة أكون في الجامعة، فتأخّر حميد كثيراً، وعندما اتصلت به

أخبرني أنه سيعود متأخراً بعض الشيء، فكان لا سبيل سوى أن أجلس وحدي على السفرة وتناولت عدّة لقيمات دون رغبة منّي حتى أذهب بسرعة وأصل إلى قاعة الدرس.

وما إن خرجت من باب المنزل حتى عاد حميد، كانت يداه وملابسه ملطخة بالدم، ولما إن رأيته بهذه الحال تقطّع قلبي، فقال بسرعة: لا تخافي لم يحدث شيء، ولأني لم أرَ بعيني لم أصدَق، فقلت: لماذا عدتَ بهذه الحال لقد جعلت قلبي ينسج ألف قصة؟ فقال: كنت عائداً بالدراجة من مكان عملي وإذا بمجنّد قد سقط أمامي من سيّارة نقل، كانت جروحه سطحيّة ولكنّ المسكين كان خائفاً جدًّا فحملته ووضعته في زاوية وبقيت قربه أخفّف عنه حتى تصل سيّارة الإسعاف. تنفّست بعمق وقلت: الحمد لله! لم يحدث شيء، وماذا حصل لذلك الجندي المسكين؟ لا بد أنّ أهله قلقون على حاله! فقال حميد: الحمد لله لقد مرّت بسلام، أخذوه إلى المستوصف، وإن كان هناك من داع فربّما يطلبون لقدميه ويديه صوراً شعاعيّة. فقلت: ولكن في البداية أصابني هلع، ظننت لا سمح الله أنك أنت قد سقطت عن الدراجة أرضاً، الغداء جاهز وأنا علي الآن أن أذهب لأصل إلى الصفّ فقال: انتظري حتى أبدّل ملابسي وأوصلك فقلت: ولكن أنت لم تتناول طعامك فقال: عندما أعود آكل لأنّ عليّ الذهاب فيما بعد إلى النادي الرياضي. جهّز نفسه بسرعة ومشينا، وعندما وصلنا إلى أول الشارع أشار بيده إلى محلّ وقال: حبيبتي، عليّ أن أدفع لهذا المحل مبلغ خمسمئة تومان أجرة نفخ الدولاب وعندما جئت البارحة لم يكن معي خمسمئة لأحاسبه. والآن هو مغلق تذكّري حتماً عندما نمرّ مرّة ثانية حتى أعطيه ماله. فقلت: حاضر، سأكتب هذا على ورقة وأضعها إلى جانب تلك التي كتبتها وندفعهما معاً. وكان دائماً، يهتمّ بالمال القليل الذي

يتبقّى للبائعين، وفي الأيام التي لا أكون فيها، كان يكتب قيمة هذا المال القليل المتبقّي ويلصقها على شاشة الحاسوب فإن رحل عن الدنيا أكون على علم وأدفع ما بقي عليه من مال قليل. وقريباً من الجامعة قلت لحميد: وماذا عن الرحلة إلى الجنوب هذا العام هل سنقوم بها؟ الطلاب بدأوا ينظّمون أمورهم، وأنا قلت لهم سآتي برفقة زوجي فأجابني: لنرى الشهداء ماذا يريدون، ولأنك العام الماضي ذهبت وحدك سأحاول أن نذهب معاً بطريقة ما.

وفي آخر «اسفند»[17] عام ٩٢ وبرفقة حملة كليّة الطب انطلقنا نحو الجنوب، وكان حميد مسؤول الباص والرجل الوحيد الذي كان يرافقنا وكان من الواضح أنّ حضوره في جمع كهذا صعب عليه، ولكن لأني استطعت أن نكون معاً أثناء زيارة الشهداء كنت سعيدة. وحوالي الساعة العاشرة ترجّلنا من الباص، فأخذ حميد أغراضه وتوجّه نحو سكن الرجال، وكان عليّ أن أعدّ السكن للطلاب الذين معنا في الباص. وحوالي الساعة الثانية عشرة وجدت أنّ حميداً اتصل بي دون أن أنتبه اتّصلت به عدّة مرّات فلم يجب، شعرت بالقلق، وفي الصباح عندما خرجت من السكن لم أر حميداً، إلى أن اتصل بي بعد ساعة وقال لقد اتصلت بك البارحة ولم تجيبي، ولقد جئت إلى معراج الشهداء وبقيت فيه الليلة الماضية، ولأني أعلم أنّ برنامجكم اليوم أن تأتوا إلى معراج الشهداء لم أعد إلى المخيّم سأبقى أنتظرك هنا. وعندما وصلنا إلى معراج الشهداء كان حميد ينتظرنا عند باب الدخول، لقد حقّق ما يريده وهو البقاء ليلة مع الشهداء، وكان واضحاً أنه بقي طوال الليل مستيقظاً وقد اختلى بالشهداء خلوة عظيمة.

---

١٧ الشهر الثاني عشر من الشهور الإيرانية.

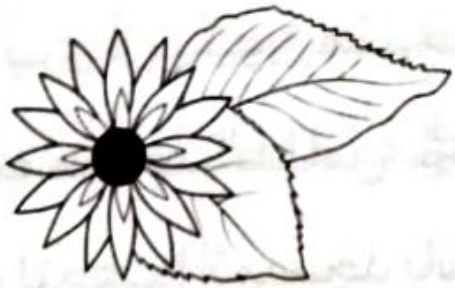

الفصل السادس

لقد جعلتنا نصاب بالجنون ونصاب بالوهن

لحظة قدوم العام ٩٣[1] كنّا في منزل والدي، وبقينا لتناول العشاء هناك، وفي عيد النوروز الأول لزواجنا اشترى لي حميد وردة مع زجاجة عطر وبقيت لديّ لوقت طويل، ولم أسمح لنفسي باستهلاكها، وكان عيد ٩٣ مصادفاً للأيام الفاطميّة، ورعاية لحرمة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام لم نشتر المكسّرات ولا الحلوى، وكنا نقدّم للضيوف الشاي والفاكهة فقط، ولأنّنا الأصغر سنّاً كان علينا أن نذهب لنعايد بقيّة العائلة أولاً، وكوننا جديدا عهد بالزواج كان الجميع يهتمّ بنا بشكل خاص ويقدّمون لنا الهدايا. وأكثر الأماكن التي ذهبنا إليها بمناسبة العيد من بيوت أقاربنا ومعارفنا صرنا سبباً للاحتفال بنا. ومن اليوم الثالث للعيد

---

١ الموافق لـ ٢١ آذار ٢٠١٤ م؛ ١٩ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ.

بدأنا أنا وحميد نتلقى الاتصالات، كان أقاربنا يتّصلون ويسألون عن عنوان منزلنا من أجل معايدتنا، وكان حميد قبل مدّة يتابع مشروع بناء مسجد في منطقة «پونك» ويقوم بأعمال البناء، ومن اليوم الأول صار المشرف على بناء هذا المسجد، وقد جمع الإمضاءات من أهالي المنطقة ومعارفه ليقدّم طلباً إلى المسؤولين لإعطاء رخصة للبناء. وحصل اختلاف حول اختيار اسم للمسجد بين أهالي المنطقة وبين حميد ورفاقه، كان البعض يرى أن يكون مسجد أمير المؤمنين عليه السلام، وآخرون كانوا يقولون لنسمّه مسجد العبّاس عليه السلام، وكان رأي حميد أنه لو كان العباس حاضراً لقال لتجعلوا المسجد باسم أبيه، وفي النهاية أطلقوا عليه اسم أمير المؤمنين عليه السلام، وكلّ أيام عطلة العيد كان حميد يذهب للمساعدة في بناء المسجد ولم يكن يبقى في المنزل، كان يريد أن يستفيد من العطلة حتى يتقدّم العمل في المسجد، لذا لم نتمكّن من الذهاب إلى أيّ مكان سوى عدّة أفراد من أقاربنا المقرّبين. وفي أحد أيّام العطلة ذهبنا إلى سنبل آباد لزيارة بعض الأقارب الذين يقيمون في القرية، كان حميد رفيقاً جيّداً في السفر، كان يحاول أن يشعرني بتمضية وقت ممتع، ذهبنا معاً إلى أعلى القمة جنب النهر والتقطنا الكثير من الصور، وفي كلّ مكان على الجبل كانت تكثر فيه المنحدرات كان يمسك يدي بقوّة، وفي مثل أوقات كهذه كنت أشعر بوجوده بكلّ وجودي.

وحتّى اليوم الأخير من العطلة كان حميد مشغولاً بأعمال المسجد، وكان مقرراً أن نخرج في نزهة مع بنات عمّتي وأبنائها جميعاً، ولكن حميداً لم يستطع مرافقتنا، وكان غيابه صار يبدو شيئاً فشيئاً غريباً بالنسبة لي، عندما أراد الذهاب قال لي: إن استطعت أن آتي إليكم كان به، وإن لم أستطع، أحضري من جنب النهر سبعة أحجار كي نلعب

«يه قل دو قل»[٢] وما إن قال هذا حميد حتى قلت له: لقد ذكرتني بأيام ماضية، كم كانت أياماً وليالي سعيدة عندما كنا نجتمع أنا وأخواتك ونبقى حتى الصباح نتحدّث ونضحك، نلعب «يه قل دو قل» وعندما تكون جدّتي بمزاج جيّد كانت تقرأ لنا الشعر أو تحكي لنا غيباً قصصاً قديمة كقصص «الأمير ارسلان» أو «عزيز ونگار». ضحك حميد وقال: والآن أيضاً هيأي وقتاً حتى تلعبي «يه قل دو قل» حتى الصباح ولكن سألعب بمهارة أكثر ممّا تعرفين.

وفي الحقيقة كان يجيد هذه اللعبة جيّداً وأنا كنت أعرف من قبل أنّني لاعبة خاسرة.

وكان يعمل في الشهر مرّتين كحارس ليليّ ولا يأتي إلى المنزل، ولكي لا أبقى وحدي كنت أذهب إلى منزل أبي، وبعد زواجنا بقيت لليلة واحدة في البيت وحدي، كان حميد يتّصل كلّ ربع ساعة ليتفقّدني، وعندما أتى في الصباح كان منزعجاً جدًّا،وقال: لماذا بقيتي وحدك؟! لقد بقيت حتّى الصباح أفكّر بك قد تكونين شعرتِ بالخوف، أو ربّما يقع لك أيّ مكروه، ولم أركّز أبداً في العمل.

وفي اليوم الثاني لآخر أيّام العطلة كان لدى حميد دوام ليليّ، ولأنّ الطقس قد تحسّن فقد ذهب بدرّاجته الناريّة، وبعد تناول الفطور ودّعته وكالعادة سحب الدرّاجة سحباً بيده حتّى آخر الزقاق، وعندما وصل إلى الشارع شغّل محرّكها، كان يراعي حقوق الجيران كثيراً، ولم يكن يحبّ أن يزعج بصوت الدراجة أحد من الجيران، وفي الليالي التي يعود فيها من الهيئة متأخراً كان يطفيء محرك الدراجة من أوّل الزقاق. وكما في كلّ الأيام التي يكون فيها حميد حارساً ليليًّا، كان شراء

احتياجات المنزل بعهدتي، وبعد أن أنهيت أعمال المنزل جهزت لائحة بالأشياء التي نحتاجها وخرجت من المنزل وبدأت من شراء الغير وصولاً إلى الفاكهة والخضار، ومع أنّ الشراء ونقل كلّ هذه الأشياء كان صعباً عليّ بدون سيّارة، ولم يكن لي قبل زواجنا أيّة تجربة في هذا المجال، ولكن لم أكن أحبّ أن يأتي حميد متعباً بعد الخدمة ويكون عندنا أي شيء ناقص فأضطر إلى إرساله لإحضاره.

وبعد أن أنهيت الشراء وبدلاً من أن أذهب إلى منزل أبي جاءت أختي فاطمة إلى بيتنا، وعادة عندما أكون أنا وحميد في البيت نطالع بعض الكتب، وكان السكوت والهدوء الحاكم على فضاء المنزل عجيباً وغريباً بالنسبة لأختي، وكانت تملّ بسرعة، وبصوت يظهر أن تحمّلها أوشك على الانتهاء اقترحت: تعالي لنشاهد التلفاز لقد مللت. فقلت: التلفاز عندنا مغلق تقريباً، سوى أن أجلس مع حميد لنشاهد أخباراً أو برنامج للأطفال! وكانت هذه هي الحقيقة، وكنّا نادراً ما نتابع برنامجاً على التلفاز، إلا إذا شاهدنا نشرة الأخبار أو نضعها على قناة الأطفال حتّى نستمع إلى ترانيم الأطفال قبل النوم. وكان حميد حسب فتوى السيّد القائد الخامنئي يعتقد أنّه ليس كلّ برنامج أو موسيقى يبثّ على التلفاز جائز شرعاً على وجه الدقة، لذا قرّرنا أن لا نترك أعيننا وآذاننا تشاهد وتسمع كلّ ما عليه.

وبعد أن انتهت تقريباً زيارات العيد قرّرنا أنا وحميد أن ندعوَ أقاربنا لتناول الغداء أو العشاء، كنّا نحب أن يلتقوا جميعهم، ولأنّ بيتنا كان صغيراً جداً اضطررنا أن ندعوهم بالتدريج، كان المكان ضيقاً لدرجة لم نستطع أن ندعو إخوة حميد معاً.

كان حميد يحبّ أن يكون عندنا ضيوف كلّ ليلة، وأن نذهب لزيارة الجميع، وكان يقول: الضيف حبيب الله، وهذه الزيارات توجب المحبة،

بيتنا مفتوح للجميع. وكان هذا الاهتمام بالضيافة قد وصل إلى حدّ أنه كان لا يخلو بيتنا من الضيوف لمدّة يومين أو ثلاثة أيّام من الأسبوع إما على العشاء أو على الغداء، ولأنّي كنت أذهب إلى الجامعة وهذا الكم من العمل كان فوق طاقتي كنت أفضّل أن يأتينا الضيوف مرّة كلّ أسبوعين أو مرّة في الأسبوع، ولكن حصل لمرّات أن اتّصل بي حميد وقال: هذه الليلة عندنا ضيوف، فكنت أقول: عزيزي حميد إذن اغسل الفاكهة وضع الشاي على النار حتّى أصل وأعد المرق.

وأحياناً كنت أبقى في الجامعة حتّى الغروب، ويصل الضيوف قبلي إلى المنزل، ويكون الوقت قليلاً إلى درجة أني لا أتمكّن من تبديل ملابس الجامعة، وبعد التسليم على الضيوف كنت أتوجّه بسرعة إلى المطبخ، وأبدأ بإعداد الطعام، ولا أتمكّن حتى من ارتداء شادور المنزل، وأقترب من نار الغاز بالـ «شادور» الأسود، وعندما كان حميد يرى هذا الوضع كان يقول: حبيبتي أشكرك حقاً، قبل الزواج كنت أظن أنك لا تعرفين سوى الدرس، وعندما تصبحين في المنزل ستبدأين بتعلّم الطبخ والاهتمام بالمنزل، ولكنّك تنجزين جميع الأعمال. وكان إذا أنجزت عملاً، أو اهتممت بالضيوف يشكرني بكلّ تأكيد، وكان هذا داعياً لأن يزول التعب عنّي.

وعندما كنت أهيّئ للضيوف ما يحتاجون، كنت أغسل الأواني، وكان حميد يكنس الأرض، أو يأتي لتجفيف الصحون، وغالباً لم يكن يقبل أن أغسل الأواني وحدي فكنت أقول: حميد أنت ستذهب غداً في الصباح إلى العمل اذهب واسترح وأنا أتولّى كلّ شيء. كان يأخذ يدي ويجلسني على الكرسي ويقول: إما أن نغسل الصحون معاً أو اجلسي أنت وأنا أغسلها. أنت أمانة عندي، لا أحبّ من أجل غسل الصحون أن تتلف يداك. وعندما سمعت جملة «أنت أمانة عندي» هذه تذكّرت أول أيام

زواجنا حيث كنت جالسة على الكنبة وقلت لحميد: هناك رواية عن السيّدة الزهراء عليها السلام تقول فيها: للمرأة ثلاث بيوت، الأول هو منزل الأب، ثم منزل الزوج، ثم منزل القبر، ولقد وفقت في المنزلين الأولين، أتمنى في المنزل الثالث أن يكون وجهي أبيض. أجاب حميد: أتمنّى أن أكون رفيقاً جيداً لك في البيت الثاني، ونصل إلى المنزل الثالث بحسن عاقبة.

كان الدخول في عام ٩٣ عجيباً بالنسبة لي، تغيّرت أحوال حميد، صارت سجداته في الصلاة طويلة أكثر، وقبل هذا لم يكن قد بكى أمامي ولكن منذ شهر فروردين كنت أشاهد أحياناً دموعه، كان يذهب إلى غرفة مظلمة ويبكي بصمت، وعندما كان يصلّي صلاة الليل كان يقول إلهي العفو بحرقة، وعندما كنت أنظر إلى وجهه كنت أشعر بطاقة إيجابية وتغمرني السكينة، كانت عيناه جميلتين ولكن من نوع آخر، كنت أقول في نفسي يحتمل لأني أحبّ حميداً كثيراً أراه هكذا، ولكن لم يكن هذا رأيي وحدي، كان أصدقاؤه يمزحون ويقولون: حميد نورك يتصاعد. هذا الإحساس لم يكن دون سبب، لقد صار حميد سماوياً أكثر، ولعلّ هذا هو السبب الذي جعلنا نكون خدّاماً للشهداء في مدّة زمنيّة تقلّ عن شهر، حيث اتّصل كالعادة بالحاجّ صباغيان واتفق معه. وفي السابع عشر من شهر فروردين انطلقنا إلى «دو كوهه»[٣]، وعندما دخلنا باب الثكنة شعرنا وكأن الأبنية كانت تقول لنا أهلاً وسهلاً، الأبنية التي تذوقت الطعم الجميل لمخاطبة الشهداء وهي الآن تستضيف زائري الشهداء. الصور الكبيرة التي على جدارن الأبنية كان عندها من الكلام

٣ اسم إحدى الجبهات في الحرب المفروضة على إيران.

زواجنا حيث كنت جالسة على الكنبة وقلت لحميد: هناك رواية عن السيّدة الزهراء عليها السلام تقول فيها: للمرأة ثلاث بيوت، الأول هو منزل الأب، ثم منزل الزوج، ثم منزل القبر، ولقد وفقت في المنزلين الأولين، أتمنى في المنزل الثالث أن يكون وجهي أبيض. أجاب حميد: أتمنّى أن أكون رفيقاً جيداً لك في البيت الثاني، ونصل إلى المنزل الثالث بحسن عاقبة.

كان الدخول في عام ٩٣ عجيباً بالنسبة لي، تغيّرت أحوال حميد، صارت سجداته في الصلاة طويلة أكثر، وقبل هذا لم يكن قد بكى أمامي ولكن منذ شهر فروردين كنت أشاهد أحياناً دموعه، كان يذهب إلى غرفة مظلمة ويبكي بصمت، وعندما كان يصلّي صلاة الليل كان يقول إلهي العفو بحرقة، وعندما كنت أنظر إلى وجهه كنت أشعر بطاقة إيجابية وتغمرني السكينة، كانت عيناه جميلتين ولكن من نوع آخر، كنت أقول في نفسي يحتمل لأني أحبّ حميداً كثيراً أراه هكذا، ولكن لم يكن هذا رأيي وحدي، كان أصدقاؤه يمزحون ويقولون: حميد نورك يتصاعد. هذا الإحساس لم يكن دون سبب، لقد صار حميد سماوياً أكثر، ولعلّ هذا هو السبب الذي جعلنا نكون خدّاماً للشهداء في مدّة زمنيّة تقلّ عن شهر، حيث اتّصل كالعادة بالحاجّ صباغيان واتفق معه. وفي السابع عشر من شهر فروردين انطلقنا إلى «دو كوهه»[٣]، وعندما دخلنا باب الثكنة شعرنا وكأن الأبنية كانت تقول لنا أهلاً وسهلاً، الأبنية التي تذوقت الطعم الجميل لمخاطبة الشهداء وهي الآن تستضيف زائري الشهداء. الصور الكبيرة التي على جدارن الأبنية كان عندها من الكلام

---

٣ اسم إحدى الجبهات في الحرب المفروضة على إيران.

ما يملأ كتاباً، الأبنية التي لم تكن قد نست أبناء السرية،كميلاً ومقداداً وأبا ذر ومالكاً.

وعندما وصلنا إلى أمام حسينية الحاج «إبراهيم همّت» قال حميد: في أحد الأيام كانت أصوات المجاهدين في الصباح مرتفعة في «دو كوهه»، وبعد دعاء الصباح الذي كان يقرؤه الشهيد «گلستانى» كانوا يقومون بتمارين الصباح ويقولون واحد اثنان شهيدا! وكأنّ الآن «دو كوهه» خالية تنتظر، تنتظر يوماً تظهر فيه مجموعة شهداء كهؤلاء ويحيون المكان من جديد.

وبقينا في «دو كوهه» لعدّة أيّام بعنوان خدّام، أحياناً كنت أرى حميداً يتجوّل بالسيّارة ويساعد زائري الشهداء، وفي اليوم الثالث عندما كنّا في «دو كوهه» أراد مجموعة زائرين من طهران أن يذهبوا إلى الحسينيّة، وكانت هذه الحسينيّة تبعد كيلومترين اثنين عن المباني الأساسيّة لـ «دو كوهه»، وهي المكان الذي كان قد اختاره مجاهدو فريق الهندسة للتعلّم وللخلوات المسائيّة، ولكنّ الطقس كان حارّاً، لم يكن هناك مجال للذهاب مشياً، وتقرّر من جهة المسؤولين أن نوصلهم إلى الحسينيّة بسيّارة الزائرين وقد رافقته أيضاً.

وطوال الطريق قلت للسيّدات اللواتي لم يزرن «دو كوهه» من قبل: يبدو أنّ هذا المكان كان محلّ الانطلاق، فكثير من الشهداء من هذا المبنى كان انطلاقهم وفي النهاية استشهدوا في مناطق مختلفة، اعرفوا قيمة هذه الساعات القليلة التي أنتم فيها في «دو كوهه».

ولم تمض عدّة دقائق حتّى وصلنا إلى حسينيّة مجاهدي فريق الهندسة وتفكيك الألغام. يا له من مكان هادئ بني دون أيّة إمكانات، بني من أجل مجاهدي فريق الهندسة. ولا تزال خلف الحسينيّة القبور التي حفرت وكان المجاهدون ينامون داخلها لليال ويبتهلون إلى الله،

وقد بقيت على حالها لم تمسّ، وعندما انتهت مراسم العزاء ورواية الحدث ركبنا السيّارة وعدنا.

ولم أصل إلى مكان استراحتي في مبنى المقداد حتّى انتبهت إلى أنّي نسيت هاتفي في الحسينيّة، فرجعت إلى الشارع المؤدّي إلى الحسينيّة، ولكن لم يكن هناك أيّة سيّارة لتعيدني إليها، كنت أعلم أنه إذا اتّصل حميد أو أحد أفراد أسرتي ولم أجب فإنّهم سيقلقون، ولم يكن هناك من وسيلة سوى أن عدت ماشية على قدميّ إلى الحسينية. ولم أكن قد ابتعدت أكثر من مئة متر عن «دو كوهه» حتى رأيت سيّارة تنطلق بسرعة باتجاه الحسينيّة، فرحت من قلبي وقلت: ربما توصلني. وعندما وقفت السيّارة، رأيت حميداً مع أحد العسكريّين في السيّارة، فسألني متعجباً: إلى أين تذهبين في هذا الحرّ وسط هذه الصحراء؟! أوضحت له ما حدث وقلت: اضطررت أن أذهب وآخذ الهاتف الذي نسيته. فأجابني حميد: أنا الآن على عجلة من أمري وبما أنّ عملك شخصيّ فلا يمكن الذهاب بسيّارة عسكريّة. قال هذا وودّعني وذهب، كنت أعرف سلوكه، لو قطعوا رأسه لم يكن يستعمل شيئاً من بيت المال لأموره الشخصيّة.

وعدت مجدداً لأمشي على قدميّ، وكانت شمس الربيع الحارقة تضرب رأسي بقوّة، وعندما اقتربت من الحسينيّة رأيت من بعيد أحد يقترب مني راكضاً، اعتقدت أنه أحد الأفراد المسؤولين عن النظام وقد أثاره مجيئي لوحدي إلى الحسينية، وعندما اقتربت عرفت أنه حميد، وبرؤيته استعدت طاقتي ولما وصل قال: لقد أنهيت عملي وأعطيت السيّارة للعسكري ليوصلها وجئت إليك كي لا تبقي وحدك، وكانت قد بقيت خطوات للوصول إلى الحسينيّة فذهبنا معاً ووجدنا الهاتف، كنت متعبة جدًّا فجلست لعدّة دقائق على موكيت الحسينية.

وكانت الفوانيس قد وضعت في جميع أطراف الحسينيّة، قال حميد: هنا الليل جميل جداً، عندما تطوي المسير من قلب الظلام وتصل إلى الحسينية التي أضيئت بهذه الفوانيس تشعر أنك عبرت من البرزخ إلى الجنة، أدعو الله أن يكون قبرنا نورانيّاً كهذه الحسينية بعد أن يأخذ عزرائيل روحنا، وعندما كان الحديث يتطرّق إلى الجنّة والنار كان يذكر ملك الموت باحترام وبدلاً من عزرائيل كان يقول: حضرة عزرائيل، لم يكن يذكر اسم هذا الملاك دون كلمة «حضرة».

وعند العودة كنت في غاية التعب، اثنان كيلومتر ذهاباً واثنان كيلو متر إياباً، وبسبب المطر والطقس الربيعيّ نبتت في المكان ورود صفراء على أطراف طريق الحسينية، ولكي يسلّيني حميد قطف لي ورداً منها، وقد أغدق عليّ بمحبّته حتّى نسيت تعب المشي لأربعة كيلومترات.

وبعد أسبوع، ورغم صعوبة فراقنا لـ «دو كوهه»، كان عندي درس في الجامعة ويجب أن أعود إلى الصفوف الدراسية، ولا يمكن لحميد أن يأخذ إجازة أكثر، ومرغمين عدنا إلى قزوين، ولكنّا كنّا فرحين جدّاً لأنّنا استطعنا أن نكون قبل بدء العام الجديد وبعد العطلة ضيوفاً للشهداء.

بأخذ إجازة
استطعنا أن نكون قبل بدء العام الجديد وبعد العطلة

كانت الهيئة من الأشياء التي تحوز على اهتمام خاصّ لدى حميد، وكان كلّ أسبوع يشارك في مراسم ليالي الجمعة فيها. وقد نظّم برنامجه بشكل يمكّنه من الذهاب يوم الخميس إلى الهيئة، وكنّا عندما نفتقده نجده هناك. وأنا كنت منذ فترة الخطوبة قد ارتبطت بالهيئة، وكان يقول: أفضل خندق عسكريّ للتربية هو هنا، وكان اسم الهيئة «خيمة العباس»، وكان هو واحداً من مؤسّسي الهيئة، وقد تأسّست تأسّياً بالشهيد «إبراهيم هادي».

في البداية وبمناسبة عشرة محرم، وضعوا خيمة سوداء كبيرة وكانوا يحيون المراسم فيها، ولكن المراسم الأسبوعيّة كانت تقام في بيوت أحد أصدقائه، وهناك جعلوا منه حسينيّة وفي كلّ ليلة جمعة كانوا يقيمون دعاء كميل وزيارة عاشوراء.

والشيء الوحيد الذي كان يتعبني في هذا المجال هو عودته متأخّراً من الهيئة، وكأنه عندما كان يذهب إلى هناك كان ينسى الزمان والمكان، تلك الليلة كنت متعبة ولم أستطع أن أرافقه فقال لي: أعود في الحادية عشرة والنصف، مرت نصف ساعة، ساعة، ساعتان ولم يعد. لقد شعرت بالقلق واقعاً، ومهما اتصلت لم يجب على الهاتف، كان قلبي يشتعل، أمسكت بالهاتف واتّصلت بأحد أصدقائه وعرفت أن عندهم اجتماع وطال عملهم حتى ذلك الوقت.

ولم يمرّ وقت طويل حتى رنّ جرس الباب، كنت ضجِرة جدًّا، ولكن لم أحبّ أن أؤذيه رفعت الأنترفون وقلت: من في هذا الوقت من الليل؟ فقال: هذا أنا، حميد، زوج فرزانة، فقلت: لا أعرفه، كان طقس قزوين بارداً تلك الليلة، ولكنّي لم أحب أن أتركه أكثر خلف الباب، فتحت الباب فدخل إلى الممرّ وفتحت باب البيت قليلاً، وعندما وصل قلت له: أرني إصبعك، لأرى إن كنت حميداً الذي أعرفه أم غيره. اضطر المسكين لأن يرضخ للأمر لأنه يعلم أني لن أرضى بسرعة، أدخل أصابعه من الباب، كانت باردة كالثلج جرّاء ركوبه على درّاجته، وقد أخفض رقبته وأظهر نفسه كالمظلوم، وفي تلك الأوقات وعندما تصبح عيناه مستديرتين كان يبدو خفيف الظل فقلت: إلى أين كنت حتى الآن؟ الساعة الآن الثانية من بعد منتصف الليل فقال: كنت في الهيئة، كنّا في السرداب والهاتف خارج التغطية، وكان عندنا اجتماع للاتفاق على البرامج، كنت مشغولاً لدرجة أني لم أنتبه إلى الوقت، أعتذر. فقلت: عد إلى حيث

كنت، أيّ رجل يترك زوجته وحدها حتى الساعة الثانية من بعد الليل، صار يلتمسني، ويتكلّم معي بمزاح حتّى صرت أضحك فقلت بمزاح: أعطيك غطاء ووسادة ونم خارجاً، وكنت أعاتبه أكثر لماذا عندما يطول عمله لا يخبرني، وفي النهاية استرضاني كثيراً حتى رضيت.

وفي اليوم التالي كنا جالسين نشاهد التلفاز فقال حميد: لو تعلمين كم أنا مشتاق لزيارة السيّدة المعصومة عليها السلام هل تذهبين إلى قم نهاية الأسبوع؟ في المرّة السابقة عند قدوم العام الجديد ولشدّة ما كان المكان مزدحماً لم نعرف ماذا حدث، وهذه المرّة نذهب بفراغ بال ونزور. ولأنّنا عدنا قريباً من الجنوب قلت لحميد: أحبّ أن آتي ولكن أخاف أن أقصّر في دروسي، ولكن إن كنت تحبّ فاتصل بأحد أصدقائك في العمل واذهب معه فقال: اقتراح جيد، منذ زمن لم أذهب مع أصدقائي إلى أيّ مكان، أمسك بالهاتف واتصل باثنين من أصدقائه واقترح عليهم أن يذهبوا ليومين ويعودوا، وتقرّر أن يذهبوا في صباح الغد، وعندما تأكّد ذهابهم قال حميد: لنذهب إلى منزل أمّي ونتفقّدها قبل السفر. فقلت: حسناً ولكن نعود بسرعة حتّى أستطيع أن أحضر لك شيئاً تأكله على الطريق.

وبسرعة حضّرنا أنفسنا وركبنا الدرّاجة الناريّة ومشينا، وكان بيت عمّتي له طريقان أحدهما من الإسفلت والآخر ترابياً، وعندما وصلنا إلى أول الطريقين قال حميد: تعالي لنذهب من الطريق الترابية هناك يشعر الإنسان أنه يركب دراجة. وسار نحو الطريق الترابيّة، شعرت ببطني وأمعائي تقفز من مكانها، ولكنّ حميداً كان لديه إحساس من يشارك في مسابقة الدرّاجات الطائرة. كان هذا النوع من الشقاوة توأم حميد منذ نعومة أظفاره، وعندما وصلنا بقينا لدقائق ننظف التراب والغبار عن ثيابنا حتّى يمكننا مواجهة الآخرين في الأعلى.

جلسنا لساعة، ولم نبق على العشاء، وعند الوداع طلب الجميع من حميد أن ينوب عنهم في الزيارة، وعندما وصلنا إلى المنزل دخلت إلى المطبخ بسرعة، وقرّرت أن أعدّ له كرات البطاطا، وملأت له سلّة من الطعام فيها المخلّلات والخبز الإفرنجي وأجنحة الدجاج وأسياخ وزيت ومكسّرات وباختصار حضّرت له كلّ شيء.

كان حميد جالساً على الكرسيّ في المطبخ، وأثناء عملي سمعت صوت ضحكه يرتفع وقال: هل تعلمين ماذا أرسل لي صديقي في رسالته؟ قلت: قل لي ماذا قال حتى أغمي عليك هكذا من الضحك؟ فقال: أرسلت له رسالة بأنّي سأحضر معي الغداء فزوجتي أعدّت لنا الطعام، فأجابني صديقي: «يا لحسن حظك، أما أنا فعليّ أن أشكر الله لأنّ زوجتي قبلت الآن أن آتي معك، ولا أتوقّع منها أبداً أن تحضر الأغراض والطعام» أجبته: أنا مطمئنّة لأصدقائك، هذا النوع من الأسفار جيّد، يجدّد من نشاط الإنسان، والجلسات بين الأصدقاء ممتعة والسعادة التي يشعر بها الإنسان تصل حتّى إلى بيته.

قال حميد: صحيح، ولكنّ بعض النساء يصعّبن الأمور، ولكن أنت مختلفة، فقد أعددتِ كلّ شيء. فقلت: أجل لقد أعددت لك كلّ شي بقي الصلصة، لو سمحت اذهب إلى الدكان في أول الزقاق واشتر واحدة منها حتّى أعدّ العشاء، ونريد أن نأكل من هذه الأقراص، قال وهو يقف: أجل أنا أحبّ الصلصة وبدون الصلصة لا تأكل كرات البطاطس.

لبس ثيابه بسرعة وذهب، وأنا وضعت سفرة العشاء وبعد عدّة دقائق عاد حميد ولكنّه لم يكن قد اشترى الصلصة. فقلت: لماذا رجعت خالي اليدين؟ نحتاج الصلصة للعشاء فقال: الدكّان القريب مغلق، عند الذهاب غداً أشتري فقلت: نحتاج الصلصة للعشاء وأنت أيضاً تريد أن تأخذها معك إلى قم. فأجابني: هذا المسكين الذي فتح دكاناً هنا أمله

هو بنا نحن جيران هذا الدكان، وإلى حدّ الإمكان وما دام ليس هناك ضرورة يجب أن نحاول الشراء من هنا. وعندما كنت أرى هذا النوع من التصرفات كنت أسكت فقط، وتمرّ عدة دقائق حتى أفهم كلامه، وكنت أدرك جيّداً أنّ هذا النوع من المراقبة يتطلّب روحاً سامية إلى حدّ ربما لا يجعلني أبداً أمشي مع حميد جنباً إلى جنب.

وفي الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل حمّرت جميع كرات البطاطس وأحضرت الحقيبة ووضعتها في غرفة الاستقبال، ومن التعب مدّدت جسمي في نفس المكان، توضّأ حميد وراح يقرأ القرآن، وما إن رآني نمت في غرفة الاستقبال حتى قال: لا تتكاسلي! انهضي وتوضّئي ثم اذهبي إلى النوم، كنت حقاً نائمة وعيناي نصف مغلقتين، قرأ حميد القرآن ووضعه على رفٍّ في الغرفة، وقال وهو واقف فوق رأسي: عندنا رواية تقول: من ينام بلا وضوء فهو كالميت، فراشه يصبح كقبره، ومن يتوضّأ يصبح فراشه كمسجده وتكتب له الحسنات حتى الصباح. وأراد أن يجعلني أقوم عن طريق المزاح والضحك فقال: من مصلحتك أن تقومي بسرعة وتتوضّئي حتّى تنامي براحة، وإلا لن تستطعي النوم وعليك أن تتحمّليني، ربما أحضرت إبريقاً من الماء وأرقته فوق رأسك حتى تصحي بشكل تام. وأثار الضجيج حولي حتّى لم أستطع أن أنام دون ضوء، وبقي حميد في قم يومين، وعندما عاد أحضر لي ملابس جميلة من جانب الحرم وعندما أعطاني الهدية قال: كل الساعات التي كنت فيها في قم كنت أذكرك، ووسط دعاء كميل دعوت كثيراً من أجل حياتنا، وتذكّرت سفرتنا أيام الخطوبة.

وكان طبخ حميد مميزاً، ومنذ أوّل شبابه تعلّم الطبخ، وكانت عمّتي تطمئنّ عندما يذهب حميد مع أبيه وإخوته إلى «سنبل آباد»[٤] لأن حميداً موجود ويمكنه إعداد الطعام للباقين، وكانت أنواع الطعام التي يعدّها بطرق جديدة تصلح لأن تكون كتاباً اسمه «الطبخ على طريقة حميد»، كان عنده إبداعات لا يصل إليها عقل جنّيّ.

تجاوزتِ الساعةُ الخامسةَ قرابةَ الغروب، كنت متعبة جداً، وفي الدقائق الأخيرة المتبقّية على الفصل الدراسيّ شغّلت الهاتف وبعثت برسالة إلى حميد: سلام إلى تاج رأسي، هل عدت من النادي الرياضي إلى البيت، إن وصلت باكراً جهّز الأرزّ حتّى أصل. وعندما وصلت إلى البيت كانت رائحة الأرزّ تملأ المكان، ولأنّي كنت متعبة وضعنا مائدة العشاء قبل الساعة السابعة وخلافاً للمرات السابقة التي كان فيها حميد يتولّى إعداد الطعام لم أر شيئاً غير عاديّ، وقد أعدّ الأرزّ كما أوصيته، ولكنّ لونه كان مثيراً للشكّ ويكاد يكون أصفر، لم يكن له طعم مغاير، اعتقدت أنّ حميداً وضع خطأ بدل الملح العقدة الصفراء، ولكن لم يكن لها طعم فيه، أكلنا طعامنا حتّى اللقمة الأخيرة، وعند جمع السفرة سألته: حميد لماذا هذا الأرز أصفر اللون؟ فقال: لا أدري، لقد أثار تعجّبي أيضاً، لقد نظّفته ووضعت له الزيت والملح ووضعته على النار، وما إن قال هذا حتى اقتربت من الطنجرة ونظرت إلى الأرزّ جيّداً ثم سألته: هل هذا يعني أنّك لم تغسله قبل الطهو؟ فقال حميد وهو يجمع الأغراض عن المائدة: ألم تقولي بالأمس أن لا أغسل الأرز؟

تذكّرت أنّه ليلة أمس كان عندنا ضيوف، وكان حميد قد نقع الأرزّ قبل عدّة ساعات فقلت له حينها: عزيزي حميد، ليتك لم تفعل هذا، لأنّ

---

٤ قرية في أطراف قزوين

الأرز المنقوع كثيراً لا أعرف تحضيره، وفهم حميد من كلامي أن لا يغسل الأرز أبداً، وقدّم لنا الأرز بترابه لنأكله.

وبعد العشاء قال حميد: بمناسبة وفاة «أمّ البنين» سيقيم الشباب مراسم في الهيئة، سأذهب وأعود بسرعة وقبل الساعة الحادية عشرة عاد، تعجّبت لأنّه هذه المرّة استطاع الانفصال القلبي بسرعة عن الهيئة، وبعد أن كلّمته عبر الأنترفون رأيت أنّ الستارة في الغرفة غير مستوية، ذهبت لأصلحها، وعندما دخل كان يحمل بيديه صحنين من الطعام، وعندما رآني أصلح الستارة قال وهو يبتسم: منذ أن ذهبت وأنت واقفة خلف النافذة يا فرزانة، كان يكره المرأة التي تنظر إلى الخارج من خلف النافذة، وعادة كان يصل إلى ما يقصده بهذا المزاح، ولم يكن يتكلّم بلهجة الآمر حتّى لا يزعج أحداً. فقلت: لا، لقد التوت الستارة وكنت أصلحها، ما الذي حصل حتى عدت باكراً، عادة يطول غيابك حتّى الواحدة، وما هذا الطعام الذي أحضرته فقال: في النهاية تقدّم الهيئة طعاماً كنذر للحاضرين، لذا أخذته باكراً وجئت إلى البيت حتّى لا تبقي بلا طعام، وإلا كان عليك الانتظار حتّى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل.

فقلت: لا تفعل هذا يا رجل أنا لا أقبل أن أسبّب لك الأذى فقال: أنا أقوم بهذا العمل عامداً حتى يتعلّم الباقون، لا أحبّ أن يأكل الرجل طعاماً في الخارج لا تأكله زوجته في المنزل، أحب أن يبرز الجميع محبّتهم لزوجاتهم بهذا الشكل. وعندما كان يذهب إلى الهيئة لم يكن يأكل ما يقدمونه بل يحضره إلى المنزل لنأكله معاً. وأحياناً عندما يكون طعام النذر كثيراً هناك كان يقول بصوت عال: أعطوني صحناً آخر آخذه لزوجتي.

وعندما كان يبدّل ملابسه انتبهت إلى قميصه المبلل فقلت: وهل

السماء تمطر؟ لماذا ثيابك مبللة؟ فقال: لا يا عزيزتي، ليس هناك علاقة للمطر، لقد اشترينا كرة طاولة وبعد المجلس لعبت مع بعض الشباب، فعرقت وتبلّلت ملابسي وبذريعة هذه اللعبة سيلتحق الكثيرون بالهيئة. وفي الرابع عشر من شهر اردیبهشت[٥] يوم عيد ميلاد حميد، كان دوامي الجامعيّ إلى العصر، وعندما خرجت من الجامعة وطبقاً للعادة ذهبت إلى محلّ بيع العطور، وبعد شراء العطر أخذت كعكة كنت قد أوصيت عليها من قبل وذهبت إلى البيت، كانت كعكة خضراء بشكل قلب قد كتب عليها: «حبيبي حميد مباركة ولادتك». وعندما وصلت إلى البيت كان حميد قد فرش غطاء على الأرض ونام.

وضعت الكعكة على الطاولة وأضأت المصباح في الغرفة، وقع نظري على يديه التي كانت ممزّقة وخشنة بسبب عمله في الأسلاك وأنتيل الاتصالات، وبسبب مسؤوليّته في قسم الاتصالات العسكرية كان كل عمله مع الأسلاك الحربيّة والكابلات الغليظة والقاسية والكابلات التي تتحمّل ضغط الكهرباء، وعادة كان أكثر عمله في الشمس ولذا كان وجهه محترقاً من أشعّتها، وعندما كان يصل إلى المنزل ومن شدّة التعب وعندما يتناول طعامه يستسلم للنوم. وعندما رأيت يديه وقدميه رقّ قلبي له، فذهبت وأحضرت مجلّة قديمة ووضعته تحت قدميه صرت أضع المرطّب على يديه وقدميه وهو نائم، ووضعت على وجهه قطعاً من الخيار لتخفيف آثار الاحتراق، وكان متعباً لدرجة أنّه لم ينتبه، ولم يكن يحبّ المرطّب وكان يقول دائماً: المرطّب ليس للرجال، مرطّب الرجال هو الوحل، ومع هذا كنت كثيراً ما أقوم بهذا العمل حتى لا تتلف يداه ورجلاه أكثر من هذا.

---

٥ الشهر الثاني من الأشهر الإيرانية.

وبعد مدة وجيزة استيقظ، وعندما رأى كيكة عيد ميلاده شعر بالفرح وقال: في الصباح وعندما جائتني رسالة تبريك من المصرف قلت في نفسي لا بدّ أن فرزانة نسيت، وإلا لباركت لي. ولم يترك هذه المراسم العائلية تمرّ دون تصوير، وما إن وقعت عينه على الكعكة حتى أخذ منها قطعة كبيرة وأكلها ثم وضع السكين عليها وقال: وكأننا لم نمد يدنا عليه، صوّري الآن.

وفي السهرة ذهبنا إلى منزل السيّد ميثم زميل حميد في العمل، ومنذ أن ولد لهم طفل لم يكن هناك فرصة لنزورهم، وكان حميد يتحدّث إليه بحماس وكأنه ليس زميله في العمل ويراه كلّ يوم، وكنّا نحن داخل الغرفة نتحدّث عن الأولاد والاهتمام بهم، وما إن حملتُ «أبو الفضل» حتّى أرجع كلّ ما شربه من حليب على الـ «شادور»، فصار متسخاً جداً، وكان لا سبيل لي سوى أن أستعير «شادور» من زوجة السيد ميثم، حتى أصل إلى المنزل وأغسل الشادور بشكل كامل، وقرابة الساعة الحادية عشرة تركنا المكان، وضعت شادوري في كيس وارتديت الشادور الآخر، وعلى الدرّاجة كان حميد يردّد ذكراً بصوت عال، كنت أحبّ منه صوت «حسين حسين»، فقلت له: قل بصوت منخفض كيلا يسمعك أحد في هذا الوقت من الليل. فقال: لا مشكلة، ليقل الجميع أن حميداً مجنون الإمام الحسين عليه السلام، ركوب الدراجة هو عمل مباح، لا واجب ولا مكروه، دعي عملنا مع التلفّظ بالذكر وسماعه يصبح مستحبًّا ويكتب لنا ثواب نحن الاثنان.

وبعد أن وصلنا إلى البيت غسلت الشادورين وجففتهما على المدفأة، ثمّ كويت شادور زوجة السيّد ميثم ووضعته قرب أدوات حميد على الجدار الفاصل بين الغرفة والمطبخ وقلت: عزيزي، غداً وأنت ذاهب إلى العمل أوصله إلى السيد ميثم قد تكون زوجته بحاجة إليه. وعندما

استيقظنا في الصباح كان الطقس ماطراً وكالعادة أحضرت له الفطور، وعندما جلس حميد إلى المائدة قال: زملائي يقولون أن النساء فقط في السنة الأول للزواج يحضّرن الفطور، لقد مضت السنة الأولى ومنذ الغد ليس هناك فطور، ولكن أنت أعتقد أنك صاحبة همّة عالية. ضحكت وقلت: ما دمت موجودة فلن تذهب من المنزل دون فطور، وحتّى أيام الأحد والثلاثاء حيث أعلم أنك تذهب برفقة زملائك إلى الجبل وتتناولون الفطور عليك أن تتناول أولاً الفطور في المنزل.

نظرت إلى الساعة وخلافاً للأيّام السابقة كان حميد يتناول فطوره بهدوء فقلت: لديك فقط بضع دقائق، سيذهب الباص يا حميد، ألست منتبهاً؟ فقال: بلى منتبه، ولكن اليوم وبسبب هذا الشادور الذي سأوصله، لن أذهب بباص العسكريّين، وبمقدار وزن هذا الشادور يجب أن لا يستفيد أحد لإنجاز عمل شخصيّ من سيارة أموال العسكريّين.

تعجّبت من دقة النظر هذه بالنسبة لبيت المال، ولم أحضر خلطة حميد الصباحيّة، فبسبب الجهد الكبير الذي يقوم به في النادي وفي المهمات العسكرية كانت ركبته تؤلمه، وفي صباح كلّ يوم كنت أعدّ له ماء دافئاً وعسل وبودرة السنجد[٦] وقرفة وطريقة تحضير هذه الخلطة وجدته في أحد كتب الطب القديم، ومنذ مراهقتي كنت أحبّ متابعة الطبّ القديم والتغذية حسب الطريقة الإسلاميّة، وبتناوله هذه الخلطة صارت تتحسّن أوضاع ركبته يوماً بعد يوم.

عند توديعه قلت له: بما أنّك لن تذهب بالأتوبوس خذ المظلّة على الأقلّ حتّى لا تتبلّل تحت المطر فقال: أنت تريدين أن تذهبي إلى الجامعة، خذي المظلة أنت، أن أتبلل أنا فلا مشكلة، ولكن لا أحبّ أن تتأذّي من المطر.

---

٦ بلح الصحراء يشبه العنّاب.

وفي ذلك اليوم كان عندنا اجتماع مع أعضاء التعبئة في الجامعة للاتفاق حول المخيمات الصيفيّة الجهادية، وعندما رأيت أنّ الاجتماع قد طال، أرسلت إلى حميد رسالة أن يعد السلطة الشيرازية ريثما أصل، وعندما انتهت الجلسة ركبت سيّارة أجرة بسرعة حتّى أصل إلى البيت، كنت قد تعبت كثيراً، ولكن ما إن رأيت السلطة التي أعدّها حميد ذهبت شهيتي للطعام، كان لون السلطة أصفر بشكل كامل، وكان الخيار والطماطم قد ذبلا. قلت لحميد: أنا لن آكل من هذه السلطة، الذي أعددته يشبه كل شيء إلا السلطة، يجب أن تقول لي لماذا أصبحت بهذا اللون؟! كنت أعرف سوابقه في الطبخ، كان طباخاً ماهراً، ويعدّ طعاماً جيداً، ولكن الذي كان يبتكره بنفسه كاد أن يوصلنا أحياناً إلى حدّ التسمّم.

وعندما رأى حميد أني لا آكل من السلطة بدأ يحكي لي القصة فقال: وضعت أولاً الملح للسلطة، ثم وحبًّا للتجربة، وضعت القرفة والعقدة الصفراء والفلفل، أردت أن أعد شيئاً يكون فيه نكهات متعدّدة. وباختصار وضع من كل أنواع البهارات التي أمامه، فقلت: هذه الأشياء التي قلتها مقبولة في السلطة ولكن لماذا أصبح الخيار وحبات الطماطم بهذا الشكل؟ راح يمثّل دور المظلوم وقال: وبصراحة أحضرت عصير الليمون وماء الحصرم، فوضعت الكثير منها عن غير عمد، وضعت الكثير حتى ضاعت مكوّنات السلطة داخلها، وعندما رأيت أنّ الأمر وصل إلى هذا الحدّ وضعت جميع السلطة في المصفاة، وغسلتها لمرّتين أو ثلاثة، وما ترينه الآن يميل إلى الأصفر هو قليل جداً، لقد تجاوز مرحلة الخطر. لقد قام بعمل جعله هو لا يشتهي هذه السلطة، وأنا التي كنت أحبّ السلطة الشيرازيّة بقيت وقتاً طويلاً لا أتناول أيّة سلطة.

وفي أواخر ربيع عام ٩٣ كانت أول سنة نجرّب فيها شهر رمضان بعيداً عن عائلتينا، كنّا نبقى أكثر الأوقات مستيقظين، وبدلاً من النوم كنا نبقى حتى الثانية من بعد منتصف الليل نقرأ ونتحدّث، وفي سحر أول يوم من شهر رمضان اختار حميد من بين الكتب التي عندنا كتاب «منتهى الآمال»، ومن اليوم الأول بدأنا بمطالعة هذا الكتاب حول المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، وكنّا نقرأ كلّ يوم قصص وسيرة أحد الأئمة، وفي اليوم الرابع عشر أتممنا الكتاب بقراءة سيرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. وما إن أنهينا قراءة هذا الكتاب حتّى أحضر حميد ثلاثين كتاباً من الحجم الصغير، واتفقنا عند قراءة كلّ كتاب أن يحكي أحدنا خلاصته للآخر، كان يحبّ الكتب العقائدية، ويحبّ إذا طُرح بحث في تجمّع للأصدقاء مثلاً أو في الهيئة أن يجيب بمعلومات معاصرة. وفي أيام شهر رمضان كان حميد يبقى في العمل حتى الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر، وعندما يعود كان ينام لساعة أو لساعتين، وفي أيام الاثنين والأربعاء والسبت كان يذهب إلى النادي الرياضي، وفي الأيام التي يكون فيها في المنزل كنّا نقرأ الكتب، ندلي برأينا ونتباحث، وكنّا نصل أحياناً إلى جدال، لم نكن على رأي واحد دائماً، كنّا نتحدّث عن كلّ شيء، من القضايا المعاصرة إلى الأبحاث العقائديّة، وبعد الإفطار كنّا نطالع الكتب أيضاً، أحياناً كان يقرأ كتباً فيها كلمات صعبة وكان يستمتع بكتب من هذا النوع، وإن كان هناك كلمة لا يعرف معناها كان يستعين بالمعجم، وكان يقرأ مرّة إحدى هذ الكتب الصعبة، وأنا في المطبخ أعدّ طعام السحور، وعندما رآني مشغولة بإعداد الطعام صار يقرأ بصوت عال حتى أطلع على الموضوع، وبعد أن قرأ صفحتين قلت له: عزيزي حميد، لا تتعب نفسك، لم أفهم كلمتين مما قرأت، لأنني لا أفهم معاني كلماته، فأجابني: ولأننا لا نفهم معانيها فهذا جميل، لأنّ هذا يجعلنا نبحث

عنها، هذا النوع من الكتب إضافة إلى المحتوى والمعلومات التي يضيفها على الإنسان، يجعل دائرة كلماته أوسع.

وكان أكثر طعام حميد في شهر رمضان هو البطيخ، كان يأكل نصف واحدة منها على الإفطار، والنصف الآخر عند السحور، وفي اليوم الثاني عشر من شهر رمضان، عندما فتحت الباب لاستقباله، كان يحمل بطيختين، سلّم ودخل إلى المطبخ، أردت أن أغلق الباب فقال انتظري هناك المزيد، وخرج ودخل لعدّة مرات، لم تكن واحدة ولا اثنتان، كان قد اشترى أكثر من عشر بطيخات، قلت متعجّبة: حميد ماذا تريد أن تفعل بكلّ هذا البطيخ؟! هل ذهبت إلى مزرعة البطيخ وحملت كل ما تستطيع حمله؟! ضحك وقال: البطيخ لا يخرب، نضعها في أرض المطبخ ثم نضع واحدة واحدة في البراد وعندما تبرد نأكلها.

كان مطبخنا صغيراً، وعندما كنت أطبخ كان سرعان ما تعتريه الفوضى، ومرّت عدّة أيام على شراء هذه البطيخات حتى صرت أشمّ رائحة عجيبة تصدر منها، اعتقدت في بادئ الأمر أنها لكثرتها تعبق رائحتها داخل المنزل، وبعد عدّة أيام اكتشفت أن البطيخ قد تعفّن من الأسفل وأصابه الخراب، بقيت لعدة أشهر عندما أشم رائحة البطيخ تسوء حالي وتؤلمني بطني، كان حميد يراعيني ورغم كل حبّه للبطيخ بقي مدّة لا يقترب منه.

وكنّا نذهب بعض الأيام للإفطار خارجاً، وكان مقصدنا الأصليّ هو مزار الشهداء، وكان يحبّ «الحليم»[٧] الذي كنّا نشتريه، ولم يكن يحبّ ذاك الذي يطهى في المنزل، وعندما كان يلتقي بأصدقائه كانت شهيّته تزيد، ويوم السبت وبعد الإفطار بساعة خرجنا مع السيّد بهرام وخطيبته لكي نتجوّل في المدينة ترفيهاً عن أنفسنا، ولم يمرّ وقت طويل حتّى

---

[٧] طعام إيراني يتكون من القمح والدجاج ويشبه الهريس.

مال حميد وصديقه إلى محل لبيع الساندويشات، وقدّموا لأنفسهم البطاطس والفطر المقلي، الساندويش، البيتزا، عصير الفاكهة وماء الشعير، وأما نحن الاثنتان لم يكن لنا رغبة بتناول أيّ شيء وكنّا ننظر إليهما بحيرة. لقد أكل حميد وصديقه كثيراً، وأثناء تناوله الطعام سألني حميد: هل تأكلا؟ لا تجاملا، سأطلب لكما ما تحبّان، قلنا بتعجّب أنا وخطيبة السيد بهرام: أبعد ساعة من الإفطار نأكل هذا الطعام مرة واحدة؟! لو أكلنا لقُتِلنا، نحن متعجبتان منكما كيف تأكلان؟!

❋ ❋ ❋

كانت أيام وليالي شهر رمضان تمضي الواحدة تباعاً، وبحماس تامّ كنت أشعر بحلول ليلة قدر أول سنة لحياتنا المشتركة ومن اللحظة التي استعدّينا فيها لمراسم رفع المصاحف كنت محمّلة بالكثير من الأمنيات الجميلة للمسير المقرّر أن أكون فيه إلى جانب حميد، للزمان الذي من المقرّر أن أقضيه معه، ويتقرّر مصير سنتنا هذه الليلة. وفي ليالي الإحياء، ولأن حسينيّة موكب المجاهدين كانت قريب من منزلنا، كنا نذهب إليها مشياً على الأقدام، وعندما كنّا مخطوبين كان حميد يذهب إلى الهيئة وكانوا يقيمون المراسم في حديقة «أركيده» حتى يستطيع الاستفادة من يأتي أيضاً إلى الحديقة.

وطوال ليالي الإحياء كان في حالة عجيبة تدعو قلبي للخفقان، كنت أشعر أنه يشبه إنساناً قد أضاع أحداً ما وهو في هذه الليالي بالبكاء والتوسّل يسعى إلى مفقوده، ويبحث عن أمنيته القديمة، وكان يقول: فرزانة، من الخسارة أن نفرّط في هذه الأيام والليالي المباركة، لا أحد يعلم ما إن كان سيبقى على قيد الحياة إلى العام القادم أم لا، وكلّما شعرتِ بانكسار في قلبك فتذكّريني، ادعِ لي أن أحقّق أمنيتي. وعندما

كان الحديث يدور عن الأمنيات كان يقول: ادعِ لي. كنت أتذكّر أوّل يوم من عقد قراننا حين قال لي في مرقد السيد إسماعيل في باراجين: سيأخذونني إلى روضة الشهداء، أمنيتي هي الشهادة، ادعِ لي كما وصلت إليك أن أصل إلى الشهادة.

وقبل الجمعة الأخيرة من شهر رمضان بيومين وبمناسبة يوم القدس، كان التلفاز يعرض مشاهد تتعلّق بفلسطين، وكانت مشاهد المؤسفة لقتل طفل فلسطينيّ في حضن أبيه وأمه مؤلمة للغاية،و كان حميد يقول: مع أنّي لم أصبح أباً بعد حتى يمكنني أن أشعر بإحساس أب يحمل ولده القتيل ويبحث عن ملجأ، ولكن أدرك جيّداً أنّ مصيبة كهذه يمكنها بسهولة أن تكسر ظهر رجل.

وكنّا نذهب للتظاهرة معاً، وتلك السنة كان الطقس حارّاً جدًّا، وكانت السماء كأنّها تصبّ اللهيب، وشعرت بالهلاك من الحرّ بسبب الصوم، وكان المشي مع الصيام قد ذهب بطاقتي، وعندما انتهت المراسم عدنا إلى البيت سريعاً، وبدأت شقاوة حميد على شرفة المنزل، بلّل وجهي ورأسي بالماء وكلما حاولت الهرب إلى أي مكان لم يكن هناك فائدة، ففتحت أنا بدوري أنبوب المياه وبلّلته من رأسه حتّى قدميه. صار كلّ واحد منّا كفأرة مبللة، وعندما سطعت الشمس على وجه وشعر حميد بدا جذّاباً أكثر، أحببت أن أنظر لساعات تحت الشمس إلى وجهه، وكالعادة كان حياء هاتين العينين يرميني أرضاً.

❀ ❀ ❀

وبعد الظهر من أيّام الصيف كان يعلّم الأولاد فنون الدفاع عن النفس، وكنت أنا أحمل الحزام الأسود في الكاراتيه، ولكن لم أكن اجتزت دورة في الدفاع عن النفس، وفي أحد الأيام طلبت منه بالحاح أن يعلّمني

بعض الحركات، بدأ حميد بتعليم الحركات وشرحها. فمثلاً إذا أمسك أحد بقبّة قميصي ماذا أفعل؟ وإذا أمسك بيدي وأمالها كيف أدافع عن نفسي؟ وعندما أعدت الدرس عن الأستاذ قمت بكل ما قاله بشكل مغاير وقمت بحركات خاطئة لدرجة جعلته يسقط على الأرض وصار يضحك بصوت عال، فاعتقد صاحب المنزل أنّنا نبكي، ونادتني السيّدة كشاورز وعندما اقتربت من السلالم قالت: فرزانة ما الذي جرى يا أماه؟ لماذا تبكيان؟ وعندما سمعت هذه الكلمات ذبت خجلاً وقلت: لا أيّتها الحاجة، كنا نضحك، أعتذر لأن صوت ضحكنا كان مرتفعاً. ضحكت السيّدة كشاورز وقالت: إن شاء الله تبقى البسمة على ثغريكما.

واستمرّ درسنا التعليميّ مع ضحكاته إلى العصر، وفي الليل ذهبنا إلى منزل أبي فقلت: اجلس يا أبي لقد تعلّمت ابنتك اليوم بعض الحركات، أريدك أن تعطيني علامة، وناديت أخي وقلت: قف هنا في الوسط بشكل جامد حتى أريكم الحركات. ومن الحركة الأولى التي قمت بها بطريقة خاطئة قال أبي وهو يضحك ويمسح عدّة مرات على ظهر حميد: شكراً لأستاذك الذي بيّض وجوه كلّ الأساتذة.

قال أخي: فرزانة سأقوم أنا الآن بالحركات حتى تعرفي ماذا يعني الدفاع عن النفس. وما إن اقترح هذا حتّى وقف حميد وأمسك بيدي وأجلسني على الأريكة وقال: لا بالله عليك، الآن على إثر ضربة من ضرباتك قد تصاب يد فرزانة أو قدمها، اترك ذلك، ففرزانة لا تعرف شيئاً ولا تريد أن تتعلّم. كان حساساً بالنسبة لي، وكنت أنا أشعر بشعور متبادل اتجاه حميد، لم أكن أحتمل أن يصاب بذرّة أذى أو أن يشعر بأيّ ضيق، وعندما أوكلَتْه أمّي مرّة أن يبدّل المصباح الكهربائيّ المحترق، بقيت أتأفّف لمدّة نصف ساعة أن لماذا أرسلتِ بحميد إلى السلّم وقلت: إذا وقع عن السلم وحدث له مكروه سأريكم. كنت خائفة أن يحدث له

شيء وقلت مراراً لحميد: بالله عليك انتبه، إن حدث لك مكروه فإني أموت. وبقيت منذ البداية حتّى آخر لحظة أمسك السلّم بيديّ الاثنتين. وكان الجميع يبرزون مثل هذه المحبّة لحميد، وكان أبي يضعه في عينيه، وكان يراه أكثر من ابن أخت وصهر، وأمّي لم تكن تناديه بأقل من حبيبي حميد، وأغلب الأوقات كانت تقول له: ولدي الجميل، ومنذ زمن بعيد كانت تحبّ حميداً وأخيه التوأم حبًّا شديداً، وعندما كانا طفلين، كانت أمي تأخذهما من عمّتي عندما تضيق بها الأعمال، فتلاعبهما وتحكي لهما قصّة، وكانت تشعر في أحيان كثيرة أنّهما بمكانة أولادها. وبعد الزواج وعندما كنّا نذهب كلّ مرة إلى منزل أبي كانت أمّي تقول: حميد فوق رؤوسنا، وكلّما أحضر طعاماً كانت تقول: ليأكل حميد أولاً، وكان هذا كلّه يعود لسلوك حميد الحسن؛ ممّا يجعل الآخرين يحبّونه بشكل مختلف.

❋ ❋ ❋

عندما كنت عائدة من الجامعة ركبت الباصّ مع صديقتي حتّى أعود إلى البيت، كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر وكان الباص فارغاً، أخرجت صديقتي من حقيبتها خوخاً مجففاً وقدمته لي، أخذت واحدة منها وشكرتها، وبعد قليل سألتني صديقتي: هل أنت صائمة يا فرزانة، لم تأكلي الخوخ؟ ربما لا تحبّينه، فقلت: لا لست صائمة، هذه الأشياء لا يمكنني أن آكلها وحدي، أضعها في حقيبتي وفي البيت آكلها مع زوجي. وما إن قلت زوجي حتى اتصل حميد فقلت: ابن حلال، ما إن قلت زوجي حتى اتصل. وقال حميد: وصلت إلى البيت وأنتظرك لنتناول طعام الغداء وأريد أن أذهب بعدها إلى النادي للتمرين فأجبته: دقائق وأصل. وكان الخوخ في يدي ورننت جرس الهاتف، فتح حميد الباب، وما إن

وصلت حتى قلت: عجباً يا سيّد حميد لقد عدت باكراً إلى المنزل! فقال: اتفقت مع صديقي أن أذهب إلى بيته وأصلح له الأكواريوم، وقال هذه الجملة بحسرة مميّزة، كان يحبّ الأكواريوم كثيراً، كان يعرف الاهتمام به، كان يحمل الزجاج ويلصقه ولكن أنا لم أكن أحبّه، كنت أخاف من الكائنات الحيّة وخصوصاً الأسماك، وعندما رأيته يقول كلماته بحسرة شعرت بالحزن وقلت: رغم أنّي لا أحب، ولكن عندما نذهب إلى بيت أكبر، فهناك لا مشكلة يمكنك أن تجعل في بيتنا أكواريوم للاسماك.

وما إن قلت هذا حتى قال بفرح يصدر من قلبه: والآن بما أنّك قبلت اذهبي إلى الثلاجة فسترين ما يسرّك. فقلت: عصير الكرز؟ فقال: اذهبي وشاهدي بنفسك، كان من عادته عندما يشرب عصيراً مع أصدقائه أن يشتري لي كوباً، وخاصّة عصير الكرز، فقد كان يعرف أنّي أحبّه.

ورغم أني كنت أعلم أنه يقوم بكثير من أمثال هذه الأعمال فقد شعرت بالفرح فقلت: حبيبي حميد حتى أصل إل الثلاجة اقسم هذه الحبة من الخوخ كل نصفها واترك لي النصف الآخر، لم يطعني قلبي أن آكلها وحدي، وعندما دخلت إلى المطبخ وجدت ورقة قد ألصقها حميد على الثلاجة في أحد طرفيها أيام الأسبوع وفي أعلى الورقة كتب: الغداء، العشاء وداخل كل خانة عين أحد أسماء الأئمة عليهم السلام فقلت: ما هذا يا رجل؟!

قال: من الآن فصاعداً كلّ طعام نعده يكون نذراً لأحد الائمة عليهم السلام وكلّ يوم أعدّي الطعام بذكر ونيّة هذا الإمام، وبهذا الشكل نأكل كلّ يوم طعاماً نذراً لأهل البيت وله تأثير إيجابي على نفوسنا، ولقد ألصقته على باب الثلاجة ليكون دوماً أمام أعيننا. وقد أعجبني اقتراح حميد جدًّا لدرجة أنساني عصير الكرز الذي في البراد. ومنذ ذلك اليوم وأثناء إعدادي الطعام كنت أقول ذكر ذلك اليوم وأنوي الطعام نذراً للمعصوم المكتوب اسمه داخل الجدول، ولمّا رأى

حميد أنّ أمي أعجبها هذا الاقتراح أعدّ لها جدولاً وكان يحبّ أن تكون جميع الأعمال بالذكر والتوسل بالأئمة عليهم السلام.

وبعد أن تناولنا الطعام خرج حميد بسرعة لإصلاح الأكواريوم، وكالعادة اجتمع حوله الأطفال في الزقاق، وبالأخلاق الحميدة التي كان يمتلكها كان الجميع يحبّ أن يلعب مع حميد ودراجته ولو لدقائق، فكانوا يركبون الدرّاجة، وكان حميد الذي يهوى هذه الأشياء، يرضي الجميع بصبر وطول بال ثمّ يذهب.

وكان صنع الأكواريوم قد طال لمدّة ثلاث أو أربع ساعات، وعندما وصل إلى البيت سألني: وما هو برنامج نهاية الأسبوع؟ يقول السيّد بهرام لنذهب باتجاه الشمال فقلت: موافقة، الآن فرصة جيّدة لنسافر ونرفّه عن أنفسنا، ويوم الجمعة ذهبنا مع عائلة بهرام إلى الشمال، أردنا أن نذهب إلى البحر ونبقى بضع ساعات ثم نعود في المساء، ولم نبتعد كثيراً عن قزوين حتّى بدأت الأمطار تتساقط، ومن شدّة الازدحام لم نستطع أن نبتعد عن «منجيل[٨]»، وهناك قرب سدّ «منجيل» اشترينا ساندويشات وأكلنا، قال حميد: ما يقولون عنه مكان النهب والسرقة هو هنا، كلّ شيء هنا مرتفع الثمن، هيّا تجهزوا بسرعة للعودة قبل أن ينفد مالنا. وعدنا من هناك، وفي الليل جئنا إلى البيت وأعددنا الأجنحة المشويّة وأكلناها، كان حميد دائماً يوافق على هكذا أنواع من الترفيه ولم يكن يقصّر في شيء.

٨ منطقة سياحية في شمال ايران.

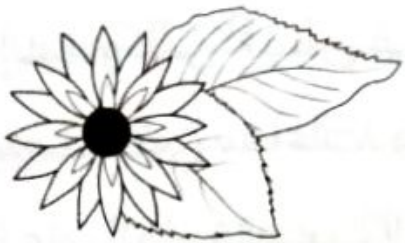

الفصل السابع

تعال لتكن ناصراً في جموع الأنصار

بعد أن تجاوزت الساعة التي في غرفة الاستقبال الثانية والنصف، راحت تمشي برتابة وبطء شديدين يبعثان على الضجر. وفي كلّ لحظة كنت أترقّب عودة حميد من العمل وارتفاع رنين جرس الباب. ولشدّة ما شعرت بالملل، جلستُ أمام شاشة الحاسوب، ورحت أنظر إلى صور حميد، فقد كان مغرماً بالتقاط الصور؛ لذا كان قد ملأ الجهاز بالصور التي التقطها في مهمّاته العسكريّة ومكان عمله وأسفاره.

وقد فاقت الصور التي التقطها مع رفاقه من المجاهدين تلك التي التقطها مع زملائه في العمل، والسرّ في هذا يعود إلى علاقته الحميمة مع أولئك المجاهدين، فلم يكن يخاطبهم يوماً بلهجة الآمر، وعندما كان يحتاج إلى شيء من أحدهم، لم يكن ليقول: أحضر لي ذلك الشيء، بل كان يسأل: أين أنت لآتيك بنفسي وآخذ منك ما أريد.

ومن بين صور حميد، كان هناك ملف قد أعدّه لما بعد شهادته، وقد طلب إليّ أن تنشر هذه الصور في الإعلانات ومراسم التشييع والأسبوع. تركت النظر إلى تلك الصور؛ فقد تأخّر هذه المرّة أكثر من أيّ وقت مضى، وشعرت بقلق شديد ثمّ رحت أخطّط كيف سأسدّ له إذا ما رجع ما كان عليّ من ديون لطفه ومحبّته. ولكي يتسنّى لي الشعور ببعض الارتياح رحت أجوب المنزل ذهاباً وإياباً، وكأنّي أقيس غرف المنزل والمطبخ مرّات ومرّات، وفي النهاية وبعد مضيّ ساعات، ما إن سمعت صوت حميد حتّى كأن ماءً قد صُبّ على النار، فنسيت القلق وما اتخذته من قرارات وخطط.

ولمّا صار داخل المنزل، لفتتِ انتباهيَ ثيابُه المبلّلة، فقلت له: «لقد أشعرتني بالقلق؛ لمَ كلّ هذا التأخير؟! ولمَ ثيابك مبلّلة؟!» لمْ يكن يرغبُ بالإجابة؛ فتهرّب من سؤالي، وأثناء جلوسنا على المائدة ولشدّة إصراري، أخبرني أنّه بقي مع المجاهدين لتنظيف فرش حسينيّة المجموعة؛ لذا كانت ثيابه مبلّلة حين عودته إلى المنزل. وأردف قائلاً: كلّنا مجنّدون من أجل عمل الخير ومن أجل الحسينيّة. ولا وجود لكلمة «اذهب» في الحرس بل كلمة «تعال».

سألته بعينيّ الحائرتين: ما الفرق بينهما؟! فأجاب: الفرق بين اذهب وتعال أنه عندما تقول اذهب فهذا يعني أنّك واقف هنا، وتتوقّع أن يكون الجميع متقدّماً عليك، ولكن عندما تقول تعال فهذا يعني أنك تقدمت وتشجع الباقيين أن يتحركوا. كان سلوكه هذا داعياً لأن يكون له مكان مميّز بين العسكريّين وأثناء العمل كان يرى نفسه بلباس مجنّد لا شخص عليه إصدار الأوامر، كان حميماً ومتواضعاً لدرجة أن بعض العسكريّين وبعد سنوات من انتهاء خدمتهم يتّصلون به ويسألون عن أخباره فقلت له: إذن سآخذك للشراء بأمر عسكري!

فقال: وكيف؟ قلت: عندها لن أقول لنذهب للشراء يا سيد حميد، أذهب إلى محل الشراء وأقول لك تعال، لقد اخترت بعض الأشياء فادفع قيمتها. وقد ضحك كثيراً من طريقة تعبيري.

لم أكن أحبّ أن يأكل وحده، ومع أنّي أكون قد تناولت طعام الغداء ولست جائعة أجلس قربه، وبشوق كالمرّة الأولى التي أعددت له فيها المائدة، وأكثر اللحظات التي كنت أحبّها أن تطول اللحظات التي أنظر فيها بهدوء إلى وجهه المتعب والعطوف في آن، وكان كالعادة يأكل طعامه بشهيّة، بشكل جعلني أشتهي تناول بعض اللقيمات من جديد، أمسك حميد بصحن الصلصة وسكبه فوق البطاطس، وكان يستعمل الصلصة في عجّة البطاطس وسلطة الخس وربّما احتجنا لشراء الصلصة البيضاء مرّتين أو ثلاث في الشهر الواحد.

ولم أحتمل تأجيل السؤال فسألته أثناء تناوله الطعام: عزيزي لقد بقيت اليوم من أجل غسل الموكيت وماذا عن بقيّة الأيام؟ لماذا باقي زملائك يأتون إلى المنزل في الوقت المحدّد ولكن أنت تتأخّر عادة؟ وبينما كان مشغولاً بصحن الصلصة قال: أعتذر منك، في بعض الأيّام تطول أعمالي، وحتى أهيّئ كلّ شيء يكون الأوتوبوس قد ذهب، وعندما أصل متأخراً أضطر أن أستقلّ سيّارة أجرة أو أمشي إلى مكان ما مشياً على الأقدام.

كان مكان عمل حميد يبعد عن قزوين عدّة كيلومترات، لذا كان يذهب ويعود بالباص، ومع أنه كان يقول إنّ عمله يطول، ولكنّي كنت أعلم أنه لا يتأخّر عن الأتوبوس بسبب عمله ومهمّاته فقط، فهو لديه مسؤوليّتان في الوقت نفسه، مسؤول الاتصالات والمسؤول الثقافي للكتيبة، وفي أيّ مكان آخر كان يشعر بأنّه يستطيع أن يقدّم أيّة مساعدة لم يكن يتوانى، من العمل الجماعي إلى الأنشطة الثقافيّة

للكتيبة والسريّة، لقد كان حقّاً نشيطاً لا يعرف التعب، وملتزماً أن يكون الأجر الذي يتقاضاه حلالاً كله، لذا كان يعمل أكثر من دوامه، وطوال الساعات التي كان يقضيها في العمل لم يكن يعرف الهدوء، وفي مجال الاتصالات كان يجهد نفسه إلى أقصى الحدود، وفي التقييمات المختلفة للمشرفين على العمل كان يحصل دائماً على علامات ممتازة، وقد أعطي للتشجيع عدّة أيام كإجازة ولكنّه لم يستفد من أكثرها.

كنّا مدعويين للعشاء في منزل عمتي، عادة أيام الخميس كنا نذهب للعشاء عند عمتي، وأيام الجمعة كنّا نذهب للغداء في منزل أبي، وأحياناً كنّا نذهب ونسهر وسط الأسبوع، ونادراً ما كان يذهب وحده، وقلت لرجل بيتي الأنيق: بعد نصف ساعة سنذهب، ومن الآن ابدأ بتحضير نفسك، ثم ذهبت وجلست أمام التلفاز ليتهيّأ حميد للخروج، وعندما كان يسرّح شعره لعدّة مرّات قال ممازحاً: عندما نريد أن نذهب إلى منزل أمّي أنت تأخذين وقتاً طويلاً، وعندما نذهب إلى بيت أمّك سأردّ لك بالمثل، ضحكت كثيراً وتمتمت له بالدعاء وقلت: مع أنّ الاهتمام بمظهرك يأخذ وقتاً إلا أنه يأخذ بمجامع قلوبنا.

وعندما وصلنا إلى أول الزقاق استقلّينا سيّارة أجرة، كان السائق قد أدار في المسجّل صوت غناء لامرأة، فقال حميد بابتسامة ووجه منبسط للسائق: هل يمكنك أيها السيّد أن تطفئ صوت غناء المرأة، إن كان لديك شيء يعود لرجل فضعه! ضحك السائق من طريقة كلام حميد وقطع الأغنية في الوقت نفسه فقال حميد: لا مشكلة ضع أيّ شيء ولكن لا يكون لامرأة فقال: لا أيها الشيخ، كلمة واحدة جعلتني أقتنع، سنتكلّم ونضحك وهكذا تقصر الطريق. كان المسكين كالباقين يعتقد أنّ حميداً طالب في الحوزة الدينيّة، وحتّى وصلنا تحدّث وضحك مع حميد كثيراً، وعندما ترجّل حميد قال جملته المعهودة: أشكرك،

أشكرك بمقدار هذا العالم، ولم يأخذ السائق أيّة أجرة رغم إصرار حميد، وعندما كان يغادر أيّة سيارة أجرة كان ينتبه جدًّا أن يكون قد دفع مالاً بمقدار كاف، وأحياناً عندما كان يشعر أنّ السائق قد أخذ مقداراً أقل كان يقول: هل كانت الأجرة قليلة فنكون مدينين لك؟

وعلى مدخل منزل عمّتي كان هناك أربع درجات ثمّ الغرف، كان حميد يقطع هذه الأدراج الأربعة بقفزة واحدة سواء عند الذهاب أو العودة، وهذه المرّة قفز عليها كالعادة فقلت: عندما رأيتَ أباك وأمّك شعرت بالسرور، تذكّرت طفولتك وشقاوتك، وصرت ذلك الصبيّ الذي يبلغ من العمر سبعة أو ثمانية أعوام.

كان سعيد وزوجته قد حضرا أيضاً، وبعد العشاء جلسنا معاً نشاهد التلفاز، وسط المسلسل أحضرت لنا عمّتي الرمّان، ولأنّي كنت أعلم أنّ حميداً يحبّ الرّمان من بين جميع الفاكهة فقد قدمت له حصّتي، كان يحبّ الرمان كثيراً لدرجة أنّه كلّما ذهبنا خارج البيت اشترى اثنين أو ثلاثة كيلوّات منه، ولم يكن يعذّب نفسه فقد كان يقول: فرزانة أحبّ أن تفصلي حبات الرمان عن القشور ونتاولها بالملعقة ونحن نشاهد التلفاز.

وعندما كان يذهب إلى النادي الرياضي أو الهيئة كنت أحضر وعاء زجاجياً وأضع فيه حبات الرمان، وعندما كنت أرى لون الحبات الأحمر كنت أغرق في التفكير والخيالات الجميلة، وأقرأ بلا إرادة منّي أشعاراً قد حفظناها منذ الطفولة:

«صد دانه ياقوت دسته به دسته بانظم وترتيب يك‌جا نشتسته»

أي:

حبّات الياقوت جنباً إلى جنب جلست بانتظام في نفس المكان.

وكثيرا ما كنت أغفل عن نفسي وأقول الشعر مسرورة وأستمتع بفصل حبّات الرمان عن قشورها ليتناولها حميد، ولأنه لم يكن يحبّ الزعتر

البري[1] كنت أضع عليها الملح فقط وأضعها داخل البراد، وعندما كان يأتي إلى البيت لم يكن يحتمل، ولأنّ طعمها حامض لم أكن أنا أحتمل تذوّق أكثر من ملعقتين أو ثلاث، ولكنّه كان يأكل كلّ حبات الرمّان في طبق كبير بهذا الحجم.

وبعد السهرة استعدّينا للذهاب إلى هيئة خيمة العباس، وجاء سعيد وزوجته معنا، وكان برنامجنا كلّ أسبوع على هذا النحو، وبعد العشاء كنّا نذهب أربعتنا إلى الهيئة، ومع بضعة نساء كنّا نحضّر الضيافة بعد انتهاء المراسم، وكانت الجلسات المحبّبة بعد الهيئة لها عالمها الخاص، كانت النساء في الطابق الأعلى والرجال في موقف المبنى الذي جعل كالحسينيّة.

وحتّى نعود من الهيئة تكون قد مرّت ساعة على انتصاف الليل، ومن التعب كنت أحبّ أن أعود إلى البيت باكراً، وعندما وصلنا إلى زقاق بيتنا كان الرجل العجوز المعوق قد جلس أمام بيته، وكان هذا دأبه كلّ يوم، كان يحضر كرسياً ويجلس أمام الباب، وعندما كنّا نمرّ من قربه كان حميد يسلّم عليه باحترام ويمضي، وحتى عندما نكون على الدراجة كان حميد يوقفها وبعد السلام وسؤاله عن حاله كنّا نكمل طريقنا.

وفي تلك الليلة سلّم بحفاوة وحرارة على الرجل، وبعد أن ابتعدنا عنه كثيراً قلت: حميد ليس من الضروري أن تسلّم كلّ مرّة على هذا الرجل، هذا العجوز لا ينتبه أصلاً؛ لأنّه مختلّ عقليًّا ولا يبقى شيء في ذهنه. فقال حميد: لا يا عزيزتي، هذا الرجل لا ينتبه ولكن أنا أنتبه، اطمئنّي ستجدين يوماً نتيجة محبّتي لهذا الرجل. وهذا ما حدث بالفعل ففي يوم عسير وجدت نتيجة هذه المحبّة.

---

١ من المعتاد أن يؤكل مع الرمّان في إيران.

البرّي[1] كنت أضع عليها الملح فقط وأضعها داخل البراد، وعندما كان يأتي إلى البيت لم يكن يحتمل، ولأنّ طعمها حامض لم أكن أنا أحتمل تذوّق أكثر من ملعقتين أو ثلاث، ولكنّه كان يأكل كلّ حبات الرمّان في طبق كبير بهذا الحجم.

وبعد السهرة استعدّينا للذهاب إلى هيئة خيمة العباس، وجاء سعيد وزوجته معنا، وكان برنامجنا كلّ أسبوع على هذا النحو، وبعد العشاء كنّا نذهب أربعتنا إلى الهيئة، ومع بضعة نساء كنّا نحضّر الضيافة بعد انتهاء المراسم، وكانت الجلسات المحبّبة بعد الهيئة لها عالمها الخاص، كانت النساء في الطابق الأعلى والرجال في موقف المبنى الذي جعل كالحسينيّة.

وحتّى نعود من الهيئة تكون قد مرّت ساعة على انتصاف الليل، ومن التعب كنت أحبّ أن أعود إلى البيت باكراً، وعندما وصلنا إلى زقاق بيتنا كان الرجل العجوز المعوق قد جلس أمام بيته، وكان هذا دأبه كلّ يوم، كان يحضر كرسياً ويجلس أمام الباب، وعندما كنّا نمرّ من قربه كان حميد يسلّم عليه باحترام ويمضي، وحتى عندما نكون على الدراجة كان حميد يوقفها وبعد السلام وسؤاله عن حاله كنّا نكمل طريقنا.

وفي تلك الليلة سلّم بحفاوة وحرارة على الرجل، وبعد أن ابتعدنا عنه كثيراً قلت: حميد ليس من الضروري أن تسلّم كلّ مرّة على هذا الرجل، هذا العجوز لا ينتبه أصلاً؛ لأنّه مختلّ عقليًّا ولا يبقى شيء في ذهنه. فقال حميد: لا يا عزيزتي، هذا الرجل لا ينتبه ولكن أنا أنتبه، اطمئنّي ستجدين يوماً نتيجة محبّتي لهذا الرجل. وهذا ما حدث بالفعل ففي يوم عسير وجدت نتيجة هذه المحبّة.

---

١ من المعتاد أن يؤكل مع الرمّان في إيران.

وفي شهر شهريور[٢] ذهبت إلى مشهد في رحلة جامعيّة، وفي الأسفار التي كنت أذهب فيها وحدي لم يكن لدى حميد مشكلة ولا عندي، لأننا كنا مطمئنّين للرفاق الباقين وللمجموعات، وكلّ اللحظات التي كنت أذهب فيها في هذا السفر إلى الحرم كنت أتذكّر أيام شهر العسل، الأيام التي بقيت دموعها وضحكاتها في عقلي إلى الأبد، وحلاوة الزيارة مع حميد لن تتكرّر أبداً.

وبعد الزيارة أولاً من صحن الجامع الرضوي اتّصلت بحميد، وكان حديثنا ممتعاً للغاية، وعند توديعه قلت له: حميد اليوم هو يوم الجمعة، لا تنس صلاة الجمعة، لا تبق في المنزل، تكسب الثواب و يمضي الوقت بسرعة ولا تتأذّى من البقاء وحيداً. فضحك وقال: أولست تعلمين! فأنا من بعد إذنك مع رفاقي على البحر، وقد سبحنا كثيراً وشاغبنا وصلّينا، وسنذهب الآن لتناول الغداء، فما إن ركبت أنا في القطار حتّى ذهب مع أصدقائه إلى الشمال، وكان كثيراً ما يذهب في أسفار غير متوقّعة كهذه ليوم واحد، وبقوا للساعة الثامنة على البحر، وكان قلبي مضطرباً جدّاً وكلّما كنت أتّصل كنت أقول له: حميد البحر خطر، والطريق مزدحم، فلا تتأخّر.

وفي اليوم الأخير لسفرنا وبعد زيارة الوداع ذهبت مع أصدقائي إلى السوق لشراء هديّة، أحببت أن أشتري لحميد هديّة جميلة، وبعد بحث طويل لفت انتباهي قميص ذو مربّعات، أزرق اللون داخل واجهة أحد المتاجر، وهو ما اشتريته لحميد.

وعندما عدت من مشهد جاء لاستقبالي ومن طريقة تصرّفاته وكلامه أدركت جيّداً أنه اشتاق لي كثيراً هذه الأيام، ولم أكن أنا بأقلّ منه

---

٢ الشهر الثاني من الشهور الإيرانية.

اشتياقاً، وعندما وصلنا إلى البيت كان كلّ شيء مرتّباً، وكان قد أعدّ المعكرونة للغداء، ولكن بدلاً من اللحم المفروم قد وضع قطعاً كبيرة. وقال: نريد لقدوم السيّدة فرزانة أن يكون الغداء كغداء الأعيان، ما هو اللحم المفروم؟! إنّه صغير جداً لا يليق بها.

وعندما فتح حميد علبة القميص الهديّة ولبسه كان مقاسه كبيراً جدّاً فقلت: حبيبي حميد ليس من نصيبك، لقد جلت السوق كلّه أبحث عن هذا القميص، ولكنّ مقاسه جاء كبير جدًّا. فقال: لأنّكِ أنت اشتريتِه فهو جيّد جداً، وسألبسه من الغد، وبألف مشقّة وتعب قبل حميد أن يخلع القميص. ولأنّي كنت أعلم أنه لن يترك هذا القميص، ذهبت إلى صاحب المنزل، فقد كان السيد كشاورز خياطاً، فأعطيته قميصاً من قمصان حميد مع هذا القميص ليجعله على مقاسه.

وبعد الظهر مع أنّي كنت متعبة من الطريق وعائدة للتوّ من السفر، لم أستطع أن أقول: لا عندما اقترح عليّ حميد أن نذهب خارجاً للتنزّه، وبعد عدّة أيام من البعد، كان التنزّه مع حميد وفي آخر أيام الصيف جميلاً جدّاً، وفي عصر طويل حيث بدأ الهواء يعتدل شيئاً فشيئاً وتشمّ منها رائحة الخريف، وكانت أوراق الأشجار قد بدأت بالاصفرار، وكان صوت الأوراق المتكسّرة تحت أقدامنا يبعث في النفس شعوراً بالحميميّة.

ووسط الطريق ذهبنا إلى محلّ لبيع المثلّجات، فاشترى حميد اثنتين كبيرتين من المثلّجات، وفي الحقيقة قد اشتراهما لنفسه لأني عادة وبعد أن أتناول عدّة ملاعق من المثلجات كانت حلاوتها تؤذيني، لذا كنت أعطي البقية لحميد، ولكن هذه المرة تحمّلت وأكلتها مع حميد حتى النهاية، ومن الملعقة الخامسة والسادسة ،كانت كلّ ملعقة أخرى أتناولها يتابعني حميد بعينيه وعندما فرغ الكوب، نظر إليّ وفهم أنّ خطّته لم تنجح هذه المرّة لأكل المزيد من المثلجات فقال: أكلتِها حقّ

النهاية؟! ألم تتأذي؟! يعني لم تتركي حتى ملعقة منها؟ فقلت ضاحكة: عفواً يا حبيبي، ألم تشترها لي؟ لم أرك منذ أيام، والآن عندما عدت إليك عادت لي شهيّتي، هذه المرّة أحببت أن آكلها حتى آخرها. ابتسم ثمّ وقف واشترى لنفسه المثلّجات مرّة أخرى.

وبعد يومين أو ثلاثة وعندما أصبح القميص جاهزاً نادتني السيّدة كشاورز كالعادة بكلامها الحلو «أمي فرزانة» وأعطتني القميص قائلة: ابنتي، العام الماضي عندما قمنا بالنذر في محرّم تأذّيتم معنا، لأنّنا وكي نضع طعام الـ (آش)[٣] على النار وطعام النذر كنّا ندخل إلى الشرفة ونخرج كثيراً، ويقول السيّد كشاورز إن وافقتم تذهبون أنتم إلى الطابق العلوي ونحن نأتي إلى الأسفل، أخبرت حميداً بموضوع الانتقال فكان موافقاً على هذا التغيير وقال: من جهة أنّه مساعدة لهذين المسكينين، حتى لا يصعدا وينزلا كلّ يوم على هذه الأدراج، ولكن بعد المسابقات المحليّة في الكاراتيه ننتقل ببال مرتاح.

❋ ❋ ❋

وعندما انطلق حميد إلى مسابقات القوى المسلحة المحليّة كنت أشغل نفسي بأيّ شيء حتى أخفّف ألم فراقه، وكنت أدعو له في صلاتي كي يوفّق، وكان قلبي مضطرباً، واستمرّت المسابقات لمدّة ثلاثة أيام، كنت أحبّ أن يعود حميد بسرعة، ويوم المسابقة مهما حاولت لم يخبرني بالنتيجة.

وقرابة الغروب رنّ جرس الباب، وبحماس فتحت جهاز الأنترفون ورحت أنتظره على الباب، وعندما نظرت بدقّة لاحظت أنّ شفته العليا ممزّقة،

---

[٣] طعام إيراني يتكون من الخضار والحبوب.

وكان يمشي متثاقلاً، وكانت رؤية هذا المشهد تحمل لي الكثير من العذاب، حتّى أني لم ألتفت إلى الهدايا والميداليات التي يحملها، لقد حاز على المرتبة الثالثة في مسابقات القوى المسلحة، ومن اللحظة الأولى بدأ احتجاجي: لماذا لم ينتبه خصمك؟! لماذا شفتك ممزقة؟! ما هذه المسابقة؟ لا بدّ أنّ الحَكَمَ كان ينظر فقط.

أراني حميد جائزته وقال مبتسماً: هي مجرّد مسابقة، وأنت تعلمين في هذا النوع من المسابقات يحدث الكثير من هذا، ولقد أريت خصمي الكثير من الضربات، وقد خجلت منه كثيراً، فلا تقلقي.

كنت أعلم أنه يقول هذا ليريح بالي، لأنّ أخلاقه لم تكن بذاك النحو، فلم يكن ليؤذي خصمه حتّى أثناء المسابقة، وكان إصبعان في قدمه قد تأذّيا فضمدتها بلاصق الجروح ولففتها ووضعت على شفته الممزقة معقماً، وكنت أريد لحين ولادة أبناء أخيه أن يتعافى بالكامل ولا يبقى أيّ أثر لهذا التمزّق على وجهه.

وبقيت عدة أيام على شهر محرّم، وفي أوائل شهر «آبان»[٤] انتقلنا إلى الطابق العلوي، وكان الانفصال صعباً عن الفضاء الذي بدأنا فيه حياتنا المشتركة، ولو بهذا المقدار، فلنا ذكريات في هذا المكان زواية زاوية، ومع أن البيت كان صغيراً، ولكنّه كان يذكّرني بأفضل الأيام مع حميد. وقبل عدّة أيّام وضعت الأغراض داخل صناديق، ويوم الانتقال كان عندي دوام جامعي، وعندما عدت رأيت حميداً مع صاحب المنزل وابنه وقد نقلوا كامل الأغراض تقريباً وحدهم، ولأنّ المبنى كان قديماً، وكانت سلالمه ضيّقة وغير مرتّبة، وبألف مشقّة ومشقّة نقلوا الأغراض إلى الأعلى وأحضروا أثاث صاحب المنزل إلى الأسفل، وكان حميد عادة

---

٤ الشهر الثامن من الشهور الإيرانية.

يحبّ أن يقوم بهذه الأعمال بنفسه حتّى لا يزعج أحداً، لذا لم يخبر أحداً. كان الطابق العلوي صغيراً كالآخر السفليّ، مع فارق واحد هو أنّ غرفة الاستقبال كانت أكبر وغرفة النوم كانت أصغر، وكان هناك اثنتا عشرة درجة حتى بداية الدرج الثاني، ثمّ ثلاث درجات حتّى تصل إلى الطابق العلوي، وكان باب المدخل قديماً في وسطه زجاج ملون، ولم يكن في أرض غرفة النوم والاستقبال أي أثر للسيراميك والبلاط، وقد فرشت جميعها بالاسمنت.

نظفنا أنا وحميد الأرض والجدران، ثم مسحناها وجففناها، وعندما أنهينا تنظيف الغرفة وضعنا فيها عدداً من الورق المقوّى، ثمّ فرشنا الموكيت ورتّبنا الأغراض، وداخل غرفة الاستقبال فرشنا سجّادتين بعرض ستة أمتار ولكن بقيت من جديد السجادة ذات الاثني عشر متراً بلا فائدة.

وكان المطبخ في الطابق العلويّ صغيراً، فيه خزانتان فقط، لذا بقي كثير من الأغراض كطقم الزجاج في الصناديق على مطلع الدرج المؤدي إلى السطح، وكانت غرفة الاستقبال أكبر لذا جلبت إلى بيتنا بعض أغراض الجهاز التي بقيت في منزل أبي كطاولة السفرة وطاولة التلفون، وفي مقابل باب المدخل كان هناك رفّ قديم، وضعنا عليه الورد الذي أحضره لي حميد في يوم عيد ميلادي مع صورة السيد الخامنئي، كان البيت بسيطاً ولكنه مليء بالحب والفرح، وأحياناً تكون البساطة رائعة.

ومنذ ذلك الحين عندما كان حميد يريد أن يجتاز السلالم كان يقول يا الله لعدّة مرات حتّى ينتبه الجيران إذا كان باب مدخلهم مفتوحاً. وألصق إلى جانب باب المدخل حديثاً عن الإمام الباقر، حيث كان يقرؤه كلّ صباح عندما يريد مغادرة المنزل.

والنقطة المشتركة بين الطابق العلوي والآخر السفلي هو صوت

الأولاد الذي يأتي من الزقاق طوال اليوم، كان بيتنا في حيّ مزدحم في قزوين وهو شارع نوّاب، وداخل الزقاق كانت هناك دائماً ألعاب وشغب ومشاكل بين أولاد الحي. وقد أبدأ حديثاً فصل الامتحانات، وكنت جالسة أراجع في كتابي، ومن كثرة الضجيج كنت أقرأ الصفحة لعدّة مرات ولم أكن أفهم شيئاً، ومن صوت الأولاد تشتت ذهني، ولم أستطع التركيز في موضوع الكتاب، رميت كتابي وجلست أبكي بشدّة وقلت: هذا المكان ليس للدرس، وقبل زواجنا كنت حسّاسة هكذا وفي أوقات كهذه وفي الليالي التي يكون فيها عندي امتحان وعندنا ضيوف كنت أذهب إلى مستودع المنزل لأدرس.

وفي هكذا أوقات كان حميد يقوم بدور الوسيط ويبدأ بالكلام، اهدئي فرزانة، أيهما أفضل أن يلعب هؤلاء الأولاد بنشاط أفضل أو لا سمح الله يمرضون وينامون في المنزل، أن يكونوا مليئين بالحماس والحركة أفضل أو أن يذهبوا إلى الألعاب الكومبيوتريّة أو الهاتفيّة؟! غداً عندما يريد أولادنا أن يلعبوا ستقولين هذا الكلام. وبكلامه كان يهدّئني، وشيئاً فشيئاً عرفت أن أفضل أوقات المطالعة والدرس هو بعد منتصف الليل. فكنت أبدأ بالدرس أوقات الامتحان من الثانية عشر فما فوق، لخلوّ الزقاق من الضجيج فيه. وبهذه الطريقة استطعت أن أراجع كتاباً من أربعمئة صفحة لأوّل امتحان، وبعد الامتحان كنت سعيدة لأني استطعت أن أجيب على أكثر الأسئلة بشكل صحيح، مشيت نحو المنزل، وعندما وصلت إلى البيت انتبهت أن كلّ الغرف والمطبخ يعلوها الدخان، فقلت لا بدّ أن حميد قد أشعل البخور، ولكن هذا الدخان أكثر من إشعال بخور، وعندما دخلت إلى المطبخ فهمت أن حميد قد أحدث خراباً ما، نعم رأيت زاوية سجّادة المطبخ قد احترقت فسألت: حميد لم هذا الدخان؟! ولماذا طرف سجادة

المطبخ محترقة؟! أجابني: أحببت أن أشعل البخور قبل أن تأتي، ولكن فجأة سقط إناء البخّور من يدي وأحرق زاوية السجادة. وكانت خلافاتنا يغلب عليها طابع المزاح والضحك فقلت: شكراً لك، لقد جعلت جهازي ناقصاً، يجب أن تشتري سجّادة مثلها، وكان إلى جانب احتراق السجادة أن بقيت ليومين أحمل بيدي منشفة وأدفع الدخان من الشبابيك خارجاً، وكلّ من كان يأتي إلى منزلنا يعتقد أن المنزل قد احترق بالكامل.

وأيام محرم ومع أنّ الهواء كان بارداً تقريباً كنّا نذهب إلى الهيئة بالدرّاجة الناريّة، وليلة التاسع كان الهواء بارداً جدًّا، ومع ذلك ذهبنا بالدراجة، وقال حميد ممازحاً: لو أنّ أحداً الآن يضرب بعصا الشرطة لما خرج من بيته، ونحن نذهب إلى الهيئة بالدرّاجة، وضع يده على ركبتي وقال: هل تثلّجت قدماك يا فرزانة، لا تحزني سأشتري لك سيّارة وبعدها لن تشعري بأذى، وضعت يدي داخل جيب معطف حميد، ووضع هو يده على يدي، وإلى جانب برودة الهواء ولسع البرد الليلي لطقس قزوين الخريفيّ، كان الشيء الوحيد الذي يدفئ قلبي محبّة يدي حميد العطوفتين على الدوام.

وفي تلك الليلة، وكسابقاتها من الليالي التي كنا نذهب فيها إلى الهيئة، لطم كثيراً، كان يقف في وسط الحضور في خيمة العبّاس ويلطم إلى حدّ جعلني أشعر أن جسمه لا يحتمل كلّ هذا اللطم، عندما خرج من هناك كان صوته مبحوحاً، و عيناه حمراوتان، وبصوته المبحوح هذا كانت أول جملة قالها: تقبّل الله، وكان يسعى جيداً أن لا ينظر بشكل مباشر إلى عيني، حتّى لا أنتبه إلى احمرار عينيه، لم يكن من محبّي الحماس والهيجان في اللطم ولكن كان يلطم كثيراً، وكان يحبّ أكثر شيء لطميّات الحاج مطيعي، وعندما أقام في دورة لتعلم قراءة العزاء للشباب، كان يوصي الأستاذ قائلاً: لا تعلّمهم الحماس، علّمهم قراءة

العزاء حيث يستطعيوا البكاء وسط المجلس.

كانت ليلة مقتل العباس ليلة مميّزة عند حميد، وفي العودة عندما ركبنا الدرّاجة قال: أحبّ أن أكون مثل أبي الفضل مدافعاً عن الحرم وأفدي السيّدة زينب عليها السلام بيديّ وأرجلي، وعندما رأيت كلّ هذا اللطم وتأثّر وجهه قلت: حميد الطم أقل، أو على الأقل بشكل أكثر هدوءاً، ليس من الضروريّ أن تؤذي نفسك. وكان جوابه ملفتاً بالنسبة لي: فرزانة، هذا الصدر بسبب اللطم لا يحترق أبداً لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة، ولعدّة مرات كرّر هذه الجملة حول اللطم، وقد انتبهت لسرّ هذا الكلام فيما بعد.

منذ وقت طويل لم أكن أحبّ الرسائل الهاتفيّة، كنت أحبّ أن أكتب له بخط يدي كتابات قصيرة، ولأنّ حميداً كان يخرج عادة قبلي من المنزل، ويعود إليه قبلي، كلّ ورقة كانت تقع في يدي كنت أكتب له شيئاً عليها، كنت أخبرها فيها: إلى أيّ ساعة عندي درس، كيف يسخن الطعام، أوصيه أن ينتبه لنفسه، أبرز له محبّتي أو حتّى فقط أكتب له سلاماً. في كلّ يوم كنت أكتب شيئاً وأضعه على الجدار الفاصل بين الغرفة والمطبخ أو على المرآة، كان هذا يعجبه كثيراً، وكان يقول رغم أنّ كتاباتك قصيرة ولكن كانت تخرج كلّ التعب من جسمي، وكان يقول: سأفاجئك ذات يوم بكلّ هذه الكتابات.

وللمشاركة في دورة من يوم واحد كان عليّ الذهاب إلى طهران، أعددت طعام اللوبيا والأرز «لوبيا پلو»[٥] غداء لحميد وكتبت له: سلام حبيبي

---

٥ طعام إيراني يتكون من اللوبياء والأرز واللحم.

حميد، اليوم أذهب إلى طهران وأعود عند الغروب، وأثناء تسخين الغداء انتبه لنفسك، وأوصل لنفسك مني سلاماً حارًّا.

علّقت الورقة على الثلاّجة وخرجت من البيت، وانتهت الدورة قبل الوقت المعلن لها، وحوالي الساعة السادسة كنت في الزقاق، وكان الأولاد يلعبون كرة القدم هناك، وكان الرجل العجوز كالعادة قد وضع كرسيًّا وجلس أمام الباب، وعندما أردت أن أبتعد عنه تذكّرت كلام حميد فسلّمت عليه وسألته عن أحواله، وقلت في نفسي: لا بدّ أنّ حميداً نائم الآن، لذا لم أرنّ الجرس، فتحت الباب بالمفتاح وصعدت إلى الأعلى، وما إن فتحت الباب حتّى وجدت أنّ دخاناً كخان أحد المصانع يصطدم بوجهي، كدت أختنق، لم أستطع أن أرى شيئاً، ولأن الطقس كان خريفيًّا سرعان ما كان يعمّ الظلام والشيء الوحيد الذي كنت أراه هو الضوء المنبعث من شاشة الحاسوب.

وعندما صرت داخل الغرفة رأيت حميداً شارداً يجلس أمام الشاشة، وما إن رآني حتّى رفع رأسه وانتبه لكلّ هذا الدخان فقلت: حميد ما الذي حدث هنا؟ أين أنت يا رجل؟ ممّ هذا الدخان؟ هل تناولت طعامك؟ وفجأة قال: يا ويلي، ثمّ ركض باتجاه المطبخ، ومن الساعة الثانية والنصف عندما عاد حميد إلى المنزل أشعل النار ليسخّن الطعام، ثمّ ذهب للجلوس أمام حاسوبه ومشروعه الجامعي، وقد غرق في العمل كثيراً حتّى نسي أنه أشعل النار، لم يتبقّ شيء من الطعام الذي غدا قديداً واحترق القدر أيضاً، ومن حسن الحظّ أنّ المنزل لم يحترق. كنت أعلم، لأنّ الطعام «لوبيا پلو» فقد نسيه، ولوكان فسنجان[٦] لم يكن لينتظر حتى يسخن بل لأكله وهو لا زال على النار.

---

٦ طعام إيراني يتكون من الجوز والدجاج أو اللحم.

وفي خريف ٩٣ كنا نذهب كلانا إلى الجامعة، وعادة كان حميد يجلس عصراً أمام الحاسوب ويتابع كتابة المقالة والتحقيق وأعماله الجامعيّة. دخلت إلى الغرفة وحاولت إلهاءه قليلاً، وبعد نصف ساعة دخلت إلى الغرفة من جديد وهذه المرّة أغلقت عينيه وقلت: يكفي هذا يا حميد، تعال واجلس معي، إن بقيت على هذه الحال ستشعر بالتعب، أحببت أن أسهّل عليه الدرس بالضحك والمزاح.

وعندما كنت أنا اجلس أمام شاشة الحاسوب كانت القصّة نفسها تتكرّر، كان حميد يناديني كلّ نصف ساعة، حبيبتي تعالي لنتناول الفاكهة، لقد اشتقت إليك، وعندما أتأخّر قليلاً كان يطفئ الجهاز، كنت ألحق به فيختبئ داخل الممرّ ويقول: حسناً ماذا أفعل؟! مهما ناديتك قائلاً اشتقت إليك لا تأتين.

لقد كان حميد في الفصول الأخيرة للتخرّج من قسم المحاسبة المالية، وقد حفظ كلّ منّا دروس الآخر تقريباً، كان حميد يحبّ دروسي، وأحيانا كان يقرأ في الملخّصات، وكنت أنا أيضاً أحبّ الرياضيّات، فأحياناً كان يحلّ المعادلات الرياضيّة ويريني إياها حتى نرى الحل معاً.

وكان موضوع بحثه لنهاية الفصل هو « دور الخصخصة في المحاسبات الماليّة» وكان بعض زملائه في الجامعة وعن طريق دفع المال يطبعون أبحاثاً جاهزة، ويحصلون على علامة وينتهي الأمر، ولكنّ حميداً كان يبحث ويحقّق في البحث صفحة صفحة.

ولأني أنهيت الأطروحة الخاصّة بي ساعدته قدر ما أستطيع، وقسمنا العمل فيما بيننا، كان العمل الميدانيّ والبحث وإشكالاته لحميد، وأعمال الطباعة والتصنيف وترتيب الموضوعات لي، وبعد جهد

مستمرّ ليل نهار انتهى العمل، وقدّمت نتيجة العمل إلى أستاذي، وانتبهنا للإشكالات، وناقش حميد بحثه وحصل على علامة عشرين وكانت علامة حقيقيّة بالفعل.

وفي اليوم التالي لمناقشة البحث أصبنا أنا وحميد بالزكام، لقد استبدّ بنا سعال عجيب وكتب لنا الطبيب نسخة من الأدوية، وعندما اشترينا الأدوية ركبنا في التاكسي حتى نذهب إلى البيت وكان السائق قد وضع في مسجل السيّارة مجلس عزاء ، وكانت حالتنا سيّئة، ودائماً يرتفع صوت سعالنا أو نمسح أنفينا، فاعتقد السائق أننا نبكي على صوت العزاء الذي يقدّم.

وعندما وصلنا إلى أول الزقاق وضع حميد يده في جيبه حتى يدفع الأجرة للسائق فقال هذا الأخير، سماحة الشيخ من الواضح أنك أنت والسيدة زوجتك من أهل العزاء ليس هناك من داع لدفع الأجرة، ادعوا لنا فقط. ولم يقف حتّى نتكلّم شيئاً، ثمّ داس على البنزين ورحل، جلسنا أنا وحميد قرب القناة نضحك نصف ساعة، ولم نستطع أن نتوقّف عن الضحك، وكان حميد يقول بمزاح: ابك أقلّ أيّتها السيدة! وما إن كان يقول هذا حتى كنّا نتذكّر السائق ونبدأ بالضحك، كانت تصرّفات حميد وسلوكه يجعلان الكثيرين كهذا السائق يعتقدون بأنّه من طلبة العلوم الدينيّة فينادونه بسماحة الشيخ، وكان حميد يقول لي دائماً بأنه سيد لأنه من جهة جدّته لأبيه يعود نسب حميد للسادة.

وفي الأشهر الأربعة الأخيرة لعام ٩٣ ولد أبناء إخوة حميد واحد تلو الآخر، كوثر ابنة السيد حسن الأخ الأكبر لحميد في الثامن من شهر آذر[٧]، نرجس ابنة سعيد الأخ التوأم لحميد في الثاني والعشرين من

---

٧ الشهر التاسع من الشهور الإيرانية.

شهر آذر وتحديداً ليلة الأربعين، ومحمد رضا ابن حسين في السابع من شهر اسفند[٨].

وعندما كنّا نجتمع معاً كان بكاء الأطفال يتواصل، فكان الجوّ جميلاً. فما إن يسكت أحدهم حتى يشرع الآخر بالبكاء، وكان حميد حتّى ذلك الحين لم يتحدّث بموضوع الإنجاب، ولكن بولادة أبناء إخوته صار يحبّ كثيراً، وكان حماس حميد هذا للأطفال يبعث في الأمل، كنت أشعر أنّ حياتنا كشجيرة صغيرة تريد أن تعطي أغصاناً وأوراق، وسنعيش مع بعضنا البعض لسنوات.

وبعد يوم من ولادة نرجس، ذهب حميد في مهمّة عسكريّة إلى لوشان لمدّة خمسة عشر يوماً، وعادة لم أكن أسأل عن مهمّاته كثيراً إلا معلومات عامّة حيث أقوم باستجوابه حتّى أعرف الأوضاع في أيام الخدمة هذه، وبالمزاح والضحك أجمع عدّة معلومات من حميد، وكان لا يتحمّل الدغدغة أبداً، وعندما عاد هذه المرة من لوشان اقتربت منه ورحت أدغدغه وأساله: قلت له: حميد إن وقعت بيد داعش يكفي أن يعرفوا بأنّك تتدغدغ وستعترف بكلّ شيء من أوّل دقيقة.

ولكنّ حميداً كان قد تذاكى، فعندما سألته وأنا أدغدغه: من قائد الحراسة؟ قال: تقي مرادي، فقلت: مسؤول المخابرات؟ قال: تقي مرادي، وكل سؤال كنت أسأله كان يقول اسم أبي فقلت ضاحكة: شكراً لأبي على اختيار هذا الصهر، يجب أن تكشف اسم والد زوجتك في النهاية لا أن يكون أول فرد تعترف به. فضحك حميد وقال: قومي بدغدغتي حتّى الصباح فأنا لا أعرف غير هذا الاسم.

وأحياناً كان يتحدّث عن التعليمات التي رآها أو الأشياء التي تعلّمها في

---

٨ الشهر الثاني عشر من الشهور الإيرانية.

مأموريّاته العسكريّة، وفي دورة لوشان قالوا له: «إذا رأيت بقرة تذهب إلى مكان ما فاعلم أنّ هناك أمراً مشكوكاً فيه، لأنّ البقرة حيوان فضولي وكلّ جهة يذهب إليها لا بدّ أنّ فيها شيئاً خاصاً، أمّا الأغنام فهي على عكس الأبقار، فعندما ترى الأغنام تبتعد عن مكان فاعرف أنّ هناك شيئاً مشكوكاً به، لأنّ الغنم حيوان جبان، ومن أصغر صوت يسمعه أو شيء يراه يبتعد عن المكان.

وبعد سؤال مطوّل عن أحواله أراني جميع الصور التي التقطها في لوشان، وكانت هي المرّة الأولى التي رأيت فيها حميداً قد التقط الصور بأشكال عديدة، وخصوصاً باللباس العسكريّ الأزرق، وكانت واضحة في الصور لصاقات الجروح التي وضعتها على أصبع قدمه بعد مسابقة الكاراتيه، وكنت غارقة في مشاهدة الصور ومن كلام حميد لم أستطع أن أكمل النظر إلى باقيها حيث قال لي: لقد التقطت هذه الصور من أجل يوم استشهادي، وأنت تنظرين إليها الآن، فأيّها أفضل لتكون لإعلان شهادتي؟

شعرت بقلبي يسقط من مكانه، لم يكن لحن كلامه لا جادٌّ ولا ممازحاً، ولأنّه كان يقول بشكل عادي كنت أتأذّى، لم أعرف بما أجيبه، ومنذ الخطوبة كلّما كنت أنظر إلى الصور التي في هاتفه كان يسألني أيّة صورة هي الأفضل ليوم شهادتي، لم أكن آخذ الموضوع بجديّة، وكنت كلّ مرّة أغير الموضوع بالمزاح ولكن هذه المرّة صعقت بشدّة وخفق قلبي.

لم أرغب في إكمال هذا الموضوع، ولم يخطر في بالي أيّ شيء، سألته: هل أصبحت قدمك أفضل، كيف كان الطقس هناك؟ لم تجلب هدايا معك؟ سكت قليلاً ثم ضحك وقال: لشدّة ما ركضنا هناك صارت قدمي جيّدة جدًّا، وحتّى أذهب إلى منزل أمّي أزورها اختاري واحدة من بين هذه الصور، لنرى كيف هو ذوق زوجة الشهيد.

وعندما ذهب لزيارة عمّتي اتصلت بأبي وقلت له: أبي العزيز، لقد عاد حميد للتوّ من خدمته، واليوم لن يأتي إلى النادي الرياضيّ، فاستلم لو سمحت مهمّة تدريب الأولاد، وهذه الحساسيّة اتجاه حميد اشتهرت بين الجميع فصاروا يعرفون الأمر، ضحك أبي على الهاتف وقال: حميد ابن أختي، وعندما اخترت له اسمه لم تكوني ولدتي بعد، والآن كأنّك تحبّينه أكثر ممّا أحبّه، لا تكوني ملوكيّة أكثر من الملك.

وبعد أن ودّعته عدت إلى الصور من جديد، وبكيت بشدّة لكلّ صورة، وكانت المرّة الأولى التي أرى حميداً فيها بهذا الشكل، كان هناك نور خاص يخيفني، هو النور نفسه الذي كان رفاقه العسكريّون وفي الهيئة يقولون عنه بمزاح: حميد نورك يتصاعد، ضع شيئاً لتغطّي به وجهك، وكانت تلك الحالات كثيراً ما تبدو على وجه حميد لدرجة أنهم كانوا يكتبون على صوره الشهيد حميد مرادي، أو بسبب الشبه الذي كان بين عينيه الخجولتين وبين الشهيد محمد أبراهيم همت كادوا ينادونه حميد همّت، وإحدى صديقاتي التي كانت تعرف حميداً كانت تقول لي دائماً: لا أدري متى؟ ولكني متأكدة أنك تصبحين زوجة شهيد، وإن لم يستشهد فأنا سأشك في عدالة الله وكانت تعشق هذه الأشياء ولكني قلت لها: لا يزال الوقت مبكراً، مبكراً جدًّا فلا داعي أن تتكلّمي عنه.

وبعد ذهابه إلى مهمّة لوشان بدأ يتكلم بالذهاب إلى سورية أو العراق وكان يقول: أنا علي أن أذهب إما إلى العراق أو إلى سوريا لست باقياً هنا.

وبعد سبع سنوات من عضويته في التعاقد صار حميد حديثاً متفرّغاً، وفي الإجابة على كلامه كنت موافقة حتّى يرتاح باله ولكن في قلبي لم أستطع القبول، حديثاً اعتدنا على بعضنا، وحديثاً وجد أحدنا الآخر.

كان حميد جالساً قرب المدفأة يطالع كتاب علل الشرائع للشيخ الصدوق، الكتاب الذي كان يبحث عنه منذ مدّة حتى وجدته أنا واشتريته له كهديّة، وبينما كنت أقشّر له الفاكهة وأضعها في طبق كنت أختلس النظر إليه، وكلّ صفحة كان يقرأها كان يضع يده على ذقنه ويغرق لدقائق في التفكير، ولم يكن يبتعد طوال الشتاء عن المدفأة، كان شديد الإحساس بالبرد، وكان يكفي أن يبرد الهواء قليلاً حتى يصاب بالزكام، عندما كان يعود من العمل كان مباشرة يضع يديه على المدفأة، وأحياناً عندما كان يعود من الخارج كان يجلس على المدفأة كنت أقول له: حميد يوماً ما بسبب جلوسك على المدفأة سيقطع أنبوب الغاز وعلى غفلة منا لا سمح الله سنصاب بالاختناق في أحد الليالي، فكان حميد يقول: حاضر، سأنتبه، ولكن اعلمي أنّ الأعمار بيد الله.

وضعت الفاكهة المقشّرة قربه أزاح نظره عن الكتاب وقال: أنا لست راضياً يا فرزانة، أنت دائماً تتعبين وتعدّين الفاكهة بهذا الشكل الجميل، قلبي لا يسمح لي أن أتناولها وحدي، اذهبي واجلسي على الأريكة سآتي ونأكلها معاً وما إن بدأنا بتناول الفاكهة أنا وحميد حتى رنّ هاتف حميد: وما إن أجاب حتى قال: عليكم السلام، ما شاء الله أيّها العريس المرتب، فهمت أنه بهرام صديق حميد الحميم الذي عقد قرانه مؤخراً، ومن تعبير حميد ضحكت، كان حميد يتعاطى مع أصدقائه بكلّ حميميّة، في البداية تعجبت كثيراً، كان يقول: هؤلاء أصدقائي الحميمون، أولئك الذي يعقدون قرانهم هكذا أقول لهم حتى يقدم الباقون على الزواج، وكان يكفي أن يعقد أحد أصدقائه قرانه، عندها كان يهتمّ به، ومنذ الوقت الذي عقد فيه بهرام قرانه بدأت علاقتنا العائليّة، وقد أمضيا كل خطوبتهما معنا، كنّا نذهب للنزهات والترفيه، رحلات ليوم واحد وربّما لساعات، كنّا نذهب كثيراً للمجمع الترفيهي باتجاه

«باراجين»[٩] ونركب في الزورق أو نطهو الطعام ونأخذه معنا إلى هناك. اقترح بهرام أن نمضي يوم الجمعة معاً، فقال حميد نأخذ دجاجاً ونذهب إلى «سنبل آباد»، ويوم الجمعة أعددنا عدّة الدجاج، وأخذنا مفتاح بيت والد حميد في «سنبل آباد» وانطلقنا. وفي الشتاء تكون طريق «ألموت» ذات طقسٍ ثلجي وبارد جدّاً، وعندما وصلنا، ولكي ندفّئ الغرف أشعلنا مدفئة الكاز، ولم يذهب أحد إلى هناك منذ مدّة طويلة وبدا كلّ شيءٍ هناك وكأنه متجمد، ولا بدّ أن تشعل المدفئة قبل الجلوس. أشعل حميد والسيد بهرام ناراً داخل الفناء الخارجيّ حتّى يعدّا الدجاج المشوي، و كنت أنا وزوجة السيّد بهرام داخل الغرفة تحت الغطاء إلى جانب المدفأة نرتجف، ومن شدّة ما زدنا من اشتعال المدفأة كان يتصاعد منها الدخان، وكنّا نشعر بالبرد لدرجة أننا لم ننتبه إلى أن الدخان قد ملأ الغرفة، وعندما دخل حميد الغرفة قال بهلع: ماذا تفعلان هنا؟ الآن تصابان بالاختناق، كان الدخان يملأ أعيننا وحول أنفينا، وبقينا لعدّة أيام تصدر منا رائحة الدخان، وعندما تناولنا الغداء غادرنا المكان، وشعرت أننا إذا مشينا أفضل لنا من الجلوس في مكان واحد، وداخل فناء الدار كان هناك كلب قد وجّه نظراته إلينا، كنت أنا وخطيبة السيد بهرام نخاف من الكلب كثيراً، وما إن كان يقترب منّا خطوة حتّى كنّا نهرب إلى الطرف الآخر، كان حميد والسيد بهرام يضعون يدهما تحت قلبيهما ويضحكان، وصار عملنا هو الفرار، وبعد الغداء قدّم حميد بقايا الطعام إلى الكلاب حتى لا يكون هناك إسراف، وكانت هذه عادته دائماً، وعندما كنّا نذهب خارجاً، كان يضع الطعام المتبقّي قرب جدار أو تحت شجرة أو عندما كنا نشتري اللحم

---

٩ منطقة في قزوين.

المفروم كان يأخذ قطعة من أفضله ويرمي بها على السطح من أجل القطط، وكان يقول دائماً إلى أرواح الأموات.

وفي برنامج «سمت خدا»[١٠] الذي كان يسمعه من «السيد عالي» قد سمع أنه عندما تريد أن تقدّم شيئاً كحسنة ليكن عن أرواح جميع الأموات لأنّه يصل بذلك إلى الأموات منذ بدأ الخلق إلى نهايته ثواب متساو، والذي يقدم للأموات حسنات أكثر يحاسب بسرعة يوم القيامة حتى لا يتأخر، لذا لم يكن يرمي أيّ طعام متبقٍ داخل سطل القمامة.

اتصل حميد من النادي وأخبرني أنّه سيعود متأخّراً، ولكي لا أملّ من الوحدة اقتربت من خزانة السفرة، وعندما جاء حميد إلى البيت سألته: ما الشيء المتغيّر؟ نظر وقال: من جديد إعادة ترتيب أغراض خزانة السفرة، في هذا البيت لا يمكن القيام بعمل آخر سوى هذه الخزانة وتغيير مكان أدواتها، ثمّ ضحكنا معاً، كان ينتبه إلى هذه الأشياء، كان بيتنا صغيراً إلى حدّ لا نستطيع أن نغيّر في مكان الأثاث، وكان هذا الشيء جميل بالنسبة لي، كان أيّ تغيير في المنزل ينتبه له بسرعة. فقلت: عزيزي حميد، حتى تكون قد أخذت سلّة القمامة إلى أول الزقاق أكون قد وضعت طعام العشاء، كان حميد يجمع القمامة في المطبخ فاتصلت صديقتي، رحت أتحدث معها، وكنّا نتحدّث عن كلّ شيء، وكان حميد يحمل القمامة بيده ويقف أمامي ويقول بصوت هادئ: انتبهي بهذا الكلام أن لا تقعي في الغيبة، وبالإيماء والإشارة أرحت باله أني منتبهة. كان يكره الغيبة كثيراً وينفر منها، وأيّ كلمة صغيرة يشمّ منها

---

[١٠] برنامج ديني يعرض على التلفاز ويعني» نحو الله.»

رائحة الغيبة كان يظهر ردّة فعل ويغيّر الموضوع بسرعة. لم يكن يحبّ أن نتكلّم عن أحد ليس معنا وكان يقول: يجب أن أطبع عدّة أحاديث عن الغيبة وأعلّقها على باب المنزل وجدرانه حتّى نتذكّر عندما نراها ولا نغتاب يوماً ونحن غافلون.

وعندما أنهيت الاتصال أعددت المائدة، فتأخّر حميد كثيراً، وكان من قبل قد تأخر عدّة مرات أثناء أخذه للقمامة، وكان يدور في رأسي سؤال وهو ما سبب هذا التأخير؟ ولكن لم أكن قد سألته، ولكن هذه المرّة طال ذهابه.

وعندما عاد سألته: حميد عندما تأخذ القمامة إلى مركز إعادة التدوير أول الشارع لماذا تتأخر إلى هذا الحدّ؟

لم يكن يرغب في الإجابة على سؤالي ولكن لما رأى إصراري قال: في الحقيقة يقف رجل مسكين أول الشارع، وعندما أمرّ من قربه أحب أن أساعده، ولكن هذه الليلة لأني لم أكن أحمل مالاً خجلت أن يراني ولا أساعده، لذا لففت كلّ الزقاق حتّى أعود إلى البيت من طريق آخر حتّى لا أرى هذا المحتاج وأستحي.

وكنت أصعق من أعماله هذه، فهذه التصرّفات كان تعطيني إحساساً جيّداً، وكانت توجد في قلبي القلق والخوف، إحساس جيّد لأنّ زوجي يدقق النظر في جزئيات كهذه إلى هذا الحد، وقلق من أنني كنت أشعر أننا نشبه عداءين اشتركنا في مسابقة، أنا أطوي مسيري واقفة ومتعثّرة، لكن حميداً يتجاوزني بسرعة، كان عندي خوف بأني لن أستطيع أبداً أن أتحرّك بالسرعة التي يتقدّم فيها حميد.

كنّا نتناول طعام العشاء ولكن كان كلّ اهتمامي في الكلام الذي تحدّثته مع صديقتي، وذلك في موضوع كان قد حصل لإحداهن وسبّب سوء تفاهم، ومنذ أن طرحت صديقتي الموضوع لم أستطع أن أكتم انزعاجي، وأثناء الطعام انتبه حميد إليّ وقال: هل حصل شيء يا فرزانة؟

لستِ على ما يرام فقلت: لا يا عزيزي لا شيء مهمّاً تناول عشاءك، وبحنان امتنع عن تناول الطعام وقال: هل تحبّين أن نذهب إلى رابية نور الشهداء؟ وكلما كان يحدث شيء فأستاء من كلام أحد أو سلوكه كان حميد ينتبه إلى حزني ولكن لم يكن يصر أن أحكي له كلّ القصّة، كان يعتقد أنّي إذا تحدّثت قد تحسب غيبة لأنّ الطرف المقابل ليس موجوداً ولا يمكنه الدفاع عن نفسه، ولكي نبتعد عن هذه الأجواء كنا نذهب معاً إلى رابية نور الشهداء.

وركوباً على الدراجة انطلقنا باتجاه طريق فدك، جلسنا قرب مزار الشهداء، بكيت قليلاً حتى أرتاح وجلس حميد بجانبي دون أن يسألني فقال: أنا لا أدعوك للصبر، ولكن أدعوك للكمال، لا يمكن أن لا يتأذّى المؤمن، وإن كان الحق معك في هذا الحزن حاولي ومن قلبك وبلا منّة أن تعفي، حتّى لا تتغيّر نظرتك للآخرين ولا تشعري نحوهم بالسوء، وإذا استطعت أن تعفي بهذا النحو فهذا يدعوك للكمال، ثمّ بدأ بصوته المحبّب بزيارة عاشوراء، فتغيّرت أحوالي. فلمّا تركنا المكان، تناولنا المثلّجات ومزحنا كثيراً ثمّ عدنا إلى المنزل.

وفي أواخر شهر دي[11] ذهب حميد في خدمة لمدّة عشرة أيام، أنهيت أعمال المنزل وذهبت إلى منزل أبي، لم أكن أطيق البيت بدون حميد، ولم أكن قد شربت من الشاي الذي أعدّته أمّي للتوّ حتّى بدأت الثلوج تتساقط، تذكّرت منزلي، كان سقف المنزل يسرّب الماء، وعند المطر تنزل قطرات الماء داخل الغرفة، وبعد مرور القليل من الوقت، شعرت

[11] الشهر العاشر من الشهور الإيرانية.

بالقلق كثيراً وقلت لأبي: عليّ أن أعود إلى المنزل، أخاف أن تخرّب هذه الأمطار كلّ شيء. قال أبي: أنا مستعدّ لإيصالك، ركبنا السيّارة وانطلقنا بسرعة، وبسبب تساقط الثلوج كانت كلّ الشوارع مغلقة من شدّة الازدحام، وقريباً من المنزل ترجّلت من السيارة فبهذه الحالة من الازدحام من الأفضل أن أوصل نفسي أسرع إلى المنزل، ركضت نحو البيت، وعندما وصلت كان تقريباً كل السجاد مبلّلاً بالماء، وكانت الماء تتدفّق من السطح كحنفيّة «السماور»[١٢]، وكلّ تلك الليلة كنت أضع وعاء، وعندما يمتلئ كنت أفرغه على الشرفة، ولأنّي كنت وحدي تأذيت كثيراً، قلت في قلبي: ليت حميداً كان هنا، ليتني لست وحيدة إلى هذا الحدّ، تساقطت دموعي ولكني لم أترك البيت في تلك الأيام. وعندما عاد حميد من الخدمة ورأى الحال استاء كثيراً، طأطأ راسه خجلاً، لم أكن أحبّ أن أرى حميداً يشعر بالخجل فقلت ممازحة: أنا مسرورة لأنّي أكاد أصبح في هذا البيت رجلاً أفهل يحزنك هذا؟ وفي صباح اليوم التالي لعودته من الخدمة قام بوضع الإسفلت على السطح بمساعدة صاحب المنزل حتى يرتاح بالنا من المطر والثلوج.

وعندما انتهت أعمال وضع الإسفلت، اقترح حميد أن نذهب إلى «چهار انبيا»[١٣] وكان مقصدنا دائماً الردهة الخارجيّة الهادئة والضريح الجميل. زرنا نصف ساعة وخرجنا بعدها معاً من هناك.

كان الطقس شديد البرودة، وكان صقيع قزوين يظهر نفسه، أردت أن أركب الدراجة ولكن فجأة وقع رجل وامرأة من على دراجتهما إلى الأرض، ركضت بسرعة لكي أساعد المرأة، كان مشهداً مؤسفاً، وطوال طريق «چهار انبيا» لم ينبس حميد ببنت شفة، سألته: هل حصل

---

١٢ إبريق خاص لإعداد الشاي.

١٣ مزار ديني في قزوين ويعني الأنبياء الأربعة.

شيء؟ لماذا أنت صامت؟ تأوّه ثمّ قال: عندما وقعت تلك المرأة أمامي على الأرض وذهبت أنت لمساعدتها تذكرت رقية عليها السلام في تلك اللحظة التي سقطت فيها عن الناقة العارية بغير وطاء، ولم يكن هناك من يساعدها، ولم يكن لديّ ما أجيب به، كنت أغبط حميداً على حاله، لقد كنت أسيرة مسائل الحياة اليوميّة وطعام الغداء والعشاء والدعوات والاهتمام بأمور المنزل والدرس والجامعة ولكنه بحسّه الرفيع كان يستفيد من كل حدث لتكامل معرفته ورقيّها.

وفي شهر «بهمن[١٤]» ذهبنا مع طلاب الجامعة إلى قم للقيام بدورة ثقافيّة حول المهدوية وكان حميد معنا بعنوان مرافق لي، كانت دورة ممتازة، والفرد الوحيد الذي كان يكتب الخلاصات هو حميد، والباقون إما كانوا نياماً أو مشتتي الحواس، ولكنّ حميداً كان دائماً ومن خلال أسئلته يجرّ البحث إلى نقاش، وكأن الدورة ليست لنا نحن الطلاب وكأنّه لم يكن مجرّد مرافق.

وفي اليوم الثاني ناداني لكي أختار حديثاً عن السيّدة الزهراء عليها السلام، وعندما سألته عن السبب أشار إلى الخطّاط الذي كان في نهاية الممرّ وقال: أردت أن أخطّط اسم السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام داخل لوحة، وأنت قولي حديثاً لكي يكون إلى جانبه في لوحة واحدة، وعندما رأيت نماذج من عمل الخطاط أعجبني كثيراً فانتخبت حديث: جعل الصلواة تنزيهاً عن الكبر. وكتب لنا ذلك الخطّاط الحديث بخط جميل وبلون أخضر.

وبعد أربعة أيّام انتهت الدورة وعدنا، وعندما وصلنا إلى قزوين أصدر حميد تأوهاً طويلاً وقال: آه، ارتحنا، لقد اشتقت إليك، سألته متعجّبة: ولكننا لم نبتعد عن بعضنا فقال: أمام البقيّة لم أستطع أن أنظر إليك

---

١٤ الشهر الحادي عشر من الشهور الإيرانية.

براحة، ولكن الآن ارتحت، لو تدرين كم تحمّلت ألم الفراق، كان يعتقد أنّ علينا نحن المتزوّجين في أماكن كهذه حيث يكون معنا أفراد غير متزوجين أن نراعيهم تحرزاً من أن نكسر قلب أحد منهم. وفي اليوم التالي جعل للورقة التي كتب عليها الخطاط اسم السيّدة الزهراء عليها السلام مع الحديث إطاراً وعلّقها على الجدار حتى تكون دائماً أمام أعيننا.

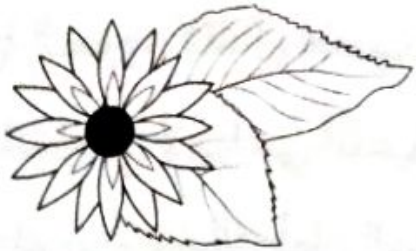

الفصل الثامن

العشق هو معرفة الله، ورضى الإمام المهدي عنّا

كنت قد تأخّرت كثيراً، كان عليّ أن أصل قبل البقيّة حتى أستلم أدوات الأنشطة الثقافيّة التي ستجرى في الباص، كنّا قرّرنا هذا العام أن نذهب إلى مناطق العمليّات في الجنوب كخدّام، ولكنّ حميداً وقبل السفر بثلاثة أيّام وبسبب المهمّة التي طرأت عليه عطّل برنامج مجيئه، حملت حقيبتي وركبت على درّاجة حميد، ومع أنّنا كنّا على عجلة من أمرنا، إلا أنّه كان كالعادة يقود الدراجة بهدوء، وحتّى عندما لا أكون معه كان يمشي متمهّلاً بشكل كان يجعل أصدقاءه لا يركبون معه ويقولون: حميد أنت تمشي ببطء جداً، إن ركبنا الدرّاجة حتّى الغروب لا نصل.

وعلى الدرّاجة قرأنا مجلس عزاء كامل مع ألحان مختلفة، وقرأ حميد قليلاً من لطميّة، وفي الأماكن الخالية حيث لم يكن قربنا أحد كنت أردّد بعض الأشعار التي حفظتها من مخيّمات الجنوب وكان حميد يساعدني:

«سلام أي زمين خدايى، تو قدمگاه پاک رضايى، أي شلمچه ديار شهيدان، غرق عطر خوش كربلايى»

السلام عليك أيتها الأرض الإلهية، يا موطئ أقدام رضايى الطاهرة، يا شلمچه ديار الشهداء، الغارقة في عطر كربلاء الفواح.

وعندما وصلنا إلى الإشارة الحمراء توقّف، وكان بعض السائقين يعبرون المفترق غير آبهين بإشارة المرور، فقال حميد: هذا قبيح جدًّا، الآن الآن أوّل الصبح ولا وجود للشرطيّ لا يراعي البعض القوانين؟! القانون للجميع وفي كلّ الأماكن، ليس هناك أول الصبح وآخر الليل، من أكبر مسؤول حتى العامل البسيط يجب على الجميع مراعاة القانون.

فقلت: هذا يعود لل سيوليزيشن! غارت عينا حميد فقلت: أي التحضّر التربيّة الاجتماعيّة. قبل زواجنا كنت أذهب إلى معهد لتعليم اللغة وبقي لي ترمان أو ثلاثة حتى أصل إلى التافل، لكن بعد الزواج لم يكن عندي وقت، وكان حميد يذهب إلى معهد لتعلّم اللغة وكان يقول لي: تعالي نتمرّن على الكلمات الإنكليزيّة، فلمّا أوصلني تعلّق بهذه الكلمة وحفظها، وصار كلّما مررنا قرب الإشارة الحمراء يقول لي: سيدة «سيويلايزد» أي سيّدة متحضّرة.

وكانت رحلة الجنوب لعام ٩٣ من أصعب الأسفار التي سافرتها دون حميد، وكان من النصيب أن يكون هاتفي معطلاً، كنت أسمع صوت حميد لكنه لم يكن يسمعني، وبقينا لمدّة خمسة أيام نرسل الرسائل

فقط وكتب لي رسالة: أين أنت يا ناصر خسرو[1] ولشدّة ما تعدّدت أسفاري كان يراني ناصر خسرو وماركوبلو.

وعندما عدت، أول عمل قام به أن رمى هاتفي في سلّة القمامة وقال: أنت لا تعرفين ما الذي حصل لي في هذه الأيام الخمسة، عندما لم أستطع أن أسمع صوتك أحببت أن أهيم على وجهي في البراري، وعندما قال هذا شعرت باشتياقه بكلّ وجودي، ودغدغ الأمل قلبي بأنّ الله سمع دعائي ونزع فكرة الشهادة من رأسه، العشق الذي كان يكنّه لي حميد كان سبباً قويّاً لأن يبقى فقلت في نفسي: حميد سيبقى، أستبعد أن يكون هناك شيء ذا قيمة أكبر من هذا الاشتياق حتى يبتعد عنّي حميد، على الأقل لن يحدث شيء بهذه السرعة، وعندما وصلنا إلى البيت قال: يا زائرة الشهداء، انفضي هنا في الصالة عباءتك ودعي المنزل يتعطّر بعطر الشهداء.

واليوم التالي لعودتي ذهبنا معاً للتسوّق من أجل عيد النوروز، ولم يكن يحبّ الأماكن المزدحمة أو المراكز التجاريّة الحديثة، لم يكن يحبّ الأماكن التي لا يراعى فيها الحجاب جيّداً، وفي أماكن كهذه كانت عيناه الطاهرتين تخطان في الأرض، ولم يكن أبداً ممّن يساومون على الأسعار، وعندما سألته لماذا لا تساوم؟! ربما خفض البائع السعر قال: تُكره المساومة، من الأفضل أن يكون عندنا ثقة بكلام البائع، ولا أذكر أنه ساوم ولو لمئة تومان، إلا إذا أراد البائع تخفيفاً.

ووسط السوق رنّ هاتفي، أشرت على حميد أن يشتري لنفسه جوارب من المحلّ المقابل، وكنت أتحدث فرأيته قد عاد بمجرّد أن ذهب وعندما أنهيت اتصالي سألته ما الذي حدث؟ لمَ عدت بسرعة؟ ألم

---

[1] رحالة إيراني.

فقط وكتب لي رسالة: أين أنت يا ناصر خسرو[1] ولشدّة ما تعدّدت أسفاري كان يراني ناصر خسرو وماركوبلو.

وعندما عدت، أول عمل قام به أن رمى هاتفي في سلّة القمامة وقال: أنت لا تعرفين ما الذي حصل لي في هذه الأيام الخمسة، عندما لم أستطع أن أسمع صوتك أحببت أن أهيم على وجهي في البراري، وعندما قال هذا شعرت باشتياقه بكلّ وجودي، ودغدغ الأمل قلبي بأنّ الله سمع دعائي ونزع فكرة الشهادة من رأسه، العشق الذي كان يكنّه لي حميد كان سبباً قويّاً لأن يبقى فقلت في نفسي: حميد سيبقى، أستبعد أن يكون هناك شيء ذا قيمة أكبر من هذا الاشتياق حتى يبتعد عنّي حميد، على الأقل لن يحدث شيء بهذه السرعة، وعندما وصلنا إلى البيت قال: يا زائرة الشهداء، انفضي هنا في الصالة عباءتك ودعي المنزل يتعطّر بعطر الشهداء.

واليوم التالي لعودتي ذهبنا معاً للتسوّق من أجل عيد النوروز، ولم يكن يحبّ الأماكن المزدحمة أو المراكز التجاريّة الحديثة، لم يكن يحبّ الأماكن التي لا يراعى فيها الحجاب جيّداً، وفي أماكن كهذه كانت عيناه الطاهرتين تخطان في الأرض، ولم يكن أبداً ممّن يساومون على الأسعار، وعندما سألته لماذا لا تساوم؟! ربما خفض البائع السعر قال: تُكره المساومة، من الأفضل أن يكون عندنا ثقة بكلام البائع، ولا أذكر أنه ساوم ولو لمئة تومان، إلا إذا أراد البائع تخفيفاً.

ووسط السوق رنّ هاتفي، أشرت على حميد أن يشتري لنفسه جوارب من المحلّ المقابل، وكنت أتحدث فرأيته قد عاد بمجرّد أن ذهب وعندما أنهيت اتصالي سألته ما الذي حدث؟ لمَ عدت بسرعة؟ ألم

---

[1] رحالة إيراني.

تشتر الجوارب؟ فرفع كتفيه إلى الأعلى وقال: لم يكن حجاب البائعة جيّداً لذا لم أقترب، أنت اذهبي واشتري وعندما اشتريت الجوارب قال حميد: لأنّ الأيام الفاطميّة انتهت أريد أن نصنع البقلاوة للعيد مثل بقلاوة قزوين اللذيذة، وكنت أعرف إعداد البقلاوة المنزليّة. ومن هناك ذهبنا إلى محلّ للعطارة لنشتري الموادّ الخاصة بتحضير البقلاوة، وبقيت ليومين أسيرة لإعداد البقلاوة، ولشدّة ما اشتغلت بالعجين صارت يداي تؤلمانني، وكل صينيّة كنت أعدّها كان حميد يأكل منها عدّة قطع وهو في مكانه، كان يحبّ الحلوى كثيراً، وإن أعددت مرّة الكيك أو كعكة الشاي حيث تكون حلاوته قليلة كان يتذرع كالأطفال ويقول: وهل أعددت خبزاً؟ ثمّ كان يضيف الكثير من المربى والعسل إلى الكيك وكعكة الشاي ويأكلها، وعندما رأيته قد مدّ يده إلى كلّ صحون البقلاوة قلت بمزاح: إن بقيت تأكل بهذا الشكل فلن يبقى أيّ شيء للضيوف، وفي المجموع لقد أكلت حتّى الآن صحنين كبيرين من البقلاوة، إن أكلت كلّ هذا ستصاب بالبثور يا رجل، وبدل الأكل تعال وساعدني فقال: حاضر، ثم ساعدني وأثناء المساعدة كان يتذوّق أيضاً، وفي الأيام التالية وما إن يراني غير منتبهة حتى يذهب إلى الثلاجة ويبدأ بأكل البقلاوة.

وعلى عكس إعداد الحلوى حيث كان كلّ اهتمامه بالأكل، ساعدني كثيراً في تنظيف المنزل، من غسل الشبابيك، إلى تنظيف خزائن المطبخ، وبعد أن انتهى العمل ومن شدّة التعب تمدّد على الأريكة التي تتّسع لشخصين وأغلق عينيه، قشّرت له الفاكهة وقلت بصوت عال: حميد عزيزي لقد ساعدتني كثيراً عافاك الله، فتح عينيه قليلاً وقال: بدلاً من أن تقولي عافاك الله، قولي أمدّك الله بالقوّة، وبعد أن قلتها نهض حميد وجلس، ثمّ قال: يجب أن تطلب الزوجة لزوجها أفضل شيء

وبدلاً من أن تقولي أمدّك الله بالقوّة قولي: إن شاء الله تستشهد، وبعد مكث قلت مجيبة، إن شاء الله تستشهد بعد مئة عام. وكانت بداية السنة الجديدة عند منتصف الليل، وفي تلك اللحظة كان حميد نائماً، وكان قد اشترى لي بمناسبة العيد حجاباً بنيّ اللون مطرّز الأطراف، ارتدى حميد القميص الذي اشتريته له من مشهد، والذي كان كبيراً حينها، وكان يذهب إلى أغلب الدعوات بهذا القميص، وكانت السنة الأولى التي يبحث فيها عن أوراق نقدية جديدة ليعطيها عيديّة للأولاد. وبعد عدّة ساعات من بدء العام الجديد جاء إلى بيتنا سعيد وزوجته ونرجس لنذهب معاً لزيارة الأقارب، وعلى الغداء تناولنا طعام الـ «آش»[٢]، ولاعب حميد نرجس ابنة أخيه كثيراً وكان يحبّها جداً، وكان نادراً ما يحمل حميد طفلاً رضيعاً، وكان يقول أخاف أن يحدث له شيء لأنه صغير جداً، ولكنّه كان يحمل نرجس وكانت هذه المحبّة متبادلة، فكانت نرجس أيضاً تحبّه، ومع أنّ وجه حميد ووجه والدها متشابهان بشكل تامّ ولكني كنت أشعر أنها تميّز بينهما، وعندما كانت تجلس في حضن حميد لم تكن تحبّ أن تبتعد عنه وعندما حملها قال لها: ناديني باسمي أيتها الصغيرة، قولي عمّي، فقلت: كفّ عن هذا يا حميد، طفلة لم تتجاوز عدّة أشهر ولا يمكنها الكلام.

وفي ذلك اليوم زرنا كلّ الزيارت معاً، وفي اليوم الثاني والثالث مللنا من الجلوس بلا عمل فقلت: عجباً كم أخطأنا حين قمنا بكلّ الزيارات في يوم واحد، ولأنّنا كنّا نحن الأصغر، كان علينا الانتظار لعدّة أيام حتى يأتي الباقون لزيارتنا، وشيئاً فشيئاً بدأ قدوم الضيوف إلى بيتنا، وكان تقديم الضيافة للضيوف كالعادة بعهدة حميد، وكلّما كان يأتي ضيف كان يقدّم

---

٢ طعام إيراني يتكون من الحبوب والخضرروات

له البقلاوة ويأكل معه ولكي يأكل مرّة أخرى كان يقدّم الضيافة مرّة أخرى.
وفي أحد أيام العطلة ذهبنا مرّة إلى سنبل آباد، وكي يساعد حميد
والده حمل المعول وذهب إلى البستان وأنا ذهبت إلى البيت، وما
إن وصلت حتى تبعني ديك أحد أهالي القرية بسرعة، فوجئت من
حركته وفي الوقت الذي كنت أشعر فيه بالخوف قفز كالجنّ، قرّرت
الهرب وعندما سمع حميد صوتي أسرع راكضاً نحو فناء المنزل، اعتقد
أن مكروهاً قد حدث، كان قلقاً جداً، وعندما وصل ورأى الحال وضع
المعول الذي في يده على زاوية الجدار ووقع على على الأرض، كاد أن
يغشى عليه من الضحك، شعرت بالغضب وصرت ألفّ المكان حول
الفناء وأعد خطة لحميد، ولم يتركني الديك.

وبقيت لحوالي الساعتين لا أكلّم حميداً وقلت: أنت لم تساعدني
للخلاص من الديك، ولم يستطع حميد أن يتمالك نفسه من الضحك،
فقال: أنت زوجة عسكري، وابنة عسكري، وحاصلة على الحزام الأسود
في الكاراتيه، حسناً لقد رأيت ديكاً وليس دباً. وكان يمزح ويضحك
محاولاً احتواء غضبي.

كنّا كلّما ذهبنا إلى سنبل آباد نذهب لقراءة الفاتحة لجدّتي برفقة
عمّتي، ومع أنّ جدي توفّي عندما كان أبي يبلغ من العمر سنتين،
ولكن دائماً كنت أشعر في مزاره بارتباط شديد معه، وكانت مقبرة
القرية وسط بستان كبير، وكان حميد يرانا من الأعلى جالسين إلى
جانب القبر وكان يلوّح لنا بيده من هناك، وأثناء عودتنا من سنبل
آباد اتّصلت بنا خالتي نسرين ودعتنا لتناول العشاء، ولأنّي كنت أعرف
أن حميداً في التجمعات العائلية إجمالاً يسكت ورأسه إلى الأسفل
وقليلاً ما يتكلّم قلت لخالتي: خالتي العزيزة لا نرضى أن تتعبي نفسك،
ولكن إن كان ممكناً ادعي أبي وأمي، ولأنّ زوج خالتي كثير الصمت

وزوجي قليل الكلام فعلى الأقل أبي يستلم الميدان ويتحدّث وهذان الاثنان يستمعان، وفي الواقع كان سلوك حميد بهذا النحو، بعكس الوقت الذي يكون فيه بين أصدقائه وزملائه في العمل فيبدو بهيئة المشاغب، ولكن في اللقاءات العائليّة وخاصّة عندما يتواجد الكبار يصبح حميد قليل الكلام وينتحي زاوية.

وبرفقة عائلتي وحميد تناولنا العشاء عند خالتي، وما إن مرّ وقت قليل على رفع المائدة حتى رنَّ هاتف حميد، وبعد السلام والسؤال عن الأحوال وحتى يستطيع أن يتكلّم براحة ذهب إلى الممرّ وطال اتصاله لدقائق، وعندما عاد كان السرور بادياً على وجهه، وسألته من المطبخ بحركة من رأسي هل تمّ الأمر ابتسم وقال متمتماً: الشكر لله.

وكان يحاول منذ عدة أيام ان يأخذ إجازة، كان يحبّ أن نذهب إلى الجنوب للخدمة قبل أن تنتهي مخيّمات الجنوب، وعندما خرجنا من منزل خالتي سألته: ما الذي حدث حميد؟ هل تمّ أمر الإجازة؟ فقال: نذرت نذراً إلى روح الشهيد «حسين پور» أن يتمّ الأمر، والآن اتّصل المسؤول وقالت يمكننا أن نذهب لمدّة أسبوع. فقلت ومتى نمشي؟ قال: جهّزي نفسك سنذهب غداً.

وفي السابع عشر من شهر فروردين وفي الساعة العاشرة ليلاً وصلنا إلى الأهواز، وطلب الحاج صبّاغيان أن يكون حميد خادماً في معراج الشهداء وأنا أذهب لمساعدة الخدّام في ثكنة الشهيد مسعوديان، وأوصلني حميد إلى هناك، وقام بالاتّفاق معهم وذهب نحو معراج الشهداء، وفي هذه الأيام تقريباً كنّا على اتصال ولكن لم نلتق. وفي اليوم الثالث اتصل وقال: نحن الآن في هويزه ، في طريق العودة إلى المعراج سآتي قليلاً لأراك، طرت من الفرح، أخذت إبريق الشاي المعدّ طازجاً وتقدّمت عدة أمتار من حسينيّة السيّدة الزهراء عليها السلام حيث كان

إلى جانبها غرف الخدم وانتظرته على القناة حتّى يأتي.
كان مخيّم الشهيد مسعوديان مكاناً عجيباً، وكانت كلّ قاعة فيه تخصّ منطقة معيّنة حيث كانت تستخدم في زمان الحرب كمحلّ للمداواة والتغسيل، والله يعلم كم مقاتل في هذا المخيم قد تحمل لحظات جراحاته البالغة ثمّ استشهد، وفي مقابل المكان كان هناك تلّة مرتفعة تعلوها الكثير من الأعلام الخضراء التي تبرز نفسها.
كانت أمواج عيون حميد تخفّف من أشواقي، كنت أحبّ أن يأتي أسرع فيجلس وأجلس ويتكلّم هو فقط، وبعد متاعب هذين اليومين كانت رؤية حميد تبعث الهدوء في نفسي ومرّت ساعة على انتصاف الليل فقلت في نفسي، لا بدّ أنّه كالمرّة الماضية طرأ عليه عمل ولم يستطع المجيء هذه الليلة، حملت إبريق الشاي وعدت نحو غرفتي، ومشيت عدّة خطوات حتى شد انتباهي صوت أقدام على الإسفلت، ودون أن أعود تيقنت أنّه حميد، وفي الأوقات الذي كان يشعر فيها بالتعب كان يسحب رجليه على الأرض بهذه الطريقة، وعندما عدت رأيته بلباس الخادم الجميلة، يعتمر قبعة الشهيد عماد مغنيّة، وبنطالاً متعدّد الجيوب، وجهه متعب ولكن تعلوه ابتسامة، أخذت طاقة من وجوده حتّى أحببت أن أجوب المخيم مشياً على الأقدام إلى جنب حميد ونمشي حتى الصباح.
وفي تلك الليلة بقينا معاً لساعة وتحدّثنا كثيراً، وفي المرّة القادمة ذهبت أنا لرؤية حميد في معراج الشهداء، وكان مشغولاً في أعماله لدرجة أنه لم ينتبه لحضوري، وعندما كان يرتدي لباس الخادم كان يفكر فقط وفقط بخدمة زائري الشهداء، وكنت في فناء معراج الشهداء أنتظر أن يجد حميد وقتاً فارغاً لدقائق حين أعلن مكبر الصوت في المعراج أنّ زوجة أحد الشهداء ستتكلم لدقائق، وفي ذلك الوقت رأني

حميد واختفى على الفور، وبعد المراسم بقينا لمدّة نصف ساعة مع بعضنا وعندما سألته عن سبب غيابه قال: لم أكن أريد في مكان تحضر فيه زوجة شهيد مكسورة القلب أن نكون معاً.

وبين كلّ أشهر السنة كان اردیبهشت[٣] أحبّ الأشهر إليّ والمميز عندي، الشهر الذي ولد حميد في الرابع منه، أعددت لاحتفال بسيط، ومنذ الصباح كنت مشغولة بتحضير الكيك، وكنت أعرف كم يحبّ حميد المثلّجات لذا أعددت له بالسحلب والحليب الطازج الكثير من المثلجات، وإن لم يطل الفرح والسعادة كثيراً بعد إطفاء الشموع.

وبعد عدّة أيام كنت أنتظر عودة حميد من العمل لنتاول الطعام معاً، كان الجوّ ماطراً، ومرّت ساعة من بعد الساعة الثالثة ولم يكن هناك أيّ خبر عن حميد، فقلت في نفسي لا بدّ أنّه مشغول بعملٍ ما وأنه يقوم بحلّ بعض مشاكل العمل، وعندما رنّ جرس الباب قمت لاستقباله وعندما رأيت وضعه وهيّأته تجمّدت من الخوف، كان من رأسه إلى قدميه متّسخاً بالتراب، عرفت أنّه تعرض لحادث من جديد، كانت ركبتا بنطاله ممزقتين، وكانت كمّ معطفه توضح سقوطه على الإسفلت، اختطف لوني، وهناك على الباب كدت أنهار، لم أحتمل أن أرى حميداً بهذا الشكل، راح يهدّئني ويقول: لا تقلقي، صدّقيني لم يحدث شيء، انظري لقد عدت إلى البيت على قدميّ، لقد مرّ كلّ شيء بسلام. ولكن أنا لم أصدّق، استجوبته حتّى أعرف ما الذي حصل فسألته: أين وقع الحادث حميد؟ قل لي ما الذي حدث؟! يجب أن نذهب إلى المستشفى

---

٣ الشهر الثاني من الشهور الإيرانية.

لنجري صوراً شعاعيّة لقدميك ورأسك.

وقال حميد وهو يشرب كوباً من الماء: كنت راكباً على الدراجة مع السيّد ميثم والسيّد نبي الله حيث اصطدمت بنا سيّارة وسط غيان آباد، طرنا نحن الثلاثة، وكان من حسن الحظ أنني أرتدي واقية الرأس، كانت جروحه سطحيّة، وحكى لي القصّة من أوّلها إلى آخرها، كيف حدث هذا؟ أين سقطوا على الأرض، والباقون هل هم بخير وكان لا يخفي عليّ هذه الأشياء، وكنت أنا أتذمّر وأقول: لماذا يقود ذلك السائق سيّارته بهذا النحو، لماذا لم تكن منتبهاً؟ ثم ذهبت مباشرة إلى البخور، وكان إشعالي للبخور قد صار قصّة، فكلّما يريد حميد أن يخرج كنت أشغل قبضة من البخّور وأمرّرها حول رأس حميد، وكان حميد من أجل المزاح يأخذ البخور من يدي ويضعه تحت إبطيه، وحول ظهره وحول قدميه ويضحك، حتى أنه كان يرفع ثيابه ويضعه على بطنه ويقول: عين الحسود تبلى بالعمى!

ولم تكن المرّة الأولى التي يتعرّض فيها حميد لحادث سير، وقد جاء عدّة مرّات إلى البيت بهذا الوضع، ولكن كما في كلّ مرّة كنت أوشك على السقوط ولا أستطيع فعل شيء تماماً كالمرّة الأولى التي رأيته فيها مدمى ممزّق اللباس، أوشكت على السقوط ولم أعد أستطيع القيام بأيّ عمل، وخاصة في إحدى المرات عندما كان عائداً من سنبل آباد ليلاً إلى قزوين، اصطدم بسيّارة نقل صغيرة، وكان الحادث شديداً لدرجة أن حميد طار بدراجته إلى وسط الطريق، وكان لطرفي طريق «الموت»[٤] وهدتين مخيفتين، وكان من حسن حظنا أن حميد سقط في وسط الطريق، وتلك الليلة بعد تأخير طويل عاد إلى البيت بالحالة

---

٤ اسم شارع في أطراف قزوين

نفسها، ثياب ممزقة، أيدٍ وأقدام دامية، وكان هذا الحادث قد جعل صوتي يرتفع أنه لماذا رغم أنه على علم بحساسيتي اتجاه الموضوع لا ينتبه، وانطلاقاً من اهتمامي بحميد بدأت بالشجار ألم تكن تستطيع الانتظار حتّى الصباح؟! لماذا عدت ليلاً؟! لماذا لا تنتبه؟! يجب أن نرمي هذه الدرّاجة في المهملات ولشدّة ما رأيت من هذا الحوادث صرت أخاف، وصرت حسّاسة حيث كنت أحتاج لأحد في هذه الظروف أن يهدئني ويعدّ لي الماء والسكر.

بدّل حميد ملابسه الممزقة والملوّثة بالدم ونام حتّى الليل، ولكن في الليل شعر بألم شديد في ظهره، ولم يستطع أن يغفو لحظة، وحتى الصبح كنت أبرّد حرارته، كنت أضع منشفة مبللة على جبينه وأقرأ فوق رأسه القرآن،، ولأني أنهيت الدورات العلاجيّة كنت عادة أقوم بأكثر الأعمال، حتى حقن الإبر له كنت أقوم بها بنفسي، وعندما رآني أني بقيت حتّى الصباح فوق رأسه قال: لقد سمعت بحنان الأم، ولكن لم أسمع بحنان الزوجة، والآن أراه بنفسي، وإذا أقيمت مسابقة في الحنان ستكونين الرابح الأول.

ومع صياح الديك ذهبنا إلى المستشفى، وبعد إجراء الصور عرفنا أن ديسك ظهره قد تمزّق، وكتب له الطبيب استراحة تامة لمدّة عشرة أيام، ويجب عليه مراعاة نفسه حتّى يتحسّن مع الوقت، وعندما بقي في البيت يوماً واحداً للاستراحة، عرف الجميع وتوافد علينا الضيوف، ولم يخل البيت للحظة واحدة، الأصدقاء، العائلة، الهيئة، المسجد، النادي الرياضي، فقلت في نفسي ومن أجل حادث بسيط لحميد جاء كل هؤلاء الضيوف، لا سمح الله إن ذهب في مهمّة عسكرية وأصيب بجروح عليّ أن أعدّ نفسي لاستقبال نصف أهالي قزوين، وبقيت طوال الوقت واقفة أرحّب بالضيوف وأقدّم لهم الضيافة، وكان الضيوف

كثيرين إلى درجة أنّي كنت أنام ليلاً قبل حميد من شدّة التعب.
ولم يكن يتركني وحدي بهذه الحال، كان يجلس على كرسي في المطبخ ويقرأ لي أشعاراً من ديوان حافظ أو يقرأ لي حكايات سعدي، وعندما كان يرى تعبي كان يقول، سامحيني من أجل السيّدة الزهراء عليها السلام لأني لا أستطيع أن أساعدك، لقد تعبتي هذه المدّة كثيراً، وعندما تنتهي استراحتي سآخذ إجازة من عدّة أيام وأهتمّ بك، سأقوم بجميع الأعمال حتى تستريحي.
وكانت بعض التصرّفات في البيت صارت ملكة عنده، وكان يراعيها في أصعب الظروف، وحتى عندما كان يعاني من ألم في الظهر كان ملتزماً بشرب الماء بعد المغرب من جلوس وكان يقول: عندنا رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شرب الماء من جلوس ليلاً يزيد في الرزق.
وفي هذه الأيام العشرة التي وصفها له الطبيب للاستراحة كانت مناسبة ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام ويوم المرأة، وبسبب وضع حميد الصحّي لم أكن أفكّر بالحصول على هديّة منه أبداً، وكانت التعبئة قد أقامت احتفالاً بالمناسبة، وبإصرار من حميد شاركت في الاحتفال، وذهبت منذ الصباح لأعود بسرعة، وطوال الاحتفال كان كلّ عقلي وحواسّي في البيت، قد بقيَت عند حميد.
وعندما عدت إلى البيت، جنّ جنوني، لقد ذهب بهذه الحال خارجاً واشترى لي باقة من الورد وهديّة بمناسبة يوم المرأة، وكانت أجمل هديّة حصلت عليها ليس بسبب قيمتها الماليّة، بل لأنه فاجأني، لأني لم أكن أتوقّع أبداً أنّه بهذا الوضع الصحي وألم الظهر ينزل على الأدراج ويأتي لي بهديّة من السوق وازدحامه ويفاجأني بهذا الشكل، وفي ذلك اليوم قال لي ظهري يؤلمني كثيراً، لم أستطع أن أشتري لأمّي ولأمّك شيئاً، فقومي بهذا لو سمحت بدلاً عني.
وكان ديدن حميد كلّ عام هو هذا، ويوم ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام

كان يشتري الهدايا لي ولأمّه ولأمّي، وكان حسّاساً بالنسبة لأمّه، وكان رضا أمه وابتسامتها تعادل عنده الدنيا، وكانت عادته دائماً عندما يلتقي بأمّه أن ينحني لها ويقبّل جبينها، ومن غير الممكن أن لا يقوم بهذا. وفي تلك الأيام التي أجاز له الطبيب استراحة تامّة، كان في كلّ مرّة يتّصل فيها بأمّه ويسلّم عليها يتغير حاله، وكان يتصرّف بغاية الأدب، إذا كان مستلقياً كان يجلس، وإذا كان جالساً كان يقف، وكان هذا الشيء عجيباً بالنسبة لي فقلت: حميد أمّك الآن لا تراك إن كنت جالساً أو مستلقياً، استلق كما ترتاح وتكلّم مع عمّتي فقال: صحيح أنّ أمي ليست هنا ولا ترى ولكن الله موجود ويرى.

وفي أيام شهر شعبان وولادة الإمام الحسين عليه السلام ويوم الجندي، قال حميد: لنذهب إلى مرقد السيّد حسين[٥] أريد أن أشتري لأفراد الكتيبة عطراً، سنصلي هناك ونذهب، وعندما وصلنا إلى المنتجات الثقافيّة التي تباع هناك جرّبنا العديد من العطور وكنا نحتاج إلى سبعين منها، وأخيراً اخترنا واحداً، واشتريت عطراً مختلفاً لحميد فقلت: هذا العطر هو لك، هديّة مني في يوم الجندي، ثمّ وضع هذا العطر في جيبه بعيداً عن العطور الأخرى.

وبقي ليومين يضع من العطر الجديد الذي اشتريته له، كان طيّب الرائحة، وبعد يومين انتبهت إلى أنّ العطر قد اختفى، وسألته عدّة مرّات فكان يتهرّب من سؤالي، ظننت أن رائحة العطر لم تعجبه ولم يحبّ أن يخبرني حتّى لا أشعر بالحزن، ومرّة سألته فقال: لقد أعجب هذا العطر أحد الجنود وعندما رأيته هكذا أعطيته العطر كلّه.

وفي وسط شهر «اردیبهشت»[٦] ذلك اليوم عاد من العمل بسرعة

---

٥ من سلالة أحد الأئمة.

للتدريب في النادي، وعندما عاد إلى البيت ومن شدّة التعب نام قبل الساعة العاشرة، وما مرّ على نومه نصف ساعة حتّى رنّ هاتفه، كانوا يتصلون به من مكان عمله، فتحيّرت هل أوقظه أم لا؟ وفي النهاية قلت لا بد أنّ لديهم شيئاً مهماً لذا أيقظته.

وعندما ردّ حميد على الهاتف عرفت أنّهم يطلبونه، كان عليه أن يذهب إلى الثكنة، جهّز نفسه بسرعة، وعند الوداع سألته: متّى تعود؟ قال: غير معلوم، وبقيت أنتظر حتى الثانية عشرة ليلاً، وشيئاً فشيئاً غفوت، وعند الساعة الثانية من منتصف الليل استيقظت، لم يعد بعد، قلقت من أجله كثيراً، حملت الهاتف فوجدته قد أرسل رسالة: أنا ذاهب إلى بندر عباس، ولا أدري متى أعود انتبهي لنفسك.

تعجّبت كثيراً، لم يأخذ معه شيئاً، لا ثياب، ولا أيّ شيء، ولا حتّى شاحن الهاتف، وعادة عندما كان يذهب في مهمّات عسكرية كان يخبرونه من قبل، وكنت أحضّر له أغراضه في حقيبة، كان قلبي مضطرباً، شغّلت التلفاز ووضعته على قناة الأخبار لأرى هل حدث شيء ما في بندر عباس، وكان قد كُتب في أسفل الشاشة أن تدريباً عسكرياً يقام في هذه المنطقة، ارتاح بالي قليلاً، ولكنّ قلبي كان لا يزال مضطرباً، لم أحتمل فاتصلت بحميد، كان داخل باص، وكانت تسمع صوت ضحكات رفاقه العسكريين في الباص فقلت له: حميد لمَ هكذا دون أي إخبار؟ مالك ولبندر عباس في نصف الليل؟ لم تأخذ معك أيّ شيء، لم يشأ أو لم يستطع أن يوضّح كثيراً فقال: هنا يعطوننا كلّ شيء، أنت نامي الآن وغداً اذهبي إلى منزل أبيك. أصابني قلق غريب ولم أدر كم استيقظت من نومي! وعندما طلعت الشمس ذهبت إلى الجامعة، وكان عندي درس حتّى الظهر حيث اتّصل بي أبي وقال: حميد ذهب إلى مدينة سردشت تعالي إلينا. فقلت على الهاتف: إلى سردشت؟ حميد قال إلى بندر

عباس! فعرف أبي أن حميداً لا يريد أن يخبرني بالحقيقة حتّى لا أشعر بالقلق فقال، ذهب إلى سردشت ولكن ليس الأمر مهمًّا، سيعود بسرعة. ازداد قلقي، وعندما وصلت إلى البيت رأيت أن عيني أمّي قد احمرتا من شدّة البكاء. اضطرمت النار في قلبي وخفت أكثر فسألت: هل حدث شيء وتريدون إخفاءه عني؟ فقال أبي: لا يا ابنتي، لا تقلقي، خير إن شاء الله، إنّه مهمة لعدّة أيّام، إن شاء الله سيعود سالماً. ومن أجل تغيير الأجواء اقترحت عليّ أمي أن نذهب إلى السوق، وطوال مدّة الشراء كان كل عقلي وحواسّي عند حميد ولم أعِ أصلاً ماذا اشترينا وأين ذهبنا، وكنّا نتجوّل أنا وأمي حيث اتصل أبي: أعطني قيمة البشارة يا ابنتي، لقد عاد حميد، تعاليا إلى البيت بسرعة، وتركنا الشراء وركبنا السيّارة قاصدين المنزل.

وعندما رأيت حميداً تنهدت، وجلست باستياء على الأريكة، ثمّ لجأت إلى المزاح قائلة: تقول بندر عباس ثمّ ترجع من سردشت؟! ثمّ تعود في يوم واحد، ليس معلوماً ما تقوم به يا رجل! صار أبي يضحك وقال: لم يكن في أيّ منهما، لا في بندر عباس ولا في سردشت، كانوا ذاهبين إلى سامراء، وأجّل سفرهم، وهذا طبيعيّ كي لا يفتضح أمرهم، ولا يضرب العدو الطائرة، يقدّمون ويأخرون موعد السفر عدّة مرات.

كان وقع هذا الخبر ثقيلاً علي، استأت كثيراً، فقلت: حميد لم أخالفك في ذهابك في أيّة مهمّة عسكريّة، ألا يجب أن أعلم أنّك تذهب إلى بلد غريب، كنت أنتظر أن ينتهي التدريب العسكريّ خلال يومين لتعود، عندها لا يجب أن أعلم أنّك تذهب إلى سامراء حيث من الممكن أن تبقى لشهر أو شهرين، وكان يشعر باستياء من إلغاء موعد الطائرة لدرجة أنّه لم يستطع فيها الكلام، ولكن أنا كنت مسرورة من قلبي، وعندما كنّا راكبين الدراجة لم ينطق بحرف، وبقي لعدّة أيام يشعر بعدم

الارتياح، وكان يذهب كثيراً في مهمّات داخل البلاد، مهمّات تمتد من يوم إلى خمسة عشر يوماً، وكان أكثرها لا نخبر بها والد حميد ووالدته حتى لا يشعرا بالقلق، ولكن هذه هي المرة الأولى التي طرح فيها الكلام عن المهمّة الطويلة خارج البلاد بكلّ هذه الجديّة، وكان اختياره هو العراق، وقالوا له أنّه مخير في الذهاب، وليس هناك أيّ إجبار، حتى يمكنك أن تختار بين العراق وسوريا، اختار حميد العراق، وكان يحب أن يكون مدافعاً عن حرم والد الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف في سامرّاء.

كان لدينا مبلغ من المال كنّا قد ادخرناه لبناء منزل، فأصرّ حميد أن أفتح حساباً مصرفيًّا ويكون هذا المال باسمي، وأثناء تناول الفطور قال: اليوم سأذهب متأخراً حتى نذهب معاً إلى المصرف، فأفتح حساباً ونضع مالنا هناك، إن حدث لي شيء في أحد الأيام لن أكون مرتاحاً يكون المال باسمك أفضل لم أقبل وقلت: ماذا يعني أن يحدث لك شيء؟ وعلى العكس لأني لا أريد أن يحدث ذلك الحدث السيّء اذهب وافتح الحساب باسمك، وعندما أصّر خاصمته، ولجأت إلى اللجاج حتى يقول ما أريد، وأخيراً قبِل أن يكون باسمه. وفي الصباح الباكر ذهب إلى المصرف ليفتح الحساب، وكان رمز البطاقات المصرفيّة وحتى هاتف حميد برقم جوازي.

وفي أواخر شهر ارديبهشت تناهى إلى أسماعنا أنا وحميد خبر سيّء من سوريا، كان مسؤوله الأسبق « حميد محمد رضايى» مشاركاً في إحدى المهمّات العسكريّة، ولكن بعد انتهائها لم يعرف عنه أيّ خبر، لم يكن أحد يعلم هل استشهد السيد محمد رضائي أم وقع أسيراً بيد الأعداء، وكان وقع هذا الخبر للعائلة وللزملاء ولحميد صعباً جدًّا.

وفي إحدى المرات التي كنّا قد عقدنا فيه قراننا حديثاً، التقيت بزوجة السيد محمد رضايى في معرض للدفاع المقدس، وحيث أنّ السيّد رضائي كان زميل أبي، كنّا نعرف بعضنا جيداً، وسألتني زوجته ما اسم خطيبك؟ وعندما عرفت أنّ اسمه حميد قالت: كم هذا مثير، هو اسم زوجي، أنا أحبّ زوجي كثيراً، فهو حنون ومحبوب. وهذا الكلام الذي يتناول العشق مني كعروس جديدة ليس شيئاً عجيباً، ولكنّ ظهور مثل هذه المشاعر على لسان زوجة السيّد «رضايى» بعد أن مرّ على زواجهما سنوات طويلة، ولهما ثلاثة أولاد، وقد عاشا سنوات مع بعضهما، له معنى آخر، وكم هو جميل أن يكون الجميع هكذا، وبعد سنوات من الزواج تظهر المحبّة بهذا النحو.

منذ أن سمع حميد بهذا الخبر لم يهدأ له بال، ولكي يظهر أيّ خبر عن السيّد رضايى قرّر أن يقوم بعمل ختم لسورة ياسين، ولم يكتف فقط أن يكتب أسماء رفاقه في الكتيبة وينتهي كلّ شيء، كان يأتي إلى البيت ويرسل الرسائل لمن اشتركوا في المشروع فرداً فرداً، ويذكّرهم مؤكّداً أن يقرأوا سورة ياسين عند الغروب أو جزء من القرآن قد حدّده لهم.

وكان يقرأ كثيراً الآية التاسعة من سورة ياسين «وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» حتى لا يقع السيد «رضائي» أو جسده في يد العدو ويد داعش، وعندما قُصّ عليه حلم عن السيّد رضايى كان دقيقاً وكان يقول: هذا الحلم سواء كان جيّداً أو سيّئاً إن وصل إلى أسماع عائلته سيكون داعياً لحزنهم، وبدلاً من هذه الأعمال لنتوسّل، ولنقم بالأذكار، حتّى نسمع قريباً بخبر عن السيّد «رضايى»، هذه العائلة تتعذّب بشدّة من عدم العلم هذا. وكان أخو السيد محمد رضايى قد فقد جثمانه في الحرب المفروضة على إيران، وكان هذا النوع من الانتظار صعباً واقعاً ومؤلماً.

وكما في العام الماضي قمنا في شهر رمضان بدورة في مطالعة الكتب، ومن جهة أخرى كانت امتحانات نهاية العام بعد شهر رمضان مباشرة، وفي الليلة التي سبقت الامتحان الأوّل قلت لحميد: زوجي الحبيب العشاء اليوم في عهدتك، لنرى ماذا ستعد، وريثما تحضّر العشاء أقوم مذاكرة عدّة صفحات من دروسي. وذهبت لأدرس وأنا أشعر بالجوع والعطش، مرّت ساعة وساعتان، ولم يكن هناك شيء، ذهبت إلى المطبخ ووجدت أنّه بلى، قد قطع البطاطس بدقّة وكأنه استعمل المسطرة ووضعها على النار، ولشدّة ما خفف النار لم تسخن حتى المقلاة فما حال البطاطس؟!

فقلت: آه، حميد أكاد أموت من الجوع، ارفع النار تحت الوعاء. فقال بهدوء: عزيزتي، لا تستعجلي! يجب أن تنضج من الداخل ولكي لا نبقى على هذه الحال من الجوع قلت: شكرا يا عزيزي حميد، شكراً لأنّك بذلت جهداً هنا لمدّة ساعتين، اذهب واجلس وسأتولّى أنا الباقي. فقال بإصرار: لا تقولي هذا، العشاء اليوم في عهدتي، أنت اذهبي إلى درسك وكتابك وحتى ربع ساعة أعدّ الطعام ومرت ربع ساعة وساعة فسألته من الغرفة بصوت مرتفع: ماذا حصل للطعام أيها المهندس؟! لقد خارت قواي، وعيناي لم تعد ترى حتى أدرس. وأخيراً وبعد كل هذا الكلام نضجت البطاطس وناداني: طعام الطبّاخ جاهز، تعالي وكلي فهذا الطعام شهيّ وجدير بالأكل.

كان الطعام الذي أعدّه حميد كطبّاخ هو البطاطس المقليّة مع البيض، وعندما دخلت إلى المطبخ وجدته قد افترش السفرة وكان عادة كلما فرشها ينسى شيئاً، إمّا الماء أو الملح أو ملعقة وشوكة، وبالنهاية يُنقص شيئاً، وعندما نظرت إلى السفرة جيّداً قلت: هذا الطعام مع أيّ شيء

يصبح ألذّ؟ لماذا لا تضع الخيار المخلّل؟! فقال: آه لشدّة ما استعجلت الطباخ نسيت، وما إن تجلسين على السفرة حتى أكون أحضرته، فضحكت وقلت: أيّها المحترم، لقد بقيت أربع ساعات أنتظر الطعام، إن أصبحت نادلاً في مطعم، ستعدّ الطعام في الثانية عشرة ليلاً، ابدأ بالطعام وأنا أجلبه، وضع يديه على كتفي ولم يسمح لي بالقيام، وكنت إلى أن حضّر الخيار وقطّعه بدقة تامة قد أكلت نصف الطعام.

إن أ... عشرة ليلاً، ابدأ بالطعام وأنا أجلبه، وضع يديه على كتفي ولم يسمح لي بالقيام، وكنت إلى أن حضّر الخيار وقطّعه بدقة تامة قد أكلت نصف الطعام.

* * *

وعندما انتهت امتحاناتي ذهبنا لتناول العشاء في منزل أبي، كانت درّاجة حميد متّسخة جداً، ولم يكن في منزلنا مكان لنغسلها، وحتّى نغسلها في فناء الدار في منزل أبي ذهبنا باكراً، وعندما وصلنا بدأ من على الدرج بقول: يا الله، وفي بعض الأحيان كان يقول أذكاراً متعددة: يا علي، يا حسين، يا زهراء، وكان يعلم بطريقة ما حتى إذا ما كان هناك امرأة أجنبيّة تنتبه وترتدي الحجاب. وكان يخجل من أن يغسل الدرّاجة وحده فكان يقول: عزيزتي تعالي وابقي معي، وبين عائلتي كان حميد كثير الحياء والاحتياط، ومع أنّ والدي كان خاله إلا أنّ سلوكه معه كان في غاية الاحترام، وما إن أنهينا غسل الدرّاجة حتى رنّ هاتف حميد وكان هذه المرّة مطلوب أيضاً، وقد صرت عندما أسمع بكلمة «طُلِبَ» تسوء أحوالي وتتقطّع نياط قلبي، وكنت أشعر بالخطر من بعد كيلومترات، جهّز حميد نفسه وذهب قلت لأمّي: هذه المرّة إلى سوريا ليس هناك شكّ أبداً. ومرّت ساعات، وحوالي الساعة العاشرة رجع، كان متضايقاً جدًّا وتقوقع على نفسه، كان أحياناً يتكلّم همساً مع والدي، بشكل لا يجعلني أسمع، أحضرت لهما الفاكهة وقلت: ماذا تقولان أنتما الاثنان؟ تريد أن تذهب إلى سوريا؟! ضحك أبي وقال: عزيزي حميد، ابنتي أكثر ذكاء من هذا

الكلام لا يمكن أن تخفي عنها شيئاً. هزّ حميد برأسه موافقاً على كلام أبي وقال: أجل، حدسك صحيح، جميع رفاقي يريدون أن يذهبوا، ولكن اسمي لم يأت في القرعة. فقلت متعجّبة: وهل الذهاب إلى سوريا يحتاج إلى قرعة؟ فقال أبي: لأنّ عدد المتطوّعين كثير والعدد المطلوب للذهاب محدود، لذا يجرون قرعة حتّى يذهب عدد ما في كل مرّة، وكان حميد يتكلّم مع أبي ليكون واسطة له في الذهاب وكان يقول: ليس الآن وقت البقاء، إن بقيت سأبقى طوال عمري خجلاً من السيّدة الزهراء عليها السلام.

وكان حزينا جداً من بقائه لدرجة كنت لا أستطيع عندها الاقتراب منه، وكنت في أوقات كهذه أرجّح أن لا أزعجه في خلوته وأتركه وحيداً، كنت أشاهد التلفاز فسمعت صوت أمّي ينبعث فجأة من المطبخ، لقد انسكب الزيت الحار على يدها، قمت ولكن ببعض البطء وذهبت إلى المطبخ، لم يكن شيئاً مهماً، وعندما عدت رأيت حميداً يشعر بالضيق، بالضيق الكثير، وعند عودتنا إلى البيت سألني عدّة مرات: لماذا عندما طلبت زوجة خالي المساعدة قمتي ببطء؟ كان ذهابك البطيء عملا سيئاً! عندما تحتاجك امرأة يجب أن تأتي بسرعة، وهذه أمّ، كان عليك الذهاب سريعاً.

وفي شهر «مهر»[٧] من عام ٩٤ وقعت جدّتي مريضة، ذهبنا أنا وحميد لعيادتها، لم تكن بحال جيّدة، وبعد عيادتها ذهبنا إلى منزل عمّتي، وداخل الغرفة بكيت كثيراً، وعندما سمعت عمّتي صوت بكائي شعرت بالغصّة، دخل حميد إلى الغرفة وقال: حبيبتي هل يمكنك أن لا تبكي؟ عندما تبكين تكاد أمي تختنق بغصتها، أنا لا أحتمل بكاءكما أنتما الاثنتان، لم أستطع التوقّف عن البكاء كان الأمر خارجاً عن يدي، لا أدري لماذا عندما أصبح ذهاب حميد إلى سوريا جديّاً صار قلبي رقيقاً بهذا

---

٧ الشهر السابع من الشهور الإيرانية.

الشكل! وعندما رأى حميد كيف انقلب حالي قال بمزاح: قومي لنذهب خارجاً، يجب أن تركبي الدراجة حتى تعود روحك إلى ما كانت عليه.

ولأني لم أكن أحب أن أؤذي عمّتي أكثر من هذا تركنا المكان سريعاً، واشترى لي حميد أثناء الطريق الكثير من السكاكر حتّى تتغيّر حالتي، وعندما وصلنا إلى البيت كان أحفاد صاحب المنزل أمام الباب، وقدّم لهم حميد من كل ما اشتراه، وكان دائماً كريماً، وكلّما كان يحمل طعاماً كان يقدّم منه لأحفاد صاحب المنزل إذا وجدهم على الدرج، وإن طبخت «شله زرد»[٨] أو «آش»[٩] كان يقول: لنبعث وعاء إلى صاحب المنزل ودعي وعاء آخر جانباً نأخذه لأمي. وعندما أعطاهم أكثر من نصف ما اشتراه أكمل الصعود على الأدراج وقال: أنا أخاف كثيراً من صحيفة أعمالي، وربّما يتجاوز الله عن سيئاتي بسبب دعاء هؤلاء الأطفال البريئين.

ولم يمض أسبوع على هذه القصة حتى أعلن التلفاز خبر استشهاد الحاج «حسين همداني» في سورية، وعندما سمع حميد خبر استشهاده جلس أمام التلفاز يبكي، كان يعرف جيداً القائد همداني، لأنه في العديد من الدورات التدريبيّة التي أقيمت في طهران كان يلتقي مع هذا الشهيد. وقال بحسرة: الحاج حسين هو خسارة، نحن حقاً نحتاج إلى وجوده. وفي نفس ذلك اليوم دعتنا عمّتي إلى تناول طعام الغداء، وأثناء تنظيف الخضار قلت لعمّتي: لقد استشهد القائد «همداني»، وقد بكى حميد كثيراً لسماع الخبر. وما إن سمع حميد حتّى حدّق بي بعينيه وهو يعني: لماذا قلتي لأمّي؟ رفعت فقط كتفي، لم يكن يحبّ أن تعرف عمّتي بحزنه، لذا دخل إلى الغرفة ولعب مع أولاد أخته بالكرة، وكانوا يضربون الكرة برؤوسهم، وكان صوت حميد الذي

---

٨ حلوى إيرانية منزلية تعد من الأرز والسكر والزعفران.

٩ طعام يطبخ من الحبوب والخضار.

يعلو أكثر من الأولاد، وكان أولاد أخته يقولون أحياناً: ليت خالنا كان هنا لكنّا لعبنا بالطابة معاً.

* * *

كان أفراد المجموعة التي وقعت القرعة بأسمائهم للذهاب إلى سوريا يذهبون تباعاً إلى دورات للتدريب والاستعداد وتعلّم فنون القتال، وفي الأيام التي لم يكن حميد معهم كانت الدنيا بالنسبة إليه كالقفص، كان مضطرب المزاج ولم يكن له رغبة في أيّ شيء، كان شعوره شعور إنسان بقي وحيداً بينما رحل جميع أصدقائه.

وقد تعطّل موعد سفر هذه المجموعة لعدّة مرّات، وكلّما كان حميد يعود إلى البيت كلّ يوم كنت أسأله عن سفر رفاقه، فكان يقول ضاحكاً: أمر مثير، كلّ صباح نودعهم ومرّة ثانية في صباح اليوم التالي يعودون إلى العمل، وبعضهم كان يقول: صرنا نستحي من العودة إلى المنزل، كلّ يوم تودّعنا العائلة بالدموع والنذورات والتوسل، ونحن نودّعهم وفي الليل نعود إلى البيت.

وفي السادس عشر من شهر مهر[1] دخل إلى المنزل منزعجاً وقال: في النهاية رحلوا وبقينا، لقد بكى أبوك أثناء ذهابهم كثيراً، لقد احتضنهم واحداً واحداً، وطلب منهم المسامحة ومرّر القرآن فوق رؤوسهم. كان أبي حساساً بالنسبة لهذه الأشياء، وسرعان ما يصبح عاطفياً. هذه المشاهد تذكّره بأصدقائه أيام الحرب المفروضة على إيران وأصدقائه الشهداء. وفي تلك الأثناء كانت يعرض على قناة أفق وثائقي حول المرابطين في الحرم، وكلام لزوجات الشهداء المدافعين عن الحرم،

---

١. الشهر السابع...

فانفصل أبي وقال لحميد لا تدع فرزانة تشاهد هذه البرامج. وفي إحدى المراحل كانت شبكة أفق ممنوعة في بيتنا. تلك الأيام كان جميعنا يمر بأوقات صعبة، وكان حميد يقول: إنّ الثكنة كلّها في حالة غمّ وهمّ، كان لا يهدأ له قرار، واختلفت صلاته في الليل، وعندما كنت من الجامعة كنت أسمع صوت دعائه من خلف الباب، وعندما كنت أدخل كنت أرى عينيه المبللتين تعترف بكل شي، لم يكن يحب أن يبقى، كان يريد الرحيل.

وبعد فترة وجيزة بدأت اتصالات أصدقاء حميد من سورية، كانوا يتصلون ويحدثونه عن الأجواء هناك، كان الصوت يصل متأخراً، كان حميد يحاول تقويتهم، ويضحكهم ويحدثهم، وكان كل واحد من أصدقائه يأخذ قلب حميد بطريقته، وقال السيد ميثم من أعضاء المجموعة: سأبقى هنا حتى تأتي إلى سوريا، أراك هنا ثمّ أعود إلى إيران. وكان صديقه هذا في اللحظة الأخيرة قد احتضنه وقال له: حميد أنا عندي طفلان، أبو الفضل وعباس إن عدت سالماً من سوريا فلا عليك، وأنا إذا ما استشهدت فعلّم أولادي النهج الصحيح.

وعندما كان حميد يعود من المنزل كان يقول: اتّصلي بزوجات أصدقائي الذين ذهبوا إلى سوريا، واسألي عن أحوالهم، واسألي إن كانوا يحتاجون شيئاً أو عندهم أي عمل فلا يخجلن من طلبه. وكنت أنا أجلس أحياناً أمام الحاسوب بعيداً عن أعين حميد كنت أشاهد صور مجموعة حميد وأصدقاءه وخاصة أولئك الذين ذهبوا إلى سوريا ولديهم أطفال و كان قلبي يحترق، وكنت أدعو وأبكي وكنت أخاطب الله: إلهي بحق أهل الكساء الخمسة، هذا الصديق من أصدقاء حميد له أطفال، إن شاء الله يعود سالماً. وفي تلك الأيام لم يكن يخطر ببالي أنّه بعد عدّة أسابيع سأشاهد هذه الصور وحينها سأبكي من أجل حميد، ولا أعرف ليلي من نهاري.

الفصل التاسع

لقد بذلنا البقاء من أجل اللقاء

وعن طريق صديقتي حصلت على كتاب « دختر شينا» قصة حياة رجل وزوجته تشبه حياتنا، العشق الذي كان بينهما، ذكريات أول أيام حياتهم حيث كانت زوجة الشهيد تخجل من الحاج ستّار أو المهمّات العسكريّة للشهيد، الغياب وبعد المسافات، وكان كلّ هذا يمكن أن أراه في حياتنا المشتركة، كنت أقرأ صفحة صفحة وأذرف دموعاً كشتاء الربيع وأبكي بصوت عال، وكلما وصلت إلى آخر الكتاب كان خوفي يزداد، كنت أخاف أن يتكرّر الشبه بين حياتنا وهذا الكتاب أيضاً في نهاية القصة. وكنت غارقة في أجواء القصة وحياة «قدم خير» بطلة دختر شينا فانتبهت لوجود حميد، كان يقف فوق رأسي وينظر إلى عيني الدامعتين، وعندما رآني واقعة إلى هذا الحدّ تحت تأثير الكتاب أخذه من يدي وأخفاه وقال: ليس لك الحقّ أن تقرأي بقيّة الكتاب، ما قرأته يكفي. قلت لحميد بنفس الغصّة والبكاء: قصة هذا الكتاب تشبه حياتنا، أخاف أن يختم آخر قصة عشقنا بالفراق أيضاً.

كانت الغصّة تمتلكني لدرجة أنّي لم أتمكّن من الكلام لساعات، وكان حميد مشغولاً بعصارة الفاكهة التي لا تعمل جيداً، ولأنّه يعمل في قسم الاتصالات كان ماهراً في الأعمال التقنيّة، وعندما كان يخرب شيء كان يحاول إصلاحه، من مفتاح الكهرباء والمقبس حتى مزلاج الباب وخرطوم المياه، وقليلاً ما يحدث أننا أخذنا شيئاً إلى الخارج لنصلحه. وانشغلت أنا داخل المطبخ، ومع مرور ذكريات دختر شينا تذكرت أول أيام عقدنا قراننا حيث كنت أتحدّث مع حميد بشكل رسمي، ولم أكن أستطيع حتّى التلفّظ باسمه، ولكنّ حميداً الآن أصبح كلّ شيء بالنسبة لي وليس عندي لحظة صبر على فراقه.

ومع سماع رنين الهاتف قطعت حبل ذكرياتي، كانت مسؤولة التعبئة في الجامعة، وكانت تصرّ على أن أرافقها في رحلة للطلاب الجدد، كان قلبي مع حميد، لم أحبّ أن أتركه وحده، ولكن أصدقائي الباقين لم تكن ظروفهم تسمح بالمرافقة، وفي الثامن من شهر آبان انطلقنا مع الطلاب إلى رامسر، وقبل الرحلة أعددت له «آش» و«شله زرد»[1]، وعادة قبل الرحلات كنت أعدّ له وجبتين أو ثلاث وأتركها في الثلاجة حتى يسخّنه ولا يبقى دون طعام.

كان الطقس في رامسر غائماً، والمطر يتساقط، وبعد يوم من إقامة دورات دراسية، أخذنا الطلاب إلى شاطئ البحر، كان الموج عالياً، التقطنا الصور مع الطلاب وثم ذهبنا نحو قصر «موزه بهلوى»[2] كان فصل البرتقال والأفندي، وكان بعض الطلاب يشاغبون ويقطفون من أشجار الفاكهة داخل البستان.

وعندما اتصلت بحميد عرفت أنه ذهب لمراسم أول شهيد مدافع عن

---

١ حلوى إيرانية منزلية تتكون من الأرز والسكر والعقدة الصفراء.

٢ المتحف البهلوي.

الحرم في قزوين «رسول پور مراد» إلى قلعة هاشم خان مسقط رأس هذا الشهيد، لم يستطع أن يتحدّث كثيراً، وعندما قلت له: إنّ الطلاب قد قطفوا الكثير الفاكهة من بستان بهلوي. قال: حبيبتي لا تأكلي من هذه الفاكهة، إنه بيت المال، وليس من المعلوم أنّ الشاه في ذلك الزمان من مال أيّ رعيّة قد اتخذ هذا البستان لنفسه، عندما تأتين إلى قزوين سأشتري لك الكثير من البرتقال والأفندي.

ولأنّه كان يحب الـ «كلوچه»[٣] اشتريت له منها أثناء عودتي، وعندما وصلت إلى البيت كان حميد قد ذهب إلى النادي، غسلت ملابسه، ونشرتها على الحبل، لم يكن يسمح لي بأن أغسل ملابسه، من الملابس الرسميّة إلى ملابس النادي والملابس العسكريّة، كان يغسلها كلّها، وفي السنة الأولى عندما كنّا نسكن في الأسفل لم يكن هناك مكان لتفريغ ماء الغسيل، وعندما انتقلنا إلى الطابق العلوي كان المطبخ صغيراً لدرجة لا نستطيع فيها أن نفتح باب الغسالة، لذا لم نستطع الاستفادة من غسالة الملابس، واضطررنا أن نتأقلم مع الوضع وأن نغسل ملابسنا بأيدينا.

وأحببت بعد يومين من الغياب أن أعدّ له بيتزا لذيذة، وضعت أغراضي بسرعة في مكانها وبدأت بإعداد الطعام، وكان حميد يحبّ جميع أنواع الطعام ما عدا «كله پاچه»[٤] وبالتاكيد كان يهرب من البيتزا، وحسب ما حكى لي أيام الخطوبة وكأنه أكل مع أحد أصدقائه بيتزا ولكن لم تكن معدّة بشكل جيّد، ومن حينها وهو يكره البيتزا، وعندما أتذكّر أوّل بيتزا أعددتها له ابتسم، وأول لقمة منها تناولها بعينين مغمضتين، وعندما صار يأكلها شيئاً فشيئاً أعجبته، ثمّ أكل القطعات الأخرى بشهيّة، وثمّ

---

٣ أقراص حلوى

٤ طعام يعد من أقدام ورأس الأغنام

تراجع عن نظرته تماماً، لقد تبدّل رأيه حيث كان يقول: فرزانة أعدّي هذه الليلة البيتزا، ذلك الذي أكلناه خارجاً يختلف اختلاف السماء عن الأرض مع الذي تعدّينه أنت، هل أنت متأكدة أن هذه هي بيتزا أيضاً؟! وكنت مشغولة في إعداد البيتزا فانتبهت فجأة أنّ في داخل سلّة الخبز كيلوان أو ثلاثة من العجين، دقّقت النظر جيّداً وفهمت أنّ حميداً أراد أن يليّن الخبز اليابس ويخرجه من حالة الجفاف ولكن بدل من أن يضع بعض القطرات من الماء كأنّه غسل الخبز بالماء، ثم طوى الخبز ووضعه في محله.

وعندما رنّ جرس الباب نزلت إلى مطلع الدرج السفلي، انتظرته لعدّة دقائق لكنّه لم يصعد، وعندما أطلّيت برأسي من النافذة رأيته يتكلّم مع ابن صاحب المنزل، عدت بسرعة إلى المطبخ ووضعت بعض «الكلوچه» في صحن حتى نعطيها لصاحب المنزل، وعندما كان حميد يصعد على الأدراج كان صوته يرتفع كالعادة بـ: يا الله.

وبعد أن سألته عن حاله وحكيت له كلّ تفاصيل الرحلة سألته: ماذا كان يريد ابن صاحب المنزل لقد وضعت بعض «الكلوچه» جانباً حتى تأخذها إلى الأسفل؟ أشار حميد إلى كتاب كان في يده وقال: هذا الكتاب استعاره ابن صاحب المنزل من مكتبة الحرس أثناء خدمته العسكريّة ولكنّه نسي أن يعيده، أعطانيه لأعيده إلى المكتبة. كان كتاب «الذنوب الكبيرة» لآية الله دستغيب، فقلت لحميد: كم هذا جميل! هو الكتاب الذي بحثنا عنه في المكتبات ولم نجده، وبما أنه هنا الآن فلنجلس ونقرأه معاً. وضع حميد الكتاب على الجدار الفاصل بين المطبخ والغرفة وقال: لا يمكن أن نقرأ هذا الكتاب، لأننا لم نستعره نحن، ولم يسجّل في مكان ما باسمنا، إذن لا يحقّ لنا قراءته لأنّه جزء من المال العام ونستطيع أن نقرأه إذا استعرناه بأنفسنا من المكتبة.

وكنت مشغولة بالتحدث مع أمّي عبر الهاتف، وكنا نتكلم عن أحد البيوت الذي تقرّر أن نأخذه من الحرس، فقالت أمّي: شيئاً فشيئاً علينا أن نعدّ العدّة لتجهيز أعمال البيت الجديد، وعند الوداع أخذ أبي سماعة الهاتف وبعد أن تبادلنا المزاح بين أب وابنته قال: لقد أحضروا لنا اليوم لائحة بأسماء المغادرين إلى سوريا وشطبت اسم حميد، أخبريه بطريقة لا تشعره بالحزن.

وعندما قطعت الاتصال انتبهت لصوت بكاء حميد، وعندما ذهبت إلى الغرفة رأيته قد حمل قصّة دختر شينا بيده وبكى على ذكرياتها، وعندما انتبه لمجيئي أغلق الكتاب وقال: حقٌّ ما تقولين من أن حياتهما تشبه حياتنا، زوجات الشهداء تقدّمن الكثير من التضحيات، فأن تتحمل امرأة وحدها أعباء الحياة أمر صعب، أحبّ الآن بعد أن وضعت اسمي في لائحة الراغبين بالذهاب إلى سوريا وقدّر لي أن أكون شهيداً أن تكوني صبورة كهذه المرأة.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه أصدقاؤه في سوريا طرح إرسال متطوّعين جدد، وعندما رأيت كلّ هذا الحماس للذهاب صرت أحدّث نفسي كيف سأخبر حميداً بمحو اسمه، وعندما رآني حميد غارقة في التفكير سألني عن السبب وبعد تمهّل ومقدمة قلت: أخبرني أبي على الهاتف أنّه محى اسمك من لائحة الذاهبين، وطلب منّي أن أخبرك. وعندما سمع بالأمر انزعج كثيراً وقال: لا ينبغي لخالي أن يفعل هذا، أنا أحبّ كثيراً أن أذهب إلى سوريا. وبقي لساعتين لا يتكلّم، وخلافاً للأيّام السابقة لم يأخذ قسطاً من الراحة، وعندما حلّ الغروب لبس ثيابه ليذهب إلى النادي، وعندما عاد إلى البيت قال إنّه تكلّم مع أبي، وحكى

لي كلّ ما دار بينهما بالتفصيل، وماذا قال لأبي وبماذا أجابه، وبعد التمارين لم يحبّ أن يقف في وجه والدي ولكن قال: خالي العزيز إذا كان نصيبي الشهادة فهنا في قزوين سأستشهد، لا تقف حائلاً دون ذهابي، اسمح لي أن أذهب. ولكنّ أبي لم يقبل فقال: إذا كان لا بدّ من الذهاب أنا وأخوك ظروفنا مهيأة للذهاب أكثر، أنت لا زلت فتيًا، عندما تصل لسنّي أو لسن الحاج همداني فاذهب حينها إلى سوريا.

في تلك الليلة لم يزر النوم عيني حميد، كنت أعرف أنه إذا بقي حميد هذه المرّة سيموت من الغصّة والحزن، وفي الصباح بعد ما يستّرت أمور حميد، ذهبت إلى منزل أبي، وتحدّثت طويلاً إلى أمي وأبي، وطلبت من أبي أن يعيد اسم حميد إلى اللائحة، فقلت: ليس هناك من مشكلة، أنا أقبل بذهاب حميد إلى سوريا، والخير فيما يقع. قال أبي: ابنتي، الأمر واضح لئن ذهب حميد سيستشهد تأكدي! وأمّي التي كانت قلقة من وحدتي قالت: فرزانة، لا قدرة لي على تحمّل بكائك، لا سمح الله لو حدث مكروه فلن تتحمليه. وقلت في جوابهما: أفهم كلامكما، أنا أيضاً أشعر في قلبي أنّه سيستشهد ولكن لا أحبّ أن أقف في طريق سعادته، أرجوكما اقبلا، حميد يحبّ أن يذهب ويدافع عن الحرم، لقد اختار طريقه منذ زمن بعيد. وعندما رأى والدي إصراري رضخ للأمر الواقع، وتقرّر أن يتكلّم ليضيف اسم حميد في الذاهبين في دفعة جديدة.

ويوم السبت السادس عشر من شهر آبان عدت من الجامعة إلى البيت عند الساعة الخامسة، كان الطقس غائماً ومظلماً وكانت أضواء الغرفة مطفأة، كان حميد قد غطى رأسه بغطاء قرب المدفأة ونام، رويداً رويداً ذهبت إلى المطبخ، ولم أتناول سوى بضع لقيمات من طعام الغداء حتى استيقظ، ناداني وقال: متى وصلت؟ عندما تنهي طعامك تعالي هناك موضوع أريد أن أخبرك به. قلت ممازحة: ماذا؟ تريد أن

تذهب إلى سورية مجدّداً؟ ربما تريد أيضاً الذهاب إلى سامراء، أينما تريد أن تذهب فاذهب، لم نعد نريد منك شيئاً. ضحك وقال: حقاً أريد أن أذهب، اليوم صباحاً أعلنوا أن من يريد الذهاب إلى سوريا فليبق، الكثيرون قد قدموا طلباً للذهاب، ثمّ سألوا كم شخصاً منكم لديه جواز سفر، رفعت يدي، سألوا كم شخصاً أمضى دورة مساعد طبيب، رفعت يدي من جديد، سألوا كم شخصاً يتقن العمل على المدفعيّة على خط النار؟ رفعت يدي من جديد. فقلت: إذن قمت بكلّ شيء، فقط بقي أن أحضر قرآنا وتمرّ من تحته، ورفع يديك هذا هو الذي سينتهي بنا إلى ما تريد، وهل عاد أولئك الذين ذهبوا في الدفعة الأولى؟ قال وهو يرتب الغطاء: يجب أن نذهب، فنستلم الخطّ وعندما نستقرّ يعودون.

وقبل عدّة أشهر كنا قد سجّلنا اسمنا لزيارة العتبات المقدّسة في العراق، كان حميد يقول: المرة السابقة عندما ذهبت أردت أن أشتري لك شادور العرس، هذه المرة عندما نذهب معاً ستشتريها بذوقك الخاص. كان تاريخ جواز سفرنا قد انتهى، وكنا لعدة أيام عالقين في إرسال الوثائق اللازمة لتمديد الجواز، قمنا بكلّ الإجراءات اللازمة ولكنّ القرض لم يتمّ لنا، وكان نصيبه أن يسافر بالجواز الذي كان مقرراً أن يذهب به لزيارة الإمام الحسين عليه السلام للدفاع عن حرم أخته.

ومرّت أربعون يوماً على إرسال الدفعة الأولى، وكان قد كلّمني بالموضوع يوم السبت وكان الذهاب يوم الاثنين ممّا يعني بعد يومين فقط، وبمقدار ما كان قلبي مضطرباً وكنت بحال سيّئة كان حميد مليئاً بالهدوء والاطمئنان، مشّط ذقنه أمام المرآة وقال: يجب أن يكون عندي صورة باللباس العسكريّ سأذهب إلى المصوّر أول الزقاق آخذ صورة وأعود بسرعة. وعندما خرج من المنزل استيقظت من وقع الخبر وبدأت بالبكاء، ومهما فعلت لم أستطع مخاصمة قلبي، فراق حميد كان كابوساً،

لا يمكنني أن أفكّر به للحظة، كان إيماني في جهة ومشاعري في جهة أخرى، وكان إحساسي يضغط على حنجرتي أن: لا تسمحي له بالذهاب، خاصميه، قفي في وجهه، الجأي إلى اللجاج، ما معنى أن يذهب زوجك في مثل هذه الظروف أول حياتكما ويستشهد. وكانت هذه الأفكار مثل الآكلة في روحي، ابتلعت غيظي، ورأيت أمامي مشهد يوم القيامة أني وقفت امام أمير المؤمنين عليه السلام بيدين خاليتين، في الوقت الذي لم أفعل فيه شيئاً في هذه الدنيا، وصرت مانعاً لذهاب زوجي.

كنت بين السماء والأرض، وبدون إرادة مني كانت دموعي تتساقط، كانت حالنا ويومنا جديرة بالمشاهدة، أحدنا مليء بالحنق والدموع والآخر مليء بالشوق والشغف، اتصلت بعدد من أصدقائي ومعارفي ربما استطاعوا تهدئتي ولكن لا، وكان البعض بكلامهم كمن يضعون الملح على الجرح، كانوا يظنّون أني لا أحب حميداً فسمحت له بالذهاب إلى سوريا، وكانوا يقولون: لو كنّا مكانك لما سمحنا له بالرحيل، وإن كان يحبّك فإنه سيبقى. لم يكونوا يعلمون أني أنا وحميد نعشق بعضنا، وصحيح أني كنت مضطربة، ولم أستطع إرضاء قلبي، وبهذا الحال لم أرد أن أكون من النساء الملعونات في التاريخ اللواتي لم يسمحن لأزواجهن بنصرة الحق، لم أحبّ أن أقف خجولة أمام السيّدة زينب عليها السلام.

ولم تمرّ نصف ساعة حتّى عاد حميد، وآراني صوره وهو في غاية السرور، وكانت آخر صورة التقطها في الاستوديو، صور شمسية بلباس عسكري، وما إن رأيتها حتى لم أتمالك نفسي، لم أكن أحبّ أن يرى دموعي، لم أحبّ أن أؤذي قلبه ساعة رحيله، وحاولت بالتنفس العميق أن أقف أمام كلّ هذا الاختناق والدموع التي كانت تهاجمني، من أجل حميد وسعادته تجاوزت عن نفسي، ولكنّ المحافظة على الظاهر في الوقت الذي تعلم فيه أن قلبك ينزف دماً وحالك متزلزل كان يعذّبني كثيراً.

وعندما رأى حميد وجهي عرف ببكائي، وبيده العطوفة رفع رأسي وسألني: حبيبتي هل كنت تبكين؟ لقد اتفقنا أن تساعديني في كلّ موقف، وبهذا البكاء تصعّبين عليّ عملي. فقلت: لا ، ليس هناك شيء مهم، كان التلفاز يعرض وثائقياً عن الشهداء ومن رؤية المشاهد جرت دموعي. ثمّ ابتسمت وقلت: أنا راضية لاختيارك يا حميد، اذهب ودّع أباك وأمّك؛ لأنّك ستغيب لشهرين لا يمكن عدم إخبارهما. أمسك بيدي وقال: هل تعديني أن تكوني هادئة ولا تبكي، سأحاول ان أذهب لمدّة نصف ساعة وأعود، فأجبته: ليس ضرورياً أن تعود بسرعة، إبق لساعات عند أبيك وأمّك.

عند الساعة السادسة ذهب، وانهمكت أنا في أعمال المطبخ، جاء متأخرًا جدًّا، عاد عند الساعة الحادية عشرة، وعرفت أن عمّتي انزعجت كثيراً، وعندما وصل سألته: هل ودّعتهما؟ هل بكت عمّتي كثيراً، ماذا قال أبوك؟ قال حميد بهدوء مميّز: لم تقل أمّي شيئاً، بكت فقط. وفي المرّات السابقة التي كان يذهب فيها للخدمة، لم نكن نخبر أباه وأمّه، لقد صدموا لم يكونوا ليصدّقوا أبداً أنّه يريد الذهاب إلى سوريا.

يوم الأحد لم أذهب إلى الجامعة، وعندما عاد حميد من العمل قال: تعالي لنذهب إلى أبيك وأمّك نودعهما، وأمام الباب وقبل أن ننزل عن الدرّاجة اتصلوا من أمن المطار وأخبرونا أنّ السفر قد ألغي، شعرت وكأنّي أحلق، صار حالي أفضل، واستطعت أن أتناول العشاء براحة عند أمّي، رغم أنّ حميداً كان يلعب فقط بالطعام، فمنذ أن أخبروه استاء كثيراً. وكانت أمّي مسرورة مثلي، وكانت تمازح حميداً حتّى يؤخّر سفره إلى سورية بسبب المحبّة التي يكنّها لي، وكانت تقول له ممازحة: حبيبي حميد الآن قد تأجّل سفرك، ولكن إن أردت في أيّ وقت أن تذهب بسلامة إلى سوريا فطلّق ابنتي ثمّ اذهب.

وكان حميد الذي تعكّر مزاجه بسبب إلغاء السفر يضحك من كلام أمي وقال: إنّ ذهابنا يتعرض للتأخير لكنّه لن يلغى أبداً، ثانياً: من الذي قال أني لن أعود سالماً، لا تخافي أنا رجل حديدي، وأنا كعريس جديد يترك زوجته أمانة ويذهب للجهاد.

جلست جانباً أستمع إلى كلامهما، وقلت لأبي: هل تسمع ما يقولان؟! جميل جداً، أنا حيّة أرزق، أحدهما يقول طلّق والآخر يقول لا أطلق، وأنا لا قيمة لرأيي!

ويوم الاثنين عندما عاد من العمل خلع ملابسه العسكريّة وقال لي: لو سمحت هل تنزعين هذه الملصقات؟ لأننا ذاهبون إلى سوريا فيجب أن لا تبقى ملصقات الحرس على قبّة الملابس وأطرافها، فإذا رأى أبناء تنظيم داعش هذه الشارات سيعلمون أنّي من الحرس وعندها لن يرحموا حتّى جنازتي. أخذت الملابس وذهبت إلى الغرفة ونزعت الملصقات، وكويتها عدّة مرات حتى لا يبقى لها أثر، وضعت الملصقات على حافة المطبخ وقلت لحميد: ستبقى هذه هنا عدني أنك تعود سالماً، سأعيد خياطتها في مكانها.

أخذ مني الملابس وقال: صرت ماهرة في العمل، لو سمحت أيضاً أعيدي خياطة هذا الزر في أعلى القبة، الملابس العسكرية يجب أن تغطّي كلّ ما تحت الحنجرة، وبخيط أسود أعدت خياطة الزر في الأعلى، وعندما رآها قال؟ لماذا أعدتي خياطتها باللون الأسود يجب أن تفعلي هذا بالخيط الأخضر؟! فقلت أنا أيضاً: عزيزي حميد لا تعقّد الأمور، هذا الزر تحت القَبّة ولن يظهر منه شيء. لقد كان دقيقاً بالنسبة للآداب والقوانين العسكريّة وخاصّة ما يرتبط بملابسه، وكان يكنّ لهذه الملابس العسكريّة احتراماً خاصاً.

وعند الغروب جاء أخو حميد لوداعه، وتحدّث مع أخيه حسين حول

الأوضاع في سوريا وأحوال القوّات التي تتوجّهة إليها، وقد أعد حميد لأخيه حبات الرمان ولكن حسين لم يأكل شيئاً، وعندما ذهب رحت أرتّب المنزل وكان من المقرر أن يأتي في تلك الليلة أبوه وأمه وأخواته وسعيد إلى بيتنا لوداعه، اشترينا التفّاح والموز وكان الوعاء الذي وضعت الفاكهة فيه بقي كبيراً عليها وكان يبدو أنّ الفاكهة لا تكفي للضيوف وعندما رأى حميد وعاء الفاكهة قال سأذهب واشتري كيلوين أو ثلاثة من الموز، تبدو الفاكهة قليلة. فقلت: لا، جيّدة، صدّقني هذه كثيرة، ولأنّ الوعاء كبير تبدو هكذا. وبعد عدّة دقائق عاد يصرّ، ولشدّة ما كان يعتني بالضيوف لم يستطع أن يتجاوز قلقه عن قلّة الفاكهة وأخيراً لم يحتمل فلبس ثيابه وقال: من شدّة التوتر أصابني ألم في بطني، سأذهب واشتري كيلوين من الموز.

وعندما عاد احترت ماذا أفعل بكلّ هذا الموز؟ أمتلأ الوعاء بالموز، كان ظنّي في محله، وعندما ذهب الضيوف بقي الكثير من الموز فقلت له: أيها الرجل المؤمن، ستذهب بعد يومين أو ثلاثة، ويمكننا أن ننشئ موكب عزاء بكلّ هذا الموز، ومع أنّ حميد قد عرف كم بقي من الموز إلا أنه كان يخلّص نفسه بسرعة فقال: لا مشكلة عزيزتي، لقد أضفتها متعمّداً، ضعيها في حقيبتك وخذيها إلى منزل أمّك، بدلاً من الأيام التي ستقضيها هناك. وعندما كنت أعيد الصحون إلى مكانها وقع نظري على الملصقات على حافّة المطبخ، وضعت الملصق الذي فيه اسم حميد في راحة يدي وألقيت عليه نظرة خاطفة، كان يقوم بأعماله بهدوء ولكن أنا لم أكن بحال جيّدة أبداً، صمتُ الليل وألم الوحدة كانا يقوّضان قلبي، وكان الإحساس بفراق حميد يعذّبني.

وتلك الليلة أصبت بتوتّر غريب، قفزت عدّة مرات من النوم وذهبت مباشرة إلى ملابسه، وفي ظلام الليل كنت أغلق عيني وأتحسّس بيدي

حتّى أطمئن أنه لم يكن هناك أي أثر للخياطة ومكان الملصقات الخالي، كنت أحسب نفسي مكان العدوّ وأرى هل سينتبه لخيوط الملصقات أو لا؟ كنت أشمّ الثياب وأبكي بصمت، لم يكن قلبي ليستقرّ في مكانه، وبدأت أتمتم بالقرآن وأطلب من الله أن يحمي حميداً.

كان نوع الوحدة يوم الثلاثاء غريباً جداً بالنسبة لي، كان فيه طعم أشواق غروب يوم الجمعة[٥]، لم أكن أشعر بميل نحو أيّ شيء، كان جوّ المنزل مليئاً بالغم، وكان صوت عقارب الساعة الصوت الوحيد الذي يسمع، أحببت أن أسحب عقارب الساعة حتى تصل إلى الثانية والنصف حتى يعود حميد إلى المنزل بسرعة، لكن حتّى عقارب الساعة كانت تعاندني ولم تتحرّك، ومع أنّه قال قد يتأخّر إلا أنّي أعددت سفرة الغداء، تذكّرت أوّل أيام حياتنا وكيف مضت بسرعة، لم أشأ أن أصدّق أنّ هذه هي آخر أيام حميد، وكنت أغلق عينيّ على الدوام وأفتحها حتّى أرى أنّ كلّ شيء ما زال على حاله، واضطراب قلبي لا سبب له، وهذه المهمّة العسكريّة هي كباقي المهمّات التي ذهب إليها، عدّة أيام من البعد والفراق ولكن بعدها الشيء الذي يبقى هو حميد الذي يعود إلى المنزل، كنت أواسي نفسي، ولكن بعد عدّة دقائق وكأنّ أحداً ما يصرخ في عمق وجودي أنّ هذا الرحيل لا رجعة فيه! أحببت ما دام حميد لم يأت بعد أن أشبع من البكاء ولكنّ دموعي لم يكن لها نهاية.

وفي ذلك اليوم عاد حميد متأخراً، تقريباً عاد قرابة الليل، كان يرتدي الملابس العسكريّة، وقد تلوّثت جميعها بالطين، وللاستعداد قبل المهمّة كان قد ذهب إلى التدريب وقد أحضر جميع وسائله الشخصيّة من العمل، وكأنّ إلهاماً قد أتاه، لم يكن قد فعل هذا من قبل، مع

---

٥ من المتعارف أن يوم الجمعة يظهر فيه الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وعند غروبه يشعر المؤمنون بالشوق والحسرة.

أنّه قبل هذا قد ذهب في دورات تمتدّ لأشهر ولكن هذه هي المرّة الأولى التي يحضّر فيها أغراضه سألته: لمَ تأخّرت إلى هذا الحدّ؟! ما هذه الأشياء التي جلبْتها معك؟ ما هذا العمل؟! ستذهب ثمّ تعود، ما الحاجة لأن تجمع كلّ هذه الأغراض من مكان عملك؟! وضع الأغراض على حافّة المطبخ إلى جانب الملصقات وقال: تأكّدي أنّي لن أعود إلى الثكنة، أنا لا أرى منامات كثيراً، ولكن الرؤيا التي أراها دائماً وبشكل تكراري هي أنّي أدافع عن مكان، والتماسيح تحوم حولي وتقطعني إرباً إرباً، ولكنّي أقف هناك حتّى النهاية، أشعر أن تعبير هذه الرؤيا هو الدفاع عن حرم السيّدة زينب عليها السلام.

وقد حكى لي هذا الحلم من قبل، كان وجهه متعباً ولكن عيناه كانتا غارقتين في شوق يدعو للمشاهدة، وكلّما كان الوقت يمضي كان الوصول إلى تلك العينين يبدو مستحيلاً، فقلت: هل هناك من خبر؟ عيناك تنبئان أنك ذاهب قريباً، ماذا عن الذهاب؟ ابتعد بنظراته عنّي ودخل إلى الغرفة ليبدّل ملابسه وقال: يجب أن أغسل ملابسي، يحتمل كثيراً أن نذهب يوم الخميس.

وما إن قال هذا حتّى شعرت بقلبي يهوي، وبعد إلغاء موعد السفر لمدّة يومين استعدت أنفاسي، ولكنّ خبر رحيله جعلني مضطربة، ووضعت البطاطس التي قشرتها داخل المجلى وذهبت إلى الغرفة، كانت لحظات صعبة، فمن جهة كنت أحبّ أن يكون حميد حتى أنظر إليه بمقدار كلّ غياباته، ومن جهة أخرى كنت أحبّ أن لا يكون حتى أبكي في خلوتي ووحدتي بمقدار كلّ غياباته.

وأقنعته بالقوة أن أغسل ملابسه بنفسي، وكلّ عصرة لملابسه كانت تضطرم النار في قلبي أكثر وأكثر، وبعيداً عن أعين حميد بكيت كثيراً، وعندما أنهيت غسل الملابس وضعتها على المدفأة لتجفّ بسرعة،

ثمّ ذهبت لأعدّ الطعام، وضعت البطاطس في المقلاة، ومع كلّ حركة فيها كنت أشعر أنّ جميع روحي ونفسي تتقطع. وكان حميد مثلي في حالة نفسيّة صعبة، لم يكن يقول شيئاً، ولكن نفس هذا السكوت كان دنيا من الكلام، لقد اختار طريقه ولكن هل يمكن للقلب العاشق أن يستقرّ ويهدأ؟! نحن نبتعد عن بعضنا في الحال الذي نعرف فيه أنّ هذا الفراق صعب ومضن، اتّصل بعدّة أفراد وطلب منهم المسامحة، وكان طلب المسامحة هذا والاستعجال في الوصول إلى النهاية هي نصف الخبر التامّ الذي ينبئ عن سفر بلا عودة، ولم أجد أيّ بلسم يدواي القلب العاشق.

وبعد عدّة دقائق دخل حميد إلى المطبخ وجلس على الكرسيّ، ومع أنّي كنت مشغولة بالطبخ إلا أني كنت أشعر بثقل نظراته، اختنقت، حاولت أن لا أبكي، وأظهر نفسي بشكل عاديّ وما إن وقف جانبي والتقت نظراتنا لم أستطع حينها أن أقف في وجه دموعي، ولبكائي سالت الدموع على وجنتي حميد.

أمسك بيدي وقال بصوت متهدّج مليئ بالحزن واللوعة وهو يمسح دموعي: فرزانة لقد زلزلتي قلبي، ولكنّ إيماني لا يمكن أن يتزلزل.

وما إن قال هذه الكلمة تعجّبت، فقلت في نفسي: ماذا تفعلين يا فرزانة؟! أنت التي لم تريدي أن تكوني من النساء الملعونات إذن لماذا تهزّين قلب زوجك؟

ركّزت نظراتي في ناظريه وبهدوء سحبت يدي من يده وقلت: حميد، صعب جداً، أنا بدونك لا أقدر على الحياة، ولكن لا أريد أن أكون مساعدة للشيطان، أستودعك لدى إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف وأدعو لك بحسن العاقبة.

استقرّت ابتسامة على شفتيه، الابتسامة التي كانت بلسماً لجراحي،

ليتني استطعت أن أجعل تلك الابتسامة في إطار وأعلّقها على الجدار حتّى أنظر إليها دوماً، حتّى لا يتزلزل إيماني من صعوبة الأيام، وقد هدّأت هذه الكلمات حميداً واقتربت بوجودي المتلاطم إلى شاطئ السكينة فقال: هل تذكرين عندما دعوتِ لي في أفضل أيام حياتنا من أجل استشهادي؟ فسألته: وكيف؟ كلّ الأيام التي قضيتها معك كانت جميلة، أي يوم تقصد؟ قال: هل تذكرين عندما قلت لك أثناء سفرة العقد أن تدعي لتتحقّق أمنيتي؟ هناك دعوت الله أن أستشهد في أقرب وقت، وأنت طلبت من الله أن يستجاب دعائي مهما كان.

وكراكب سيّارة الزمان امتلأ ذهني بلحظات العقد في ذلك اليوم الذي نسي فيه حميد بطاقته الشخصيّة ووصل متأخراً جدًّا، ولكن الآن يريد أن يرحل بسرعة، هل كان عليّ حينها أن أكون فرحة أم حزينة؟ هل دعوت حينها لغيابه عنّي أو لفراقه ورحيله إلى السماء؟!

وبعد أن تناولنا العشاء قلت له: حبيبي إن كنت متعباً فاذهب واستحمّ. وطوال الوقت الذي كان حميد يستحمّ فيه كنت أفكر في الجملة التي قالها، الجملة التي قلبت كياني رأساً على عقب، لقد تعاملت مع الله، لم أرد أن أزلزل قلباً قد عقد النيّة على الذهاب للدفاع عن الحرم، وأردت أن أكون أكثر صلابة.

وجلس حميد بملابس الاستحمام الزرقاء واضعاً قبعتها على رأسه تحت جدار المطبخ، وطبقاً لما قرّرت في نفسي فقد أحضرت له ورقة وقلت: بما أنه ليس معلوماً متى تذهب، ربّما رحلت غداً، هل تستطيع أن تكتب عدّة سطور وصيّة؟

وتقرّر أن يكتب وصيتين في ورقتين منفصلتين، وصيّة عامة للأصدقاء، زملاء العمل والناس التي يقرأونها فيما بعد، ووصيّة خاصة لي، لأبوينا نحن الاثنين، وإخوته وأخواته والأقارب.

وبدأ بالكتابة، كان قلمه جميلاً، ولأنّه استحمّ منذ قليل كان الماء يتقاطر من وجهه وشعره على الورقة. قلت له: حميد أستحلفك بالله أن تكتب ببساطة، لا تعقّد الجمل، اكتب بطريقة بسيطة، حتى يستطيع الجميع القراءة، رفع رأسه عن الورقة وضحك ثمّ قال بمزاح: على العكس أريد أن أكتب بطريقة صعبة جداً حتى أتحداكِ لأنّك تدعين أنّك مثقفة جدًّا.

كتب الوصيّة بسرعة كبيرة ودون أخطاء، كانت صفحة كاملة، وأعطاني ما كتبه وقال: اقرأي لنرى؟

بدأت أقرأ: «الصلاة والسلام على محمد ﷺ... أنا حميد سياهكالي مرادى بن حشمت الله، رأيت من الواجب أن أكتب بعض الجمل لأبثّ فيها ما يجول في قلبي ضمن بضع سطور. بداية يجب أن أقول إنّ الدفاع عن حرم السيّدة زينب عليها السلام هو واجب عليّ، وأنا أعتقد أنّ سعادتي هي في السير على نهج أهل هذا البيت عليهم السلام وأدعو من الله أن يثبتني على هذا الطريق...»

جرت دموعي، وكلّما تقدّمت في القراءة صار بكائي يتصاعد «...ولكن أنا أكتب ليعلم من يقرأ أو يسمع أنني في غاية الخجل لأنّي لا أمتلك غير روح واحدة أقدّمها في طريق صاحب العصر والزمان ونائبه بالحقّ السيّد الخامنئي (مدّ ظله العالي)...» وعندما رأى دموعي قال: ما هذا أيّتها السيّدة، لا تبكي، يجب أن تقرأي الوصيّة بصلابة واقتدار، والآن قفي، أريد أن تقرأيها بصوت عال، تصوّري أنّك تقفين بين الجموع وتقرأين وصية زوجك الشهيد.

وأجبرني تلك الليلة أن اقرأ الوصيّة بصوت مرتفع لعشر مرّات، وعندما انتهينا طلب دفتر أشعاره، وكان قد كتب شعراً لعاشوراء هذا العام، وكتب ثلاثة أبيات منها في أسفل الورقة ثم كتب التاريخ: التاسع عشر من شهر آبان عام ٩٤[1] وتحت التاريخ كتب جملته المعهودة: وكفى

---

[1] ١٠\١١\٢٠١٨ م - ٢٧ محرم ١٤٣٧ هـ

بالحلم ناصراً.. وكفى الله الصابرين.. وكان دائماً عندما تصعب الأمور أو ينزعج من شيء يقول هذه الجملة فيهدأ. وأثناء كتابة الوصيّة قلت لحميد: حميد قد اصبح أمّا، اكتب عدّة جمل لطفلنا، وإن كنت تحبّ اسماً معيناً فاذكره، وعندما كان يذكر موضوع الأطفال كان حميد يقول دائماً لأني أنا ولد توأماً فسيولد لي توأم، فرزانة كلي تفاحاً، يصبح توأمنا جميلاً وفي الوصيّة كتب اسمين لولدين على نية رسول الله" محمد حسام" و"محمد إحسان"، وكان يحبّ كثيراً إن رزقنا بصبيّ أن يتعلم قراءة العزاء ويحفظ القرآن، وللبنت اختار اسم أسماء، وكان يقول أحب يوم القيامة أن ينادوا ابنتي باسم خادمة السيدة الزهراء عليها السلام، ووضع هذه الأسماء في ورقة منفصلة داخل قرآن على الرف، وكتب خلف الورقة بخط جميل إلهي أعطني ولداً صالحاً، سالماً، جميلاً وذكياً.

وعندما وصلنا إلى السطر الأخير قلت: حبيبي، زوجات الشهداء عادة لهن عتاب، لا يستطيعون أن يشبعوا من رؤية أزواجهم، في آخر الوصية أكتب إن استشهدت فاسمحوا لزوجتي أن تبقى وحدها لنصف ساعة مع الجثمان، وحتى أنا نفسي لم أصدّق أنّ المسألة صارت جديّة بهذا الشكل حتّى أنّي فكّرت بهذه اللحظة، ولا يسع مخيّلتي كيف نطقت بهذه الكلمات، وكأنّ أحداً قد تلبّسني وصار يتكلّم باسمي، كم تقدّمت بالتفكير حتّى أنّي فكّرت فيما بعد شهادته.

استجاب لطلبي، وكتب في آخر الوصية: اسمحوا لزوجتي أن تبقى لدقائق وحدها مع جثماني، وضعت الوصيّة داخل القرآن، وبقلب مضطرب ومشتعل قلت: ستبقى هذه أمانة عندي، عندما تعود إن شاء الله معافى وسالماً تأخذها بنفسك من هذا المكان.

وصباح يوم الأربعاء ذهب إلى العمل، وبقيت طوال اليوم أنا ووصية حميد، كنت أقرأها سطراً سطراً وأبكي، وعندما أصل إلى نهايتها كنت أبدأ من أولها، وكانت الجملات واحدة واحدة بالنسبة لي كمجلس عزاء، وعندما عاد من العمل كان يشبه طائراً سيغادر القفص ويتحرّر وقال: اليوم أعطونا ورقة حيث علينا أن نعيّن مكان الدفن والشخص الذي يخبر بشهادتنا كتبت أنّ الوصية أوكلتها لزوجتي، ومحلّ الدفن بداية قلت وادي السلام في النجف ولكن بعدها تذكّرتك أنت وأمّي فرأيت أنّكما لا تحتملان البعد، فشطبتها وكتبت مزار شهداء قزوين. تنهّدت بعمق، وبصوت مجروح من جرّاء البكاء في هذين اليومين قلت: لقد فعلت حسناً، وإلا كنتُ بعتُ كلّ حياتي حتّى آتي إلى النجف وأبقى قربك. وبطلب منّي أعلن أنّ أبي يخبرني بشهادته إن استشهد، لأنّي كنت أعتقد أنّه إذا أخبرني أحد غير والدي فإنّي سأبقى لسنوات أكرهه وكلّما رأيته أتذكر هذا الخبر المرّ، ولم يكن قلبي يريد أن يبقى أحد إلى الأبد ذكرى لهذا الفراق ولكن أبي يختلف، ومحبّة الأب أكبر من هذه الكلمات. وعندما أراد أن يرتاح بعد الغداء قال لي: أيقظيني أسرع من كلّ يوم لنذهب مجدّداً لوداع عائلتينا. وتمدّد كعادته الدائمة إلى جانب المدفأة ونام، أحببت أن أبقى ساعات فوق رأسه أنظر إليه، لا بتلك الأيّام التي أردت فيها أن أقرّب عقارب الساعة حتّى أرى حميداً أسرع، ولا بتلك اللحظات التي كانت فيها عقارب الساعة تتقدّم إلى الأمام وكأنّها تجري مسابقة، كلّ شيء كان يمضي بسرعة ولكن أنا بقيت على درج الأيام الأولى للتعرّف على حميد.

وعندما خرجنا من البيت ذهبنا أولاً إلى منزل أبي، ومن اللحظة الأولى التي دخلنا فيها بدأت أمّي بالبكاء، تماسكت، وكان صعباً جدًّا ان أظهر نفسي هادئة، لأنّه في اليوم الذي طلبت فيه من أبي أن يكتب اسم

حميد في اللائحة وعدتهم أن لا أضطرب.

وعند الوداع وداخل الفناء احتضن أبي حميداً وبكى، كنت أسمع أبي يتمتم ويقول: أعلم أنّه إن ذهب سيستشهد، حميد لن يعود مجدّداً، كان يقول هذا ويبكي، وعندما رأيت حالة أبي الغريبة تلاشت قدرتي، وضعت رأسي على كتفيّ حميد وبدأت أبكي دون أن أصدر صوتاً، كان الطقس بارداً، وأبرد منه لسعة برد ذهاب حميد التي استقرت في داخلي. ومن هناك ذهبنا إلى منزل والد حميد، واستمرّ البكاء طوال الطريق إلى منزل عمّتي، كنت ألصق وجهي بظهر حميد وأبكي قال حميد: حبيبتي لا تبكي، سيتبلّل وجهك وتتجمّدين من البرد وأنت على الدراجة. وعندما وصلنا غسلت وجهي داخل فناء الدار حتّى لا ينتبه أحد لبكائي.

وصعد حميد خلافاً لعادته بهدوء على الأدراج، كان إخوته وأخواته قد تجمّعوا، وحسن فقط كان غائباً وما إن رأتني عمّتي حتى قالت: آه هل جئتم؟! لقد شعرت بالقلق يا حميد، اعتقدَتْ أنّ سفر حميد قد ألغي لذا كانت مسرورة، وبإشارة منه طلب منّي أن أخبرها قصّة ذهابي، نزعت الشادور عنّي ودخلت إلى المطبخ، كانت عمّتي مشغولة بإعداد الطعام وعندما رأتني قالت: لقد أعددت مرق اللحم ولكن لأن حميداً لا يحبّه كثيراً فأنا أعدّ له كرات البطاطس. جلسنا في مقابل بعضنا، وصرت أنظّف الخضار فانتبهت عمّتي إلى احمرار عيوني فسألتني باضطراب: ما الذي حصل يا عزيزتي فرزانة، لماذا عيناك حمراوتان؟!

لم يكن الإخبار عن الذهاب الأكيد لحميد إلى سوريا شيئاً بسيطاً، والابن مهما كبر يبقى في عين أمّه ذلك الطفل الصغير الذي تبقى مستيقظة طوال الليل عند ارتفاع حرارته، وتمشي معه خطوة خطوة حتّى يتعلّم المشي، والأمّهات في الأوقات الطبيعيّة يقلقون على

أطفالهم فكيف إذا أرادت الأمّ أن ترسل بابنها إلى قلب العدو، وأيضاً في كيلومترات أبعد من الوطن، وإذا كان الانفصال عن قلب حميد صعباً عليّ فإنّه على أمّه أصعب بآلاف المرّات. وكنت أقلّب الكلمات التي أريد أن أقولها وبعد مقدّمة قلت: في الواقع حميد يريد أن يذهب غداً وجئنا من أجل الوداع.

وبسماع هذا الخبر بدأت عمّتي بالبكاء، كان بكاؤها يحرق القلب، ومهما حاولتُ تهدئتها لم أفلح، وصار بكاؤنا متناوباً، كانت عمّتي تبكي فأهدئها ثم أبكي أنا فكانت تقول لي: اهدأي يا ابنتي.

وكان حميد يدخل كلّ بضعة دقائق إلى المطبخ ويقول: لا تبكيا، وقالت عمّتي لحميد وهي تبكي: كيف يسمح لك قلبك أن تتركنا وترحل، أنت لا زلت مستأجراً، وبدأت حياتك حديثاً، انظر إلى زوجتك كم هي مضطربة، أنت الذي تحبّها كثيراً كيف ستتركها وحيدة؟ جلس حميد قربنا وكالعادة قبّل جبين أمّه وقال: أمّي الحنونة، أنت مدرِّسة قرآن، وتقيمين مجالس العزاء، لا سمح الله أن أترك أنا ابنك كلّ ما علمتني إيّاه، ألم نبكِ في المجالس لسبي السيّدة زينب عليها السلام، أتقبلين أن يُتجرَّأ مرّة أخرى على السيّدة زينب عليها السلام وعلى السيّدة رقيّة، وبعد سماع عمّتي لهذه الكلمات صارت كالنار التي ألقي عليها ماء فهدأت، مع أنّي كنت أعلم جيّداً أنّ قلبها يشتعل لكنّها لم تقل شيئاً.

وما إن ارتفع صوت الأذان حتى نهض حميد ودخل إلى المطبخ ليتوضّأ، لا أعلم لماذا كان هناك إحساس غريب في وجودي يدفعني أن أحفظ جميع حركاته بالتفصيل، أحببت أن يكون لديّ ساعات فأحفظ تصرّفاته وكلامه، حتّى شكل وجهه وتقاسيمه، عينيه البريئتين الطاهرتين، شعره المتروك على سجيّته دون ترتيب ذقنه المرتّبة والمسرّحة، وبقي كلّ شيء في تلك الساعات في ذهني، صلاته، ضحكاته، حتّى عندما جلست

بعد الصلاة على سجّادتي ومسح بمحبّة فوق رأسي وقال: تقبّل الله. ثم يبدأ بقراءة الأذكار وقليلاً ما كان يحمل سبحة بيده بل كان يعدّ الذكر على أصابعه. وعندما كان يقرأه كان يضغط على إصبعه وكان دائماً مثار عجب بالنسبة لي، فاغتنمت الفرصة وسألته: لماذا أثناء قراءة الذكر تضغط على إصبعك فقال: وضع أصابعه في مقابل وجهه وقال: لأني أريد أن تتذكّر هذه الأصابع يوم القيامة، أن تكون شاهدة أنّي في هذه الدنيا قد قلت ذكراً كثيراً. قلت بمزاح: كفى يا حميد، لقد سبّحت الله كثيراً فدعه وشأنه، لقد تعبت الملائكة من كتابة الحسنات لكثرة ما قلت من ذكر. أجابني: لكلّ إنسان يوم القيامة صندوق، كلّ ذكر يقوله تجعل له حوريّة في داخل الصندوق وتستغفر له تلك وتسبّح.

دخلتني الغيرة من هذا الكلام، فشددت ملابسه وقلت له: ولماذا تريد كلّ تلك الحوريّات؟ حميد، إن ذهبت أنا إلى ذلك العالم ورأيتك ذهبت إلى الحوريّات فسأسلخ جلدك عن بدنك. وهنا برزت شقاوة حميد فقال: نحن الرجال حتّى لو ذهبنا إلى الجنّة فلن نتخلّص من شرّكنّ أيتها النساء، هناك ليس لنا راحة أيضاً. وما إن قال هذا حتّى قطّبت حاجبيّ وبغضب حوّلت رأسي عنه. وما إن رأى حميد حالتي حتى ارتفع صوته بالضحك وقال: لقد مزحت معك، تعلمين أنّ الخصام بين الزوج والزوجة لا يجب أن يطول لأنّ الله لا يرضى، أعدك أن أختارك هناك أنت فقط، وإن لم تكوني معي فلن أرتاح حتّى في الجنّة وستصبح الجنّة جهنم.

وعندما افترشنا المائدة لم يستطع حميد أن يأكل كثيراً من شدّة حماسه، وكان في الساعات الأخيرة ومن فرحه بالذهاب في حالة حماس خاص، وعلى عكس فرحه وشوقه كان اضطرابي، كنت أدعو وأدعو أن يرنّ الهاتف ويقولوا لقد ألغي السفر ولكن ليس من خبر. ولأن حالة عمّتي النفسيّة ووالد حميد لم تكن على ما يرام فقد غادرنا

بسرعة، وعند الوداع أعطتني عمّتي جوزاً وزبيباً لأضعه في حقيبة حميد
واحتضن حميد أباه وأمّه اللذين رافقاه حتّى الباب وسكبوا خلفنا
الماء، وهو العمل الذي كنت أقوم به لسنوات صباح كلّ يوم حتّى يعود
حميد سالماً.

وأثناء تحضير حقيبته

حميد سالماً.

وأثناء تحضير حقيبته وقع بيننا الكثير من الجدال، أردت أن أضع أغراضه في حقيبة، رتّبت كلّ الملابس والأدوات الشخصيّة، وما إن وضعتها داخل الحقيبة جاء حميد وأخرجها واحدة واحدة وأخفاها أو وضعها تحت المقاعد، كنت قد اشتريت له البسكويت، ولم يكن يحبّ ذلك النوع منه، كان يقول بمزاح وجدّ: ما الخبر؟ لمَ كلّ هذه الملابس والأدوات والطعام، أقسم أنّ رفاقي سيأتون غداً بكيس من النايلون يحملون فيه لباساً واحداً، في الوقت الذي أذهب أنا فيه بحقيبة سفر ونظّارات شمسيّة فأذهب ويضحكون منّي، أنا لن أذهب بحقيبة سفر، ضعي أغراضي في شنطة صغيرة، كان عنده محفظة صغيرة، وكانت لنادي الكاراتيه، فقلت: محفظة بهذا الحجم كيف سأضع فيها كلّ هذه الأغراض؟ وأخيراً جعلني أستجيب له وأنسى الحقيبة، ومع أنّ المحفظة كانت صغيرة إلا أني وضعت جميع الأغراض فيها ما عدا ذلك البسكويت، وبين جميع الأغراض التي وضعتها أعجبه قرآن الجيب كثيراً، قرآن صغير كان مع معاني فقال: هذا القرآن يساوي جميع الأشياء التي وضعتِها.

وكتبت رقم هاتفي ورقم أبي وأمي في ورقة ووضعتها بين الأغراض حتّى إذا احتاجها هو أو أحد رفاقه يتّصل بنا. واشتريت له فرشاة أسنان حمراء جديدة، وأراد أن يرمي القديمة الخضراء في سطل القمامة فأخذتها من

يده وقلت: دعها لتبقي ذكرى، نظر إليّ وابتسم، وكأن هناك أشياء قد انقدحت في قلبي وقلب حميد.

وبعد أن أغلقت المحفظة أعددت له الحنّاء وقلت: حميد أنا لا أعلم متى تذهب ومتى ستبدأ بالقتال، أريد أن تكون كالمقاتلين الذين يختضبون بالحنّاء ليلة الحرب، وهذه الليلة سأخضّب شعرك بالحناء.

سألني متعجباً: ولمَ الحنّاء؟!

فقلت: إن شاء الله إن عدت سالماً فلا شيء، ولكن إن كان نصيبك أن تستشهد، فسأخضب شعرك بالحناء هذه الليلة بنفسي، حتى يصبح يوم استشهادك هو يوم عرسك، يوم السعادة والعاقبة الحسنة لك وهو أفضل يوم لكلينا.

وجلس على الأريكة قرب المدفأة إلى شمال الخزانة في غرفة الاستقبال، وضعت على جسمه غطاء أبيض، ووضعت جريدة تحت قدميه، عقدت النية، ووضعت الحنّاء على شعره وذقنه وقدميه، وفي الوقت الذي كانت فيه الحناء على شعره شغّلت الهاتف وقلت: تكلّم يا حميد معي، ومع أمّك وأمّي، وأبيك وأبي.

فقال: لا نستطيع أن نعوّض متاعب الأب والأم، وكان يفتّش عمّا يقوله فقلت له: حميد ليس معك أكثر من دقيقة، أسرع! فتابع قائلاً: أبوك وأمّك هم أصحاب فضل عليّ، وأكبر فضلهم أنهم قدّموا لي ابنتهم، وأنت عزيزة على قلبي، وأنا أدّخرك أمانة عند أبيك وأمك حتّى أرجع إن شاء الله. وكان يقول في أيّامه الأخيرة دائماً: أنا أشعر بالخجل من خالي، لأنّك في كل مهمّة أذهب إليها يجب أن تذهبي إليهم، والآن يقولون: لقد تزوّجت ولكنها تبقى دائماً في منزل أبيها.

وبعد تسجيل لحظات الحنّاء، وضعت حجاباً على رأسي حتى نلتقط بعض الصور لأنفسنا عبر آلة التصوير في الهاتف فقال لي: فرزانة، إن

لم أعد فاكتبي مذكّراتنا. وكأنّ أمراً ما قد خطر في قلبي وقلب حميد فقلت: لا أدري، ربما أقوم بهذا العمل، ولكن في الحقيقة لا صبر لي على الكتابة.

وعندما رأى ذلك، حوّل نظره نحو الرّف حيث أشرطة التسجيل وقال: سجّليها على هذه الأشرطة. وكان حميد قد ربح هذه الأشرطة الخالية أثناء المرحلة الثانويّة في مسابقة الشعر.

وبطريقة لا إراديّة جرت على لساني في تلك الأيام مرثيّات الحاج "محمد كريمي" حيث صرت أتمتم بها بصوت منخفض، وخصوصاً ذاك الرثاء الذي يمثّل وداع السيّدة زينب للإمام الحسين عليه السلام:

"كجا می خوای بری؟

چرا منو نمی بری؟

این دم آخری...

چقدر شبیه مادری؟!."

إلى أين أنت ذاهب؟! هلاّ أخذتني معك؟

في اللحظة الأخيرة، كم تشبه أمّي!

وقرأت هذا الرثاء لحميد مع بعض التعديلات:

"حمید کجا می خوای بری؟!

حمید نمیشه که نری؟

حمید منم باخودت ببر!

حمید چقدر شبیه مادری!"[٧]

حميد إلى أين تريد أن تذهب؟!

حميد ألا يمكن أن لا تذهب؟!

---

٧ حميد أين تريد أن تذهب، حميد هل من الممكن أن لا تذهب؟، حميد خذني معك أيضاً، كم تشبه أمك!

حميد خذني معك!

كم تشبه أمي!

وعند الساعة الحادية عشر ذهب مع رفيقه لأخذ لقاح ضد الأنفلونزا، وعندما عاد اتفقنا على كلّ شيء، فكان عليّ أن أدفع ستة عشر ألف تومان من القسط الجامعي الشهري، حيث كانت قد بقيت له ثلاثة فصول للحصول على الإجازة، وكان قد اختار موادّ هذه الفصول الثلاثة سابقاً ولكنّه لم يستطع إكمالها بسبب المهمّات العسكريّة، وكان بعض رفاقه قد قالوا: لأنّك كنت في مهمّة ولم تستطع أن تقرأ فنحن سنوصلك بطريقة ما ولكنّه لم يقبل، فقد كان لديه اعتقاد أنّ شهادته الجامعيّة هذه يمكن أنّ تؤثّر على راتبه الذي يتقاضاه فيجب أن ينجح فيها بجهده حتى لا يكون في راتبه شبهة، وتقرّر أن أدفع القسط حتّى يستطيع تقديم الامتحان وينهي دراسته عندما يعود. وكان قد بقي ثمانون ألف تومان من مال الحرس معه فأوصاني مؤكّداً أن أوصلها إلى أبي حتى يعيدها. وسألته حول بيت المؤسّسة: إن سلّمونا البيت قبل أن تعود فماذا نفعل؟ فقال: أستبعد أن يسلّموه حتّى ذلك الوقت، وإذا ما سلّموه فانقلي الأغراض فقط، وعندما أعود أنا أعيد صبغه ثم نفرشه معاً. ومن فرحتي بالمنزل قبل عدّة أسابيع اشتريت الكثير من الليف ومواذ التنظيف استعداداً للانتقال، غافلة عن أنّ هذا البيت هو آخر بيت مشترك بيني وبين حميد على وجه الأرض.

وعند الساعة الثانية عشر خلد إلى النوم، ولأنّه كان عليه أن يصل إلى الثكنة في الساعة الخامسة، جعلت ساعة المنبّه توقظنا الساعة الرابعة وعشرين دقيقة، نام حميد بسهولة ولكن أنا لم أستطع النوم، وبضوء القمر الخفيف الذي كان يبدو من النافذة صرت أنظر إلى وجهه وأبكي في سكوت مطبق، تبلّلت الوسادة، لم أبق في مكان، كنت أمشي من

أول الغرفة إلى آخرها وأنا أردّد الأذكار، وكنت أجلس مرّة أخرى قرب حميد. كنت أبحث عن مجموعة من الفرضيّات لعدم ذهابه، وكان المنطق والشعور قد ذابا بشكل كامل بينهما، قلت في نفسي ربما حين يستيقظ سيشتكي من ألم في بطنه أو تلتوي قدمه، ولكن في قلبي لم أكن أرضى أن تنقص شعرة من رأس حميد أو أن يتحمّل أيّ ألم، وصرت ألقّن نفسي إن شاء الله يعود هذه المرّة سالماً كما في باقي المهمّات العسكريّة. وقبل الأذان بساعة أيقظته، وكعادة كلّ أيام حياتنا المشتركة حضّرت له طعام الفطور، البيض المقلي مع صلصة البندورة، الطعام الذي كان يحبّه كثيراً مع خليط العسل والقرفة ومسحوق "السنجد"[٨] وقلت: حميد تعال وتناول الفطور حتى لا تتأخّر، لم أستطع أن أستقرّ في مكان كنت أخاف أن تقع عيوني في عيونه وأهزّ قلبه مرّة أخرى ببكائي. وعندما جلس إلى السفرة قال: ألن تتناولي معي الفطور الأخير؟ انقبض قلبي، كانت أذني التي سمعت لكنّ عقلي كان ينكر، كان المطبخ يدور حول رأسي فقلت باختناق: لماذا تقول هذا؟ وهل هي المرّة الأولى التي تذهب فيها في مهمّة عسكريّة فقال: ليتني كنت قد سجّلت صوتك وأخذته معي حتّى يخفّف ألم فراقك عني. قلت: لقد اتّفقنا أن تتصل كلّما سنحت لك الفرصة سأبقى كلّ يوم أنتظر اتصالك. جلست قربه، كان يحمل اللقيمات ويقدّمها لي، كان هناك بريق خاص في عينيه فقلت: حميد، عندما تصل إلى حرم السيّدة زينب عليها السلام فادع لي كثيراً فقال: حاضر يا حبيبتي، عندما أصل سأقول لها: إنّ زوجتي ساعدتني كثيراً، صمدت في حياتها كي أثبت على إسلامي واعتقاداتي، سأخبرها بأنّك عندما تكون عيناك مبلّلتين بالدموع وأسألك لماذا تبكين؟ لا

٨ بلح الصحراء

تقولين شيئاً، وأنّك كنت تبكين بعيداً عنّي حتى لا توهني إرادتي.
اتصل به زميله وأخبره أنّه ينتظر في أول الزقاق، جهّز نفسه بسرعة، ارتدى قميصاً أبيض مخططاً بالأزرق مع معطف أسود وبنطال رماديّ، وأحببت أكثر من أيّ وقت آخر أن يُمضيَ وقتاً طويلاً في تحضير نفسه حتى أنظر إليه أكثر، ولكنّ شوق حميد للرحيل كان أكثر من شوقه إلى البقاء.
ورغم روحي التي كانت تزهق، أخذت القرآن إلى الباب الخارجيّ لأودعه[٩]، وفي اللحظة الأخيرة قلت لحميد: ليتك تأخذ معك هاتفاً، حميد أتوسّل إليك بالسيدة زينب عليها السلام لا تتركني دون خبر، ومن أيّ مكان استطعت اتصل بي!
فقال: كلّما استطعت سأتّصل بك، ولكن هناك شيء، إذا اتصلت من سوريا فكيف سأعبّر لك عن مشاعري؟! هناك سيكون الباقون قربي، وإن سمعوا صوتي سأذوب خجلاً. تذكّرت مذكّرات الشهداء التي قرأتها، كان بعضهم يجعلون رمزاً بينهم وبين زوجاتهم لأوقات كهذه فقلت لحميد: بدلاً من كلمة أنا... قل على الهاتف: تذكّري! وأنا أفهم ما تقصد.
أعجبه اقتراحي، وعندما كان ينزل على الأدراج كان يلوّح بيده مودّعاً ويقول بصوت مرتفع جداً: تذكّري، تذكّري! ابتسمت وقلت له: متذكّرة، متذكّرة! ولم يسمح لي أن أذهب إلى الباب الخارجي، ذهبت إلى نافذة مطلع الدرج للطابق الأول، سكبت الماء خلفه، وقبل أن يصل إلى آخر الزقاق عاد لمرّتين أو ثلاث وودّعني، ومنذ الطفولة لم يكن عندي ذكرى حسنة عن الوداع داخل الزقاق، فعندما كان أبي يتركنا باكين مع أمّي من أجل أن يذهب في مهمّاته العسكريّة في كردستان، كنت أنا وعليّ نركض باكيين خلف سيّارة الحرس، كان الافتراق عن أبي في كلّ مرّة يزداد صعوبة، والآن من جديد وداع، ومن جديد زقاق، وهذه

[٩] من العادات أن يودّع المسافر بالمرور من تحت

المرّة حميد. وأشار لي بيده أن أعود إلى الداخل ولكنّ قلبي لم يسمح لي، كان في رأسي صوت يصرخ: حميد تمهّل، لماذا تذهب بكلّ هذه السرعة؟ ولكن هذا كان مجرّد صراخ في ذهني، الشيء الذي كان يراه حميد هي نظراتي التي كانت تتعقّب خطواته واحدة واحدة داخل الزقاق، كانت قدماه تخطان الأرض بصلابة وإرادة، تلك القدمان التي لم يقسم لي أن أرى مشيهما بعد ذلك الحين أبداً.

سحبت نفسي على الأدراج وعندما صرت داخل المنزل كان كلّ شيء ينادي حميد حميد، وكأنّ أبواب المنزل وجدارنه قد صارت أكثر ضيقاً لفراقه، البيت الذي كان رغم ضيقه عالماً رحباً من المحبّة والحنان، ولكنّه الآن يشبه القفص الذي لا يمكنني تحمّله وحدي، كان التنفس يشق عليّ فيه، البيت الذي كان هانئاً صار بعد حميد ضيقاً ومظلماً. وعندما رفع الأذان بكيت كثيراً على سجادة الصلاة، وبعد الصلاة فتحت القرآن حتّى أهدأ بقراءة آياته، عقدت النيّة واستخرت، وجاءت الآية المعروفة: ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. وبقراءة هذه الآيات هدأت بعض الشيء، وطلبت من الله بكلّ وجودي أن يبيّض وجهي في أصعب امتحان في حياتي.

وبعد أن جمعت سجّادة الصلاة، وقع نظري على سجدات الصلاة التي كان حميد قد وضعها على الجدار الفاصل بين المطبخ والغرفة، لم ألمسها وقلت في نفسي: عندما يعود حميد بنفسه يأخذها، وكلّ شيء كان قد لمسه، أو علّقه أو وضعه في مكان ما جعلته يبقى كما هو ولم ألمسه.

الفصل العاشر

تربّع تراب الموت على ربيعي الأخضر

وفي الصباح اتّصل بي أبي وطلب منّي أن أجمع أغراضي، واتّفقنا أن يأتي ليأخذني عند الظهر، نظّفت المنزل، غسلت الصحون، كنست الغرف، ووضعت أغطية بيضاء على الأرائك، وعندما كنت أجمع ثيابي وكتبي التي سأحتاجها لشهرين رأيت بالصدفة دفتر كتابات حميد، كان قد كتب شعراً في حذائه العسكريّ بهذا المضمون وهو أنّ هذا الحذاء لم يساعده حتى يصل إلى آخر الطريق، وفي ذلك اليوم لم يخطر في بالي أنّه بعد عدّة أيّام ما الذي سيحلّ بهذا الحذاء وبأقدام حميد؟!

وعند الساعة الواحدة ارتفع رنين جرس الباب، ولم يصعد أبي إلى الأعلى، لم يكن يتحمّل أن يرى البيت خالياً من حميد، وضعت كتبي وأغراضي داخل صرّة، وعندما أردت أن أغلق الباب جلت بعيوني في أرجاء المنزل، ونظرت إلى البيت للمرّة الأخيرة، وكانت باقة الورد التي جلبها لي حميد بمناسبة عيد ميلادي لا تزال على الرفّ، سجدات الصلاة على الحائط، القرآن الذي قرأ فيه البارحة، ووضعه جانب الطاولة، وكان هذا البيت زاوية زاوية باعثاً لذكرياتي مع حميد، وأغلقت الباب على كلّ تلك الذكريات على أمل أن يعود حميد من سوريا سريعاً، ونفتح هذا الباب من أجل بناء ذكريات جديدة.

أخذت أغراضي ونزلت، وكانت السيّدة كشاورز تدعو لحميد وهي تبكي وقالت: فرزانة، انتبهي لنفسك، إن شاء الله يعود ولدي صحيحاً معافى، سأشتاق إليك، عودي بسرعة.

ودّعتُ السيّدة كشاورز، وكان أبي قد وضع رأسه على المقوَد، وضعت أغراضي على المقعد الخلفي وركبت السيارة، فلمّا رفع رأسه جرت دموعه، وطوال الطريق كان كلّ منّا يبكي.

لم أكن على ما يرام، ولم يكن حميد قد أخذ معه هاتفاً، ولم أكن أستطيع معرفة أيّ خبر عنه، وكان عليّ وفاطمة يحومان حولي كفراشتين، يواسيانني حتى لا أبكي كثيراً، وصار عدم علمي بأيّ خبر بلاء لي، وعند الساعة التاسعة ليلاً قلت لأبي: اتّصل واسأل ماذا حصل معهم؟ هل ألغي ذهابهم من جديد؟ اتّصل أبي وبعد البحث والتدقيق عرفنا أن حميداً وأصدقاءه قد وصلوا إلى سوريا عند الساعة السادسة مساءً.

مرّ ذلك اليوم ولم أعرف أيّ خبر عن حميد، تجمّدت عيناي على صفحة الهاتف، كنت قد طمأنت قلبي أنّه ربما عندما يصل إلى سوريا سيتّصل بي، ولكن ليس هناك من خبر، طار النوم من عيوني، وأغلقت الدموع

أنفاسي، وكأنّ الليالي تزيد لوعة الفراق، وكنت أعلم أنّي إن حلمت بحميد فإني سأشتاق له أكثر.

وبوم الجمعة أعدّت عمّتي الـ "آش"[1] وأرسلت لنا مقداراً منه، ولكي أشكرها اتّصلت بها، فردّ والد حميد على الهاتف وبعد السلام والسؤال عن الأحوال سأل عن حميد فقلت: لقد وصلوا إلى سوريا البارحة عند الساعة السادسة ولكنّه لم يتّصل بعد فقال: بإذن الله لن يحدث مكروه، لقد وعدني حميد أن يعود سالماً، وأنت أيضاً لا تقلقي، تعالي إلينا، والدة حميد مضطربة بعض الشيء. ثمّ أعطى الهاتف لعمّتي ومن السلام الأول كان يمكن أن أشعر باشتياقها من صوتها، وبعد قليل من الكلام اعتذرت لعدم تمكّني من الإتيان لمساعدتها في طبخ الـ "آش" لأنّ حالي لم تكن جيّدة، وكانت عمّتي تفهم حالتي، لأنّ والد زوجي من مجاهدي الحرب المفروضة على إيران، وكانت عمّتي في وقت من الأوقات في مثل ظروفي، لذلك كانت تعلم أنّ ابتعاد الزوج عن زوجته كم يمكنه أن يكون صعباً.

وعند الساعة الحادية عشر ظهراً، كنت أكنس الأدراج فرّن جرس الهاتف، فصرت أتجاوز كلّ درجتين معاً واقتربت بسرعة من الهاتف، وكنت أعرف مفتاح سوريا لأنّ رفاق حميد كانوا قد اتصلوا من قبل، وما إن رأيت الرقم حتّى عرفت أنّه حميد، أخذت الهاتف ولسماع صوت حميد ارتاح بالي لوصوله بخير، وبعد السؤال عن أحواله قلت: لماذا تركتني البارحة دون خبر؟ ليتك أخذت هاتفاً من أحدهم واتصلت! لقد قلقت عليك. فقال: أنا خجل منك، لم أستطع أن آخذ هاتفاً من أحد فسألته: هل ذهبت إلى الحرم؟ عندما تذهب فادع لي، وكن نائباً في

---

١ طعام إيراني يطبخ من الحبوب والخضار.

الزيارة عن الجميع. فقال: لم نذهب بعد إلى الحرم، وإذا ذهبنا سأذكرك بالتأكيد، كلّ شيء هنا جيّد، لا تقلقي. كان من غير الممكن أن نتكلّم كثيراً، ومن الواضح أن البقيّة كانوا يقفون في صفّ لكي يأتي دورهم في الاتصال، وكان الصوت يصل متأخّراً، وكان آخر كلامي أن لا تتركنا دون خبر، وكلّما سنحت لك الفرصة فاتّصل.

وفي ذلك اليوم وعند الساعة السابعة ليلاً اتصل من جديد ضحك أخي عليّ قائلاً: حميد يحبّ فرزانة كثيراً، أعتقد أنه عندما أنهى الاتصال ذهب إلى آخر الصفّ ليتّصل من جديد.

ومع نظرات حادّة أفهمته أنه اتّصل مرة ثانية نزولاً عند رغبتي. لقد تكلّمنا هذه المرّة بتفصيل أكبر، وعندما سمعت صوته أحببت أن نتحدّث لساعات، وكانت أكثر أسئلتي إما يتركها دون جواب، أو يتجاوز عنها بجواب عام. وشعرت جيّداً أنّه لا يمكنه أن يخبرني التفاصيل، كنت عطشى للسماع ولكنّ الظروف لم تكن بنحو يستطيع معه حميد أن يخبرني كلّ شيء على الهاتف.

وعندما كانت تطول المسافة بين اتصالاته كنت كبخور يشتعل ويطاف به في أرجاء البيت، ويوم الأحد جلست دون صبر أنتظر اتصال حميد، ولم أكن أترك الهاتف من يدي، وعندما رأت أمّي حالي ضحكت وقالت: تذكّرت الأيام التي كان يذهب فيها أبوك في مهمّات عسكريّة، لقد كنت على مثل حالك.

ابتسمت وقلت: وأنا وعليّ كنّا شقيّين، وأنت وحيدة، لا بدّ أنّك تأذّيت كثيراً. وكأنّ ذاك كان البارحة فتنهّدت وقالت: أجل، كنت شقيّة جداً، عندما كنت صغيرة كنت تصعدين على الجدار، والفناء الذي كنا نستأجره كان له أدراج، كنت تصعدين من الأدراج على الجدار، كنت أبكي بشدّة وأضرب نفسي، وأقول: بالله عليك يا فرزانة انزلي، إن وقعت

ماذا سأقول لأبيك؟! عندما كانت تجرح يداك وأقدامك كنت أضمدها لك، وعندما كان يعود أبوك كنت أضعك تحت الغطاء حتّى لا يرى الجروح على قدميك، لأنّه كان حسّاساً بالنسبة لك. وكنّا مندمجين بالحديث فاتّصل حميد، وبعد أن سلّم عليّ أخبرني أنّه ذهب اليوم إلى زيارة حرمي السيّدة زينب عليها السلام والسيّدة رقيّة عليها السلام وقد أكد عليّ عدّة مرّات أن أدعو لنأتي في المرّة القادمة معاً، ولم ينسَ رمزنا، وكلّما كان يتّصل كان يقول لي دائماً: تذكّري! وكنت أقول له: أنا أيضاً... أنا أيضاً متذكّرة، وعندما كان يقول أنا... كنت أعرف أنّه ليس هناك أحد بقربه، فكان يتكلّم دون رموز.

ويوم الثلاثاء ولكي أتفقّد أحوال عمّتي ووالد حميد ذهبت من الجامعة إلى بيتهم، وعندما وصلت ردّ عليّ والد حميد السلام بانكسار وغربة، فأحسست كأنّ ابتعاد حميد قد أضاف سنوات أخرى على عمره، وكان الهمّ ينساب من عينيه وما يقولون من أنّ "الأمّ كقلم الرصاص والأب كقلم الحبر" كان يظهر على وجه والد حميد بوضوح. فنفاد قلم الرصاص يبدو جليًّا للعيون ولكنّ قلم الحبر ينتهي فجأة، الجميع يرى دموع الأم وحرقتها ولكنّ انكسار الأب وغربته لا يراهما أحد.

ولم تمض ساعة حتى علا رنين الهاتف، وما إن نظرت إلى الشاشة حتى رأيت أنّ حميداً هو المتّصل، ومن شدّة لهفتي قلت لعدّة مرّات حميد اتّصل حميد اتّصل، وعادة كان يتّصل بهاتفي وببيت أبي وبيت أبيه، وكان يحاول أن لا يتركهم لا يعلمون عنه شيئاً، وهناك كانت هي المرّة الأولى التي أبكي فيها على الهاتف، ولم أستطع أن أتكلّم، فأعطيت الهاتف لوالد حميد حتّى يتحدّثا. وأثناء الكلام طلب منه أن يعطيني الهاتف ليرى لمَ بكيت، وعندما حملت الهاتف قال: لمَ بكيتِ هل حصل شيء؟ إن تبكي فأنا لن أستطيع أن أركّز هنا. فقلت: لقد اشتقت

إليك، لقد اشتقت لبيتنا، ولكن لا أجرؤ أن أذهب إليه دونك، حميد عد بسرعة، وكان قد ذهب فقط منذ خمسة أيام، ولكن تحمّل هذا البعد كان صعباً بالنسبة لي، وبكيت كثيراً في فناء الدار، وعندما رأت عمّتي حالتي بكت معي، وبعد العودة قرّرت أن لا أذهب لعدّة أيام إلى منزل عمّتي لأنّي عندما أذهب نصبح نحن الاثنتين بحالة يرثى لها.

وفي ذلك اليوم اتّصل من جديد، وكنت أعلم أنّه في المرّة السابقة التي اتّصل وبكيت ساءت حاله، وعندما كان يسمع صوت بكائي كانت تسوء أحواله، فعاهدت نفسي منذ تلك اللحظة أنّه إذا اتّصل سأظهر نفسي بشكل طبيعيّ، أضحك على الهاتف أو أمزح، وليلاً كنت مشغولة مع أمّي بتنظيف الصحون فاتّصلت زوجة بهرام صديق حميد، وسألت عن أخباري وقالت لي: عزيزتي هل أنت بخير؟ لا تقلقي، حميد في قسم الاتصالات، إن شاء الله لن يحدث له مكروه، سيعود معافى وسالماً.

ويوم الأربعاء اتّصل عند منتصف الظهر، وكانت تصرّفاتنا تشبه حديثَي عهد بعقد القران، وكنّا نغرق في الكلام فلا نشعر بمرور الوقت، وأكثر أوقات كلامنا كانت لا تصل إلى ربع ساعة، وكانت هذه الدقائق لها حكم التنفس بالنسبة لنا، كنت أحبّ فقط أن يتكلّم حميد وأنا أسمع، كان دائماً يقول: كلّ شيء جيد، في الوقت الذي كنت أعلم فيه أنّ الأمر ليس كما يقول.

وذكّرني مؤكداً أن أتابع موضوع الثمانين ألف تومان التي كان قد وكّلني بها، وكنت قد نسيتها كليًّا، وعندما قلت لحميد قال: انظروا لمن أوكلنا وصايانا وتوصياتنا، لمَ كلّ هذا الشرود؟! بالتأكيد ادفعي مال الحرس. فقلت أنا أيضاً: حاضر ولكن اصبر قليلاً. وبما أنّك اتّصلت الآن عند الظهر فهل تناولت الغداء؟ فقال: لا لم آكل بعد، لقد ذهب الباقون لتناول الطعام وجئت أنا لأتّصل بك، رفيقي يقول ما بك يا رجل؟! دائماً

تتصل بالمنزل، البعض ممن يتصلون يتكلّمون لدقيقتين، ولكن أنت تجلس نصف ساعة على الهاتف.

ومن الأسبوع الثاني صرت أرى حميداً كلّ يوم في عالم الرؤيا، وكانت أغلب الرؤى تكرارية، رأيت أنّ سيارة أبي وقفت أمام منزل جدّتي، وترجّل أبي من السيارة، وأخذ بيدي وقال: فرزانة لقد عاد حميد، ويريد أن تكون عودته مفاجأة. وتعجّبت أنا في الحلم لأنه لم يمض على ذهابه أكثر من عشرة أيام. وفي الليلة الثانية رأيت أنه قد عاد وكان يقول لي بفرح: لنذهب إلى عيد ميلاد نرجس ابنة سعيد، وكنت في الحلم أقول له معترضة: لماذا لم تخبرني من قبل لأحضر هديّة؟!

وعندما اتّصل حميد حكيت له أحلامي فقال: لا ليس هناك من أخبار، الآن الآن لا تنتظريني، إلاّ أن تبدأ العمليّات القتاليّة فأستشهد، عندها سأعود بسرعة فقلت: حسناً، لقد رأيت في المنام أنّك عدت ونعيش حياتنا. عاد إلى المزاح وقال: أنت لا تعرفين حلماً آخر، وكأنك ترغبين أن استشهد وتتلذّذي بحلوى عزائي[٢]. فقلت: ماذا أفعل؟ أنت تأتي في عالم الرؤيا بسيناريو مكرّر، أنشئ برنامجاً آخر، وتعال اليوم بشكل مختلف.

كنت أقول هذا وكان هو يضحك، وكان كلّ سعيي أن أقدّم له دعماً عندما يتّصل، لذا كان يقول لي: بعض أصدقائي عندما يتّصلون زوجاتهم تبكي فيسوء وضعهم النفسي، ولكن أنا كلما أتّصل بك تتحسّن أحوالي، وعندما انتهى الاتّصال وضعت له صدقة جانباً، وقرأت آية الكرسي ونفخت باتجاه سوريا.

ويوم الأحد كنت أركب الباص العمومي، وعندما حملت الهاتف رأيت أنّ حميداً اتّصل لمرّتين، جفّ الدم في عروقي، وغضبت من نفسي أن

[٢] من عادات العزاء عند الإيرانيين أن يصنع نوع من الحلوى من الطحين والسكّر والسمن ويوزّع على المعزّين.

كيف لم أنتبه لاتصاله؟! حملت الهاتف بيدي وتسمّرت عيناي على شاشته، ولم أعد أرى شيئاً آخر، ولم أعد حتّى أرمش كيلا أؤخّره للحظة واحدة، كنت أعلم أنه سيتّصل مرّة أخرى، ولم أفهم شيئاً من الحديث الذي كان يدور بين أصدقائي، كانت كلّ حواسي مع حميد، ولم تمض عدّة دقائق حتّى عاود الاتصال، تبادلنا السلام، وكان صوته يصل متأخراً وضعيفاً، وكان الباص مزدحماً، والهمهمة من حولي وصوت الباص لم يسمحا لي أن أسمع حميداً بسهولة، أغلقت أذناً بيدي وألصقت الهاتف بقوة على الأذن الأخرى، لم أرد أن تفوتني كلمة واحدة من كلماته فسألني: أين أنت؟ لمَ لا تجيبين؟ لقد قلقت عليك، فقلت: أشعر بالخجل منك حبيبي حميد، كان عندي درس في الصف، والآن أنا في الباص ووصلت إلى مستديرة كوثر الثالثة، عندما اتّصلت لم أنتبه، صديقاتي يسلّمن عليك. ولم يكن صوتي يصل جيداً فقال: إن أمكنني سأتّصل بك بعد ساعتين، وإلا فانتظري اتصالي بعد عدّة أيام.

بقيت أنتظر حتى الساعة الحادية عشرة ولم يتّصل، ويوم الاثنين لم يتّصل أيضاً، والثلاثاء لم يكن من خبر، وصار عملي هو البكاء، ولم يحدث أن مرّت قبل الآن ثلاثة أيّام ولم يتّصل فيها، ومن اليوم الذي ذهب فيه لم أبتعد عن الهاتف، ولم أضعه في حقيبتي أو في جيبي، كنت أخاف أن يتّصل حميد ولا أنتبه، وصرت حينها مثل "ألفت خانم" الوالدة في قصة "شيار ١٤٣" التي لم تكن تبعد الراديو عنها، وكان الهاتف بالنسبة لي له حكم الخبر الجديد عن حميد.

ويوم الأربعاء في الرابع من شهر آذر عند الساعة الرابعة وثمانية وثلاثين دقيقة اتصل أخيراً، لم أصدّق أنّ الرقم من سوريا، انعقد لساني من الفرح، عتبت عليه أنه لماذا لم يتّصل فقلت: لا أطلب منك أن تتّصل وتتحدّث مطولاً، اتّصل فقط، ألق علينا سلاماً، أسمع صوتك فأخرج من

قلقي وهذا يكفي، لا تتركني أنتظر إلى هذا الحدّ. فقال: بالله يا فرزانة لا يمكن أن أتصل، وربما لن أتصل لأسبوع. فقلت: بالله عليك لا تقل هذا أنا لا أتحمل، إن لم تتصل سأخسر نصف عمري، ويذهب فكري في ألف طريق وطريق. سألته: كيف الطقس هل تتأذى من البرد؟ قال: الليل بارد جداً والنهار حار، هنا ربيع ستة أشهر، وخريف ستة أشهر فالطقس معتدل كأوروبا. فمزحت وقلت: أيا السيّد الأوروبي، السيّد المتوسطي الفتاة الشرقية تنتظرك، اتصل سريعاً سريعاً. ضحك على الهاتف فسألته: حميد متى تعود؟ فقال: فرزانة، تأكدي أنّي لن أعود قبل أربعين يوماً. لا تنتظريني في الوقت الحالي، وكلّ من يسألك عنّي فقولي: هو بخير، أبلغي الجميع سلامي. فقلت: أنتظر اتصالك في أيّ وقت فقال: ربما لن أتصل لأربعة أو خمسة أيام.

وفي تلك الليلة جاء حسن وزوجته ليسهرا عندنا. وقبل أن يأتي الضيوف ارتديت حجاباً أسود، وعندما رأتني أمي قالت: زوجك ذهب بعيداً، ليس من الجيد أن تلبسي حجاباً أسود فاذهبي وبدّليه.

ومن اليوم الذي رحل فيه حميد لم أر أخاه حسناً. كنت أعلم أنه مستاء من حميد. كان حسن ضابطاً وكانت تجربته في الخدمة تفوق تجربة حميد. وعند الذهاب جرى بينهما كلام أيهما يذهب إلى سوريا، وكان هناك قانون ينصّ على أن يذهب من كلّ أسرة فرد واحد. فوقع بينهما اختلاف. حتى أنه أثناء الوداع كان كلّ إخوة حميد وأخواته إلا حسن لم يأت. ودّعه حميد على الهاتف وقال له: يا أخي، أنت لديك أطفال فابق وأنا أذهب، وفي المرّة القادمة تذهب أنت.

وتمام وقت السهرة كان حسن إما ساكتاً أو يسأل بقلق عن حميد. قلت له: اليوم تحدّثنا. فقال بحسرة: ليتني كنت قد ذهبت بدلاً عن حميد. أشعر بالقلق كثيراً من أجله. كانت حالاته غريبة في الأيام

قلبي وهذا يكفي، لا تتركني أنتظر إلى هذا الحد. فقال: بالله يا فرزانة لا يمكن أن أتصل، وربما لن أتصل لأسبوع. فقلت: بالله عليك لا تقل هذا أنا لا أتحمل، إن لم تتصل سأخسر نصف عمري، ويذهب فكري في ألف طريق وطريق. سألته: كيف الطقس هل تتأذى من البرد؟ قال: الليل بارد جداً والنهار حار، هنا ربيع ستة أشهر، وخريف ستة أشهر، فالطقس معتدل كأوروبا. فمزحت وقلت: أيا السيد الأوروبي، السيد المتوسطي القناة الشرقية تنتظرك، اتصل سريعاً سريعاً. ضحك على الهاتف فسألته: حميد متى تعود؟ فقال: فرزانة، تأكدي أني لن أعود قبل أربعين يوماً. لا تنتظريني في الوقت الحالي، وكلّ من يسألك عني فقولي: هو بخير، أبلغي الجميع سلامي. فقلت: أنتظر اتصالك في أيّ وقت فقال: ربما لن أتصل لأربعة أو خمسة أيام.

وفي تلك الليلة جاء حسن وزوجته ليسهرا عندنا، وقبل أن يأتي الضيوف ارتديت حجاباً أسود، وعندما رآني أمي قالت: زوجك ذهب بعيداً، ليس من الجيد أن تلبسي حجاباً أسود فاذهبي وبدليه.

ومن اليوم الذي رحل فيه حميد لم أر أخاه حسناً. كنت أعلم أنه مستاء من حميد، كان حسن ضابطاً وكانت تجربته في الخدمة تفوق تجربة حميد، وعند الذهاب جرى بينهما كلام أيهما يذهب إلى سوريا، وكان هناك قانون ينص على أن يذهب من كلّ أسرة فرد واحد، فوقع بينهما اختلاف، حتى أنه أثناء الوداع كان كلّ إخوة حميد وأخواته إلا حسن لم يأت، ودّعه حميد على الهاتف وقال له: يا أخي، أنت لديك أطفال فابق وأنا أذهب، وفي المرّة القادمة تذهب أنت.

وتمام وقت السهرة كان حسن إما ساكتاً أو يسأل بقلق عن حميد. قلت له: اليوم تحدّثنا. فقال بحسرة: ليتني كنت قد ذهبت بدلاً عن حميد، أشعر بالقلق كثيراً من أجله. كانت حالاته غريبة في الأيام

الأخيرة، وكأنه ينتظر هذا السفر منذ سنوات، هنيئاً له الآن وهو يدافع عن الحرم. وعندما انفضّت السهرة وأثناء الذهاب قال حسن: قولي لأخي أن يتّصل بي لقد سامحته. فقلت: حميد ليس معه رقمك ولكن عندما يتّصل سأقول له أن يتّصل بك، وارتاح بالي أنّ الخصام إذا كان بسبب الذهاب فقد انتهى، لأنّ تفكير حميد أثناء ذهابه كان منصبّاً على هذا الأمر، فلم يكن يحبّ أن يترك أذى يصدر منه في أيّ مكان.

تلك الليلة نمت وأنا في غاية الاطمئنان، لأنّه لم تمرّ بضع ساعات على تحدّثي مع حميد، وقلت في نفس الليلة يبقون في الخطوط الخلفيّة، ومن المقرّر أن يبدأ الهجوم في الغد فيتقدّمون إلى الأمام، وحوالي الساعة الواحدة ليلاً رأيت حلماً عجيباً، رأيت أنّ حميد قد جلب لي علبة ثمينة مليئة بالخواتم، وكان كلّ واحد بشكل مختلف، أحدها ألماس والآخر زمرّد وياقوت فقلت: حميد هذه رائعة، ولكن إذا أردت أن ألبس عشرة خواتم لا يبدو الأمر جميلاً، فقال: ألبسيها كلّها، نريد أن نذهب إلى عرس.

وعندما استيقظت في الصباح قصصت الحلم على أمّي فقالت: ربما تكونين حاملاً، والطفل بنت لأنك رأيت في الحلم ذهباً... ومن هذه التفاسير التي تتداولها النساء عادة، ولكن على وجه الدقة وفي تلك الساعة التي رأيت فيها الحلم كان كلّ شيء قد انتهى! وكأنّ حميداً كان ينتظر أن تنتهي آخر هواجسه، كان رضا أخيه يقلقه أثناء الرحيل، وكان هذا هو بطاقة السفر بلا عودة.

ويوم الخميس في الخامس من شهر آذر[٣] كان عندي امتحان في كتاب الصحيفة السجّادية، وكان عليّ أن أذهب إلى جامعة الإمام الخميني العالميّة، وبقيت لحوالي الساعة أراجع الكتاب، وبعد المشاركة في

---

٣ ٢٦ ١١١١ ٢٠١٥م.

امتحان الجامعة عدت إلى البيت مشياً على الأقدام، أردت أن أبقى في خلوتي وأن يبرّد هواء آذر البارد حريق فراق حميد الذي لامس روحي، ولم أستطع أن أصلّي في أوّل الوقت، وكنت أقول في نفسي لو كان حميد هنا لخاصمني بشدّة أن لماذا أخّرت صلاتك؟! وكان يولي أهميّة للصلاة في أوّل وقتها، وكلّما كان يرفع الأذان كان يؤكّد عليّ أن لا أؤخّر صلاتي، وكان يأتي ويفرش لي سجّادة الصلاة، فلأنّ سجّاداتنا كان فيها خيوط من الحرير كان يفرش سجادة للصلاة، أو يصلي على الموكيت.

وعندما وصلت إلى البيت صلّيت، وبعد تناول الغداء تمدّدت قرب المدفأة، وعند كل دقيقة كان يتّصل بهاتف أبي أحد ما، وكان أبي يتكلّم بصوت منخفض، وبينما أنا متمدّدة ذهب فكري في ألف اتّجاه، كنت أنظر خلسة إلى أبي وأبكي بصمت، لم يتحمّل قلبي، ذهبت إلى أمّي وسألتها لماذا يتّصل كلّ هؤلاء؟! هل حدث شيء؟! فقالت أمي: لا علم لي، لا تقلقي، ليس هناك شيء. ولكنّ هذه الاتصالات قد أقلقتني كثيراً. وفي تلك الليلة حكى لنا أبي الكثير من الذكريات، عن عرسه، عن أول حياته، عن ولادتنا، وقال: عندما كنتِ في الصفّ الأول من المرحلة الابتدائيّة انتهت مهمّاتي في كردستان وعدت إلى قزوين، وأنت التي كنت تتسلّقين أعلى الجدار سكتّي فجأة وهدأتي، كان شعرك طويلاً ولكنّ أمّك كانت تقول هل يريد شعرك أن يصبح دالية عنب؟ دعي الأمر إلى أن تصبحي عروساً عندها تطيلين شعرك، وعندما صرت في الصف الثالث الابتدائي كنت تحبّين أن ترتدي الـ "شادور" على عكس كلّ الفتيات اللاتي يعشقن الشعر الطويل والملابس المزركشة والمزيّنة. كنّا نقول لك: لا زلت صغيرة ولا تستطعين أن تمسكي بالـ "شادور" حتّى

ذهبنا إلى مشهد فقال خادم الحرم، ابنتك قد كبرت، من الأفضل أن تشتري لها "شادور" وتدخل الحرم به، فسررتِ كثيراً، وعندما ذهبنا إلى المحلّ اخترتِ واحداً عربيّاً من "الساتان" وكان مزخرف الأطراف، وهكذا صار، فارتديته منذ زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

كان حقّاً ما يقوله أبي: كنت أعشق الـ "شادور" منذ صغري، وبالطبع كنت أرتدي الحجاب منذ سنّ السابعة، ولكن الـ "شادور" الأسود كان أمنية طفولتي التي تحقّقت في مشهد، وأحييت الذكريات القديمة. وصارت أمّي تحكي عن طفولة حميد: حميد كان يقول دائماً أحبّ أن أكون مثل عابدزاده[٤] كان يحبّ كرة القدم كثيراً، وكان عمله هو اللعب بالكرة في الزقاق مع أولاد الحيّ ومع أخوته أو يلعبون بالإطارات القديمة في الزقاق ويدفعونها بالخشب ثم يركضون خلفها.

ويوم الجمعة استمرّت الاتصالات المكرّرة تتوالى على هاتف أبي، كان قلبي ينبئني بالشر، وبين كلّ تلك الهواجس حكت لي أختي فاطمة حلماً قد رأته بالأمس فقالت: بالأمس رأيت حميداً في منامي، كان يرتدي الملابس العسكريّة، قال لي: فاطمة، اذهبي وأخبري فرزانة أنّي عدت، لقد ذهبت إليها في الحلم عدّة مرّات ولم تصدّق، اذهبي أنت وقولي لها أنّي عدت. وما إن حكت لي هذا الحلم حتى تقطّعت نياط قلبي، وفقدت كلّ هدوئي، وضعت صدقة أكثر من كلّ يوم، وصرت بحال شديدة السوء، ومهما حاولت لم أستطع أن أعبّر حلم أختي بغير الاستشهاد، فتحت القرآن فجاءت الآية السابعة عشرة من سورة

---

٤ اسم مدرّب الفريق الإيراني لكرة القدم.

الأنفال: وليبلي المؤمنين منهم بلاء حسناً. وما إن قرأت معنى الآية حتّى جلست على الأرض، كان قلبي يخفق بشدّة، قلت: يا لتعاستي، لا بدّ أنّ شيئاً ما قد حدث، تلك الليلة كنّا مدعوين لعيد ميلاد ابن خالي، وبدلاً من الاستمتاع بعيد الميلاد كانت كلّ حواسّي على الهاتف، لقد مرّ يومان ولم يتّصل حميد.

وصباح يوم السبت ومع أنّي كنت بحال سيّئة ذهبت إلى الجامعة، وضعت الهاتف أمام يديّ حتى إذا اتّصل حميد أجيبه بسرعة، وقبل أن يذهب حميد إلى سوريا كان الجميع يعلم أنّي أغلق الهاتف داخل الصف، ولكن في هذه الفترة كان الهاتف مفتوحاً دائماً، كان قد اتّصل يوم الأربعاء وقد مرت ثلاثة أيام، وبدلاً من اتصال حميد صارت تتوالى الرسائل المريبة، في البداية أرسلت زوجة سعيد رسالة: هل تكلّمت مع حميد؟! كيف حاله؟! فأجبتها: بلى، تكلّمت معه منذ ثلاثة أيام، كان بحال جيّدة، ويسلّم على الجميع. وبعدها مباشرة أرسلت زوجة السيّد ميثم صديق حميد الحميم رسالة: فسألتني: هل السيّد حميد بخير؟ ولم يكن أن حدث من قبل أن يسأل الجميع بهذا الشكل عن حميد، وشيئاً فشيئاً كدت أن أجنّ.

وعند الساعة التاسعة والنصف انتهت الحصّة، وكان بين الحصتين فترة استراحة، فاتصل بي أبي، وعندما سألني في أيّ كليّة أنت أعطيته العنوان، وقلت في نفسي لا بدّ أن لديه عملاً ليأتي إلى الجامعة، وعند ذهابه أراد أن يراني، طلب منّي أن أقف أمام باب الكليّة، وما إن وصلت إلى الباب حتّى شعرت أن أقدامي تخونني، كان أبي يرتدي ملابس شخصيّة ولكن بسيّارة الحرس وبرفقة ابن خالته الذي كان هو ضابطاً أيضاً.

وبعد السلام سألني: متى ينتهي الدوام اليوم؟ فقلت: أصل إلى البيت الساعة السابعة مساء، فقال: إذن اجمعي أغراضك ودعينا نذهب الآن.

فقلت: إلى أين يا أبي؟! لا يزال عندي دروس، وبعد تمهّل قال بصوت يرتجف: حميد قد أصيب ويجب أن نذهب. وما إن قال هذا حتّى شعرت أنّ عينيّ لا تريان جيّداً، وضعت يدي على رأسي وقلت: يا فاطمة الزهراء وأين هو الآن؟ وكيف حاله؟ أين أصيب؟ أمسك أبي بيدي وقال: لا تقلقي يا ابنتي، ليس هناك شيء مهمّ، لقد أصيبت يداه ورجلاه، وقد جاؤوا به إلى إيران، وهو في مستشفى بقية الله في طهران.

أردت أن أهرب من الواقع، وقلت في نفسي: إصابة بسيطة، ثمّ قلت لأبي: إذا كانت إصابته غير مهمّة، فأنا عندي درسان مهمّان أحضرهما ثمّ نذهب إلى طهران، أعاد أبي ناظريه إلى سيّارة الحرس، وتبعت مسير عينيه، انتبهت لابن خالة أبي وللسائق ينظران إلينا باضطراب ويتحادثان، وأدار أبي وجهه نحوي وقال: لا يا ابنتي علينا أن نذهب. وحتّى تلك اللحظة نظرت جيّداً في عيني أبي، كانت عيناه محمرّتين كالجمر، كان من الواضح أنّه بكى كثيراً، وبكثير من الضغط على نفسي قلت: إذا كان الأمر غير مهمّ فلماذا بكيت؟! أبي أخبرني الحقيقة.

فقال أبي: لا شيء مهمًّا يا ابنتي، لقد استشهد اثنان من رفاق حميد، يجب أن نذهب بسرعة، وما إن قال هذه الجملة حتى مرّت أمام عيني جميع قصص زوجات الشهداء، شعرت أنّي أدخل في مرحلة جديدة، مرحلة ليس فيها حميد، مرحلة لا أحبّ أن أسمع عنها حتّى كلمة واحدة. ركضت إلى الصفّ بسرعة حتّى آخذ أغراضي، انتبهت صديقاتي إلى سرعتي واضطرابي فسألنني: ماذا هناك يا فرزانة؟! لمَ كلّ هذه السرعة؟! فقلت: لا شيء لقد أصيب حميد وجاؤوا به إلى طهران وعليّ أن أذهب، جاءت صديقاتي خلفي، وعندما وصلنا إلى السيّارة انتبه أبي لهن، ذهب مرافقه إلى جهة أخرى وتحدّث إليهنّ، ورأيت بعينيّ أن صديقاتي جلسن على الأرض وصرن يبكين، أردت أن أذهب إليهنّ ولكنّ أبي لم

يسمح لي وأمسك بيدي كي أركب السيّارة، وعندما ركبت أدرت برأسي إلى الخلف ورأيت من زجاج السيارة أنهنّ قد احتضنّ بعضهنّ وغطّين رؤوسهن بعباءاتهنّ ورحن يبكين.

لم أستطع أن آخذ نفساً، كنت أشعر بشيء شبيه بمن تصيبه ذبحة قلبيّة، صار جسمي كأنه تحت تأثير مخدّر، وكنت فقط أستطيع أن أرمش بعيوني، كان أبي قد وضع رأسي في صدره وكان يبكي بصمت، وبمشقة عظيمة سألته لمَ تبكي؟! ألم تقل أنّه مصاب فقط؟ أنا أقوم بتمريضه، وأبقى إلى جانبه وأهتمّ به كثيراً حتّى يصبح بحال جيّدة.

فقال وهو يبكي: ابنتي عليك بالصبر، ألم تكونا أنتما تريدان هذا؟ ألم أشطب أنا اسم حميد؟ ألم تأت إليّ وتتوسّطي له؟ ألم تقولي دعه يذهب؟ الآن عليك بالصبر. كنت مستعدّة لمثل هذ الأيام. وما إن سمعت هذ الكلمات حتّى قلت في نفسي: لقد انتهى كلّ شيء، لقد استشهد حميد.

ولم ينتبه ابن خالة أبي أنّي فهمت كلّ شيء من كلام أبي فقال: تلزمنا صورة حميد للمستشفى. كان هذا الكلام كلّه قد قرأته منذ سنوات في قصص شهداء الحرب المفروضة، كلّ شيء كان يبدأ من إصابة طفيفة، وصورة للمستشفى، من كلمة لم يحدث شيء، وكان ينتهي الأمر في مزار الشهداء، وهذه المرّة تكرّر كلّ شيء معي، ولكن ليس في قصّة بل في الواقع، كنت أفترق عن حميد، بهذه البساطة، بهذه السرعة، وأحياناً يكون الرحيل ببساطة جميلاً.

❀ ❀ ❀

ذهبنا إلى منزل أبي، لم أستطع أن أمشي، جلست على الأدراج، وصرت أبكي بصوت عال وقلت: حميد أقسم عليك بالله، بالسيّدة الزهراء عليها السلام أدخل من الباب، قل إنّ كلّ شيء هو كذب، قل إنّك ستعود من جديد،

وكنت أكرّر هذه الجملة وأبكي. لم يكن أخي يعلم ولكن ما إن عرف الخبر حتّى أصيب بصدمة، واحتضنتني أمّي وهي تبكي فسألتها: أمّي هل استشهد حميد؟! سكتت، وكان هذا السكوت عالماً من الكلام. فقلت: إلهي خذ من عمري ليرمش حميد بعينيه فقط، ولا أريد بعد هذا شيئاً. احتضنتني أمّي بقوة وقالت: اهدئي يا ابنتي. لم أقدر على التنفّس، فجرّوني إلى الغرفة، جلست على الكنبة، جلس الجميع قربي يبكون فقلت: لماذا تبكون؟ صدّقوني هذا كذب، لقد تكلّمت مع حميد منذ ثلاثة أيام وقال إنّه سيتّصل بي. كان حالتي سيّئة من الصدمة، وأحببت بكلّ وجودي أن أفعل شيئاً حتّى لا أصدّق هذا الكلام، كنت أشهق من البكاء، شعرت أمي بالقلق كثيراً من أجلي وقالت لأبي: لنذهب إلى منزل أختك إن بقيت فرزانة هنا ستنفجر.

ودقيقاً بعد أن اتّصل بي حميد لآخر مرّة أي يوم الأربعاء عند الساعة الحادية عشر ليلاً ساروا نحو العدو، كانت المهمّة تدعى باسم مهمّة جعفر الطيار، عمليّات النصر، في منطقة العيس من سوريا، جنوب غرب حلب المعروفة باسم المنطقة الخضراء، وفي نفس تلك العمليات استشهد فيها رفيقاه المجاهدان "زكريا شيرى" وإلياس چگينى" ولأنّ جثمانيهما الطاهرين قد بقيا تحت ركام المبنى، لم يستطيعوا سحبهما، لذا بقي جثمانا هذين الشهيدين القزوينيّين المدافعين عن الحرم إلى جانب السيّدة زينب عليها السلام. وكانت قدما حميد قد داستا على عبوة ناسفة وتلاشتا. وأصيب جميع جسمه بالجراح، لقد حقّق أمنيته وصار شبيهاً بالعبّاس فقدّم يديه وقدميه للدفاع عن حريم المقام، وقد قال لأحد رفاقه، اسحبوني إلى الخلف كي لا يقع جثماني في يدي الأعداء فقال له: حميد! لا شيء مهمّاً، ستتعافى، لن نستطيع الرجوع للخلف. فقال حميد: إن كان غير ممكن فخذوا منّي يداً أو رجلاً لأمّي

وزوجتي وأروهما إيّاها فإنّهما تنتظران. وكان رفاقه قد ربطا رجليه بعدة كوفيات ولكن نزف الدم لم يتوقّف، وأوصلوا حميداً بهذه الحالة في جوف الليل إلى دبّابة وأثناء المسير قصف العدوّ الدبّابة أيضاً، ولكنّ الله أراد لجثمان حميد أن يعود، وكان داخل الدبّابة اثنان من رفاقه جالسين أيضاً، وكان حميد لا يزال على رمق الحياة وكان يكرّر: عفواً، دمي ينزل على ملابسكم، ويقول أصدقاؤه في اللحظات الأخيرة كانت شفتاه تردّدان ذكر "يا صاحب الزمان" وكان النزيف شديداً فاستشهد حميد أثناء الطريق.

❋ ❋ ❋

ومنذ يوم الخميس كان الخبر قد وصل إلى الكثيرين، ولكنّ عائلتي وعائلة حميد لم تكن على علم بالخبر. وعندما وصلنا إلى بيت عمّتي كان الزقاق والفناء الخارجيّ للبيت في حالة هيجان، كان ممتلأ بالعائلة والأصدقاء والمعارف، وكانت رؤية صور زوجي حميد الذي تكلّمت معه هنا قبل عدّة أيام صعبة جدّاً عليّ. وبينما كنت أمرّ من بين الجموع كان صوت أحد الأقارب يقول بشفقة: آه، لقد جاءت زوجته، كان كبدي يلتهب ناراً، وضعت يدي على الجدار ورحت أصعد الأدراج، كانت عمّتي تبكي وتنوح، احتضنتها، كانت رائحة حميد تنبعث من عمّتي، جاء أبي واحتضننا نحن الاثنتين وصرنا نبكي نحن الثلاثة، وكان الذي يُسمع هو صوت بكائنا فقط، وكأنّ جميع الأصوات قد اختفت في صوت بكائنا.

كنت أعتقد أنّ خبر استشهاد حميد أصعب حدث في حياتي ولكن لم يكن الأمر كذلك، لقد جاءتني صعوبات كانت كلّ واحدة منها تدمّر وجودي، صعوبات كانت ألف مرّة أصعب من خبر شهادته، قالوا خذوا فرزانة إلى البيت لتحضر وصيّة حميد، وكانت هذه الأشياء تقطعني، أفي

اليوم الأول الذي سمعت فيه بخبر استشهاد حميد عليّ أن أذهب إلى منزل حياتنا المشتركة؟! البيت الذي لا تزال فيه ملابس حميد معلّقة بالشكل الذي علّقها فيه ولم تمسّ! وعندما فتحت الباب تذكّرت اليوم الذي كنت واقفة فيه هنا ورأيت البيت خالياً من حميد، اليوم الذي أغلقت فيه الباب على كلّ الذكريات دون حميد، ولكن الآن عدت إلى البيت نفسه دون حميد، كانت أبواب البيت وجدرانه تبكي معي، كانت الساعة قد توقّفت، والمصابيح قد احترقت، وكأنّ هذا البيت قد فهم أنّ البيت قد صار للخراب، اقتربت من القرآن الذي كان على الرفّ هو القرآن نفسه الذي وضعت فيه وصيّة حميد فيه أمانة.

ما را به سخت جاني خود اين گمان نبود

ما لنا ولهذه المصائب! لم يكن هذا مجرّد وهم

وفي كلّ تلك الدقائق كان هذا البيت من الشعر يدور في رأسي، ولم أكن أصدّق أنّي لا زلت حيّة، وصرت عجوزاً بكلّ معنى الكلمة. وعندما قالوا لنذهب ونشاهد جثمان حميد تذكّرت القرار الذي اتخذته في قلبي، لم يكن قلبي يريد أن يعود جثمان حميد، لم أكن أنتظر الجثمان، قلت في نفسي: إما أن يعود حميد سالماً من المهمّة، وإمّا أن يبقى إلى الأبد إلى جوار السيّدة زينب عليها السلام إن استشهد.

وكان في اعتقادي أنّه عندما يبقى الشهيد خالداً ويبقى جثمانه على التراب يبقى لديك أمل أن تنبت زهرة إلى جنب جثمانه، وعندما يهبّ النسيم يفوح عطر تلك الزهرة في كلّ أرجاء الدنيا، وهذا يعني الحياة، يعني أنّ الشهيد لا زال حياً، ولكن في مزار الشهداء فإنّ برودة رخام القبر تبعد الإحساس بالحياة، وعندما يوضع الرخام على القبر تشعر ببعد المسافة وما قدّمته في سبيل الله بكثير من العذاب لم أكن أنتظر عودته، ولكن كان هذا نصيبنا.

ومن البيت ذهبنا مباشرة إلى معراج الشهداء، في أول شارع "عبيد".
كان كلّ شيء يسير بسرعة، ولم تمض ساعات على علمي بخبر استشهاد حميد، والآن قد جاؤوا بجثمانه إلى قزوين. أردت أن أقول: حميد أنت ذو معرفة وفهم، أخبرني على الأقل من قبل، لا أحتمل أن أصدق كلّ شيء بسرعة، وأعتاد على فراقك.
وعندما وصلت إلى المعراج كانت رائحة عطر البخّور وماء الورد تملأ المكان، كم أشعلت البخور لحميد كي يعود سالماً أينما توجّه! ولم يكن لمعراج الشهداء أكثر من عشرين درجة، وحتّى وصلت استغرق الأمر ساعة، سقطت عدّة مرات، كانوا قد أخلوا المكان حول النعش، وكانت عمّتي هناك إما يغمى عليها أو تتأمّل النعش مبهوتة.
وقفت فوق النعش وقلت: كذب، إنّها لعبة، الآن سأضع يدي عليه فيقف، ومن جديد سيعود إلى شقاوته...
وكان وجهه من الشمال قد أصيب كثيراً بالجراح، درت فوق رأسه وذهبت إلى الجانب الأيمن، وعندما رأيت عينيه شبه مفتوحتين قلت: حميد كفاك مزاحاً، انهض، لقد ذهبت بنصف عمري. كنت أشعر أنّه يمازحني فقلت في نفسي: الآن أمسكه من شعره، الآن أقبّله فينهض، قبّلته في عينيه، وأرجعت رأسي إلى الوراء متوقّعة أن ينهض وننهي القصة هنا، انهمرت قبلاتي على وجهه على أمل أن يتحرّك، وفي كلّ حياتنا عندما كان يقود الدرّاجة الناريّة أو يأتي من الخارج كان يضع يديه الباردتين على يدي، والآن يداه باردتان جدًّا جدًّا، أردت أن أدفّئهما بيدي، واقتربت برأسي على وجهه أتنفس عليه حتى يدفأ.
شعرت باليأس، كنت أبحث في جسده عن علامة خاصة، كان لحميد على جانب رقبته الأيمن شامة، ولكنّها الآن ليس لها أثر، فصارت ذريعة لي، وتراجعت إلى الخلف ووقفت على المغتسل وقلت: هذا ليس

زوجي، هذا ليس حميداً الذي أعرفه، حميد على رقبته شامة ولكن الآن لا أثر لها.

احتضنني أبي هناك في أعلى المغتسل، وببكاء وصوت مختنق قال: لقد ذهب الدم من جسمه ولذا تختفي الشامة ولا تظهر. ثمّ وقف أبي إلى جانب النعش، وفتح رباط الكفن وقال: فرزانة تعالي وانظري، كلّ جسمه أصيب بالجراح ما عدا صدره. وما إن قال هذا حتى اقتربت من النعش وتذكّرت كلام حميد الذي كان يلطم بقوة في مجالس عزاء الإمام الحسين عليه السلام ويقول: فرزانة هذا الصدر لن يحترق أبداً، كلّ الجثمان قد أصيب بالرصاص، بطنه، قدماه، يداه، رقبته، وجهه، ما عدا صدره الذي بقي سالماً بشكل كامل. وضعت يدي المرتجفة على صدره، وكان قلبي يتمنّى أن أشعر بدقّات قلبه، أشعر تحت يدي أنّ قلب حميد لا يزال حيًّا، ولكن ليس هناك من خبر، لم تظهر أيّة علامة، وأصعب لحظات على الزوجة هي هذه، القلب الذي خفق عمراً من أجلك ليس له الآن أيّ نبض، أيّة حركة، أيّة حرارة، لقد توقّف قلب حميد عن الحركة، هذا القلب الذي قال أثناء طلب يدي العشق الأول للقلب هو لله، والعشق الثاني هو للإمام الحسين عليه السلام وأنت العشق الثالث.

وعملاً بالأمنية التي كانت عندي في الليلة الأخيرة والتي كتبها حميد داخل الوصيّة، تقرّر أن أبقى لدقائق مع حميد، احتضنته، ناجيته، مررت بيدي على جسده، وكنت دائماً أفكّر أنه ماذا يمكن للزوجة أن تقول في هذه اللحظات لزوجها الشهيد، وكنت حضّرت لهذه الدقائق الأخيرة كثيراً من الكلام، ولكنّي نسيتها كلّها، اقتربت برأسي من أذنه وقلت: تذكّر، أنا... كثيراً كثيراً، رفعت رأسي، وكأني أنتظر جوابه، سكتّ عدّة لحظات ثمّ قلت في أذنه: حميد أنا...

وتذكّرت تلك الجملة التي قالها لي حميد ليلاً قبل ذهابه: فرزانة لقد

زلزلت قلبي لكنّك لا يمكنك أن تزلزلي إيماني، طلبت منه السماح وقلت: حميد سامحني إن زلزلت قلبك، سامحني، مباركة لك الشهادة، أوصل سلامي إلى سيّد الشهداء عليه السلام وقل للسيّدة الزهراء عليها السلام أن تقبل منّي هديتي. ولم يسمحوا لي أن أبقى أكثر من هذا قرب حميد، كانوا يقولون ليس من الجيّد أن يبقى الجثمان في معرض الهواء أكثر من هذا، أرادوا أن يأخذوا حميداً إلى مكان التبريد. وضعت يدي على وجهه للمرّة الأخيرة، حميد الذي كنت ألمس وجهه الدافئ والمليء بالمحبّة الآن هو بارد بارد، بردٌ عجيب يصل إلى داخل العظم. وكانوا قد قالوا: اتركوا عيني حميد غير مغمضتين حتى تراهما أمّه وزوجته، قبّلت عينيه وأغلقتهما، العينان اللتان لم تفتحا على ذنب أبداً، العينان اللتان كأنّهما رأتا في اللحظات الأخيرة الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، العينان اللتان أغلقتا لترى من الآن فصاعداً الجمال فقط.

وبالقوّة أبعدوني عن نعش حميد، وسحبني أبي وجاء بي إلى أول الدرج، كنت أجلس على كلّ درجة وأبكي وقلت: دعوني هنا، منذ أسبوعين لم أرى حبيب قلبي، أسبوعان لم يكن حميد معي. وعندما وصلت إلى الدرج الأخير رأيت سعيداً فقلت: سعيد على الأقل لا تسمح لهم بنقل حميد إلى مكان التبريد حميد لا يحبّ البرد، وكنت أتصوّر أنّ رفيق لعب الطفولة ورفيق حياتي تركني وحيدة ويقودني إلى العدم. وبالقوة أركبوني في السيّارة، وذهبنا إلى المسجد الذي في حيّ والد حميد، وهو المسجد الذي كان حميد مكبّراً[٥] فيه لمرّات أيّام طفولته، والآن جاء الجميع ليسمعوا آخر أذان للعشق من جثمانه الذي فارق الحياة، وجاؤوا بالجثمان من أجل مراسم ليلة الوداع، كان المكان في

---

٥ المكبر في إيران طفل يقف قرب إمام الجماعة ويعلن عن أفعاله وركوعه وسجوده للمصلين بواسطة التكبير.

غاية الازدحام، عرضوا صوره، وعرضوا أفلاماً له.

وبعد أن انتهت المراسم وضع الجثمان في سيّارة الإسعاف، وركضت خلف النعش بقدمين حافيتين، كنت أريد أن أبقى في أيّ مكان يكون فيه حميد، كان الناس يبتعدون جانباً وكنت أنا أركض خلف حميد، سحبتني إحدى صديقاتي جانباً، ولم يسمحوا لي أن أرافق حميد.

وعدنا من المسجد إلى منزل أبي، كانت حالتي سيّئة إلى درجة أنّي لم أستطع الذهاب إلى منزل عمّتي، كانت أمّي قد أعدّت العدس والأرزّ للغداء فلم أتناول شيئاً، وما إن رأيت الطعام حتّى بدأت بالبكاء، وامتلا الصحن دموعاً، حميد كان يحبّ العدس والأرزّ كثيراً، وكان يضع البيض فوقها ويأكلها مع السلطة الشيرازية والخبز، وبقيت مدّة أكرّر القصّة نفسها، وكلّما كنت أرى شيئاً كنت أتذكّر حميداً وأبكي طويلاً، الطعام الذي كان يحبّه، الأماكن التي كنّا نذهب إليها معاً، وباختصار كلّ شيء.

قالت أمّي وهي تبكي: ابنتي الحبيبة، أنا فداء لدموعك، بما أنّك لا تأكلين شيئاً فارتاحي ليبقى فيكي رمق، غداً لدينا الكثير من العمل.

كنت خائفة من الغد الذي لم يأت، من الغد الذي تقرّر فيه أن أشيّع فيه حميداً إلى أبواب الجنّة، إلى الغد الذي تقرّر فيه أن أرى وجه حميد للمرّة الأخيرة، كانت الأضواء مطفأة لكنّ أحداً لم ينم، كان أخي في الغرفة يقرأ القرآن، وكان ينبعث صوت بكاء أبي من الغرفة، وكنت أنا أمسك ظهري، أدور في غرفة الاستقبال وأبكي، كان ظهري كلّ لحظة ينشقّ إلى نصفين.

ومع أنّي رأيت جثمانه إلا أنّي لم أكن أصدّق، كنت أقول في نفسي: حميد لا يُخلف في كلامه، وغداً تكون قد مرّت الأيام الأربعة التي قال إنّه سيتصل عندما تنتهي، أحببت أن أعيد الزمن إلى الوراء، ولعدّة أشهر أخرى بقي لديّ هذا الإحساس، وهذا الانتظار، وبغير إرادة منّي كنت أنظر إلى الهاتف،

كنت أنظر إلى شاشة الهاتف، كنت أعتقد أنّ تلك الأيام الأربعة لم تنته بعد حيث قال في اتصاله الأخير أنّ عليّ أن أنتظر.

وأخيراً جاء صباح ذلك اليوم الطويل، صلّيت الصبح، وألبسوني ثياباً سوداء، جاء أخوالي والعائلة وراءنا لنذهب إلى تشييع جثمان حميد، وذهبنا إلى سبز ميدان بالسيّارة، ومن هناك ذهبت ماشية وباكية إلى مرقد السيّد إسماعيل ومررت من أمام حرم "پيغمبريه" وتذكّرت كلّ تلك الأيام التي كان حرم الأنبياء مقصداً لنا أنا وحميد، كنّا نأتي ونضع أحذيتنا في مكان خاص، ثمّ وبعد أن نزور نذهب مشياً أو على الدراجة من شارع سپه إلى مزار الشهداء، والآن يجب أن أمشي هذه الطريق نفسها التي مشيتها لمرّات مع حميد.

جاؤوا بجثمان حميد بسيّارة الإسعاف، وكان ذلك في الثامن من شهر آذر وقبل ذكرى الأربعين بثلاثة أيام[٦]، في الثامن من آذر قبل ثلاث سنوات ركبت سيّارة الإسعاف من أجل ألم في بطني وكان حميد فوق سريري مستيقظاً حتّى الصباح، في ذلك الوقت لم أكن أفكّر أنّه بعد ثلاث سنوات وفي مثل هذا اليوم سأدفن أنا حميداً وأقرأ القرآن حتى الصباح، القصّة تتكرّر ولكنّها هذه المرّة مليئة بالحزن.

وقرب السيد إسماعيل وقفت، كان المكان مزدحماً، وكان حميد أول شهيد في قزوين مدافعاً عن الحرم، جاء الكثيرون ولكن أكثر رفاقه لم يكونوا يدرون بالخبر أو بقوا في سوريا أو ذهبوا إلى زيارة الأربعين في كربلاء قبل سماع الخبر.

وكانوا يقومون بالمراسم أولاً، العرض العسكري، الذي بدا طويلاً جدا في نظري، كنت أنتظر فقط أن يرفعوا النعش وأرى حميداً، وعندما رفعوه

---

٦ ١٣٩٤/٩/١٨ ٢٠١٥/١١/٣٠م. ١٧ صفر ١٤٣٧ هـ

شعرت بروحي تتجدّد، كان شوق حميد يسحبني نحوه، لم أستطع المشي، وكانت أختي وصديقتي تمسكانني بذراعي وتسحبانني، قلت: أرجوكما، لنمش مع حميد لا نتقدّم عليه ولا نتأخّر عنه، وكنت أريد للمرّة الأخيرة أن نمشي هذا الشارع معاً.

وعندما وصلنا إلى مزار الشهداء وبعد إقامة المراسم تشكّلت صفوف من أجل الصلاة، لم يكن لي قدرة على الوقوف فقالوا لي: أنت لست بحالة جيّدة، لا داعي لأن تصلّي، اذهبي واجلسي في زاوية فقلت: لا، أريد أن أصلّي على حميد. كانت هناك سيّارة بيضاء متوقفة، استندت إليها وصليت.

بدأت المراسم، كانوا يقرؤون وصيّة حميد، هي الوصية نفسها التي أجبرني على قراءتها بصوت عال ودون بكاء، ولكن الآن كلّ سطر كنت أسمعه كان يرتفع صوت بكائي، وإلى جانب تلك السيّارة قرب القناة وقفت حيث جاء أخي وقال: لنذهب إلى جانب المزار، سيزدحم المكان فيما بعد ولن يكون بإمكانك الاقتراب، جئت إلى قبر حميد، البيت الذي سيبقى فيه زوجي إلى الأبد، نظرت جيداً، تحسّست القبر بيدي وحفظت كلّ مكان فيه حتّى أني أذكر أيّ حجر في أيّ صف كان مكسوراً.

قلت لأبي: اسمح لي أن أنام للحظات داخل القبر لأرى هل هو مريح؟ ثمّ تضعون حميداً. لم يسمح لي أبي أن أدخل إلى القبر، أمسكت التراب حول القبر قبضة قبضة وقبّلته، كنت أحسد ذاك التراب وقلت له: أنت محظوظ أكثر منّي لأنّك ستكون من الآن فصاعداً جليس حميد. أخرجوا حميداً من النعش، وكان مكتوباً على خشب التابوت رقم السلسة، تاريخ الاستشهاد وفئة الدم وعندما رفعوا الجثمان أمسكت بأقدامه، ولمستها بيدي، وكأنها كانت سالمة، قلت للأقارب والأصدقاء الذين رفعوا الجثمان: أقدام حميد سالمة، حميد حيّ، أرجوكم لا تضعوه داخل القبر، أردت أن أبذل قصارى جهدي حتى أقنع نفسي أنّ حميداً لا زال حيّا، ولكن كأنّ أحداً لم يسمعني.

وكانت أخوات حميد وأمّه في حالة صعبة، فعدن إلى الوراء، ومن النساء كنت الوحيدة التي بقيت فوق رأسه منذ البداية إلى النهاية، كان قلبي يريد أن تبقى عيناي على عينيه ووجهه، لم أكن أحتمل البعد عنه، وعندما كنت أرى وجهه كنت أشعر أنّه لا زال حيًا، قبّلت التراب ورميته فوق جثمان حميد وقلت: كن للأبد بدلاً عني مع حميد.

وعندما أهالوا التراب شعرت بتلاشي إحساسي، مَن أحبّ، أملي، مستقبلي وكلّ شيء لي، وبكلّ وجودي بكيت عالياً. وقال المسؤول عن الدفن: اهدئي يا سيّدة مرادي، انظري إنّ حميداً يضحك داخل القبر، نظرت إلى وجهه، فرأيت ابتسامة كانت ترتسم على شفتيه، أحرقت هذه الابتسامة قلبي أكثر، كنت أعلم أنه يرى الآن أشياء لا أراها، يشعر بشيء لا أفهمه، انكسر قلبي لبعدي عنه.

وكان أبي في جهة وفي جهة أخرى عمي نقي، وقد أمسكاني حتّى لا أقع داخل القبر، رتّبوا أحجار القبر، وعندما يضعون الأحجار سيكون كل شيء قد انتهى، يعني لا أستطيع أن أرى حتّى وجه حميد، وعندما وصلوا إلى الحجر الثالث لم يتّسع له المكان، فاضطروا أن ينزعوا الأحجار من جديد ليبدّلوا أماكنها، ووقعت عيناي من جديد على وجه حميد، كان يضحك، لم أكن أعلم ما هو الشيء الذي يراه حتّى يشعر بكلّ هذا السرور.

انتهى الأمر، لقد أهالوا التراب! وبقي لقاؤنا إلى يوم القيامة، وفي اللحظة التي أهالوا فيها التراب ارتفع صوت أذان الظهر، وهذه المرّة قلتُ بلى مع وقت الأذان، قلتُ بلى لجهاد زوجي، بلى للامتحان الإلهي، تذكّرت كلام حميد حيث كان يقول: لا بدّ أنّ هناك حكمة من أن أنسى بطاقتي الشخصيّة مرّتين، حتّى تقولي بلى مع ارتفاع صوت الأذان.

كأنّ الزمان قد توقّف في الخامس من شهر آذر، وعندما يسألني أحد عن التاريخ أقف ولا أدري ما أقول، أنتظر، صار الزمان بالنسبة لي لا معنى له، لا يرجع إلى الوراء لأقول إنّ حميداً لا زال موجوداً، ولا يتقدّم، حتى ينتهي هذا الانتظار وأصدّق أن حميداً لن يتّصل، وكان الشوق خلال الأربعة عشر يوماً التي قضاها حميد في سوريا قد بقي إلى الأبد انهياراً في قلبي. وفي الليلة الأولى للدفن، بقيت قرب مزاره، ووفيت بالوعد الذي قطعناه، اتّفقنا أنّ من يرحل منّا أولاً عن هذه الدنيا لا يتركه الآخر وحده في قبره الليلة الأولى، قالت أمّي: الطقس بارد لنذهب إلى البيت، أو على الأقل دعينا نجلس في السيّارة نتدفّأ، فقلت: لا، لقد وعدت حميداً أن لا أتركه وحده الليلة الأولى في القبر.

كان الجميع متعجّبين، وكانوا يقولون: وكم من السنوات عشتما معاً حتى فكّرتما بهذه الليلة وقطعتما وعداً كهذا؟! وفي الساعات الأولى لم يسمح لي قلبي بقراءة القرآن كنت أقول: حميد حيّ، لماذا عليّ أن أقرأ له القرآن؟ ولكن تلك الليلة بقيت أقرأ القرآن حتى الصباح، كان الطقس بارداً جدًّا، وكان الباقون يأتون ويذهبون، ولكن أنا بقيت عند قبره حتّى الصباح، كان الثامن من شهر آذر، أكثر الأيام خريفاً بالنسبة لي، وأكثر الأيام ربيعاً لحميد.

وصار هذا ديدني لعدّة أيام حيث كنت أحتضن تراب القبر، وأشعر به، كنت أعرف جيّداً أنه قد تمدّد على فاصلة صغيرة منّي، وكأنه يبكي لبكائي، وكان حضوره في عين غيابه بالنسبة لي أكثر حضورٍ في الدنيا يبعث على الهدوء.

ومن الأيام الأكثر صعوبة بعد استشهاد حميد اليوم الذي أحضر فيه رفاقه محفظته من سوريا، وكان ذلك في الثلاثين من شهر آذر على

وجه الدقّة، وفي ليلة "يلدا" [٧] وصلت إليّ حقيبة حميد. في البداية مانع أبي، ولكن برجاء منّي سلّموها إليّ، لم أرد أن أبكي أمام أبي وأمي، وفي ذلك اليوم كنت أختنق فقط، وعندما حلّ المساء وبعيدًا عن أعين الجميع ذهبت إلى فناء الدار، احتضنت الحقيبة، وتذكّرت كلّ ليلة يلدا كان فيها حميد إلى جانبي، هذه هي الحقيبة التي جرّتنا إلى جدال أنا وحميد، وبيد مرتجفة فتحتها من الجهة اليمنى، كان كيس النايلون الأسود الذي وضعته إلى وقت حاجته لا يزال في مكانه، جوارب وقفّازات لم تمس، وكنت قد وضعت له مشدًّا ليديه.

وعندما فتحت القسمِ الأوسط عرفت أنه هو الذي رتّب الأغراض فيه، كنت أعرف طريقة حميد في الترتيب، وكلّ شيء غير ملابسه العسكريّة كان على الحالة التي كان عليها، الملابس التّي ودعني بها في اليوم الأخير كانت في الحقيبة، وكان في جيبه خمسة عشر ألف تومان كان قد أخذها معه، ملصق مكتوب عليه يا زهراء كانوا قد أعطوه لحميد من جوار السيدة زينب عليها السلام كان ملح الطائرة في جيب معطفه وكتاب لتعلّم اللغة العربيّة! كانت هذه الأشياء الأخيرة التي لمسها حميد وأنا الآن مثل يعقوب الذي أضاع يوسفه، كنت أشمها وأمسح بها عيوني برؤوس أصابع مرتجفة وقلبي مليئ بالحزن.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من مراسم الأربعين ذهبت إلى بيتنا الزوجيّ، ففي النهاية نحن مستأجرون وليس من الصواب أن تبقى أغراضنا هناك، كان علينا أن نجمع الأثاث ونسلّم المنزل. طلبت من أخوات حميد وأمّه وأمّي وأختي أن يرافقنني، ولكنّ أحداً منهنّ لم يرغب في المجيء؛ فالبيت بدون حميد يفتّت الصخر وتحمّله كان في الحقيقة

---

٧ أطول ليلة في السنة، لها مراسم وعادات خاصّة عند الشعب الإيرانيّ، حيث تحيا إلى الصباح مع اجتماع الأقارب وقراءة الشعر...

صعباً جدًّا لدرجة أنّ أختي ذهبت معي قبل مراسم الأربعين لإحضار شيء ما، وما إن وقعت عيناها على قبّعة لحميد ساءت حالها كثيراً. واضطررت للذهاب مع صديقتي ناهيد، وجرت دموعي منذ أن وطئت قدماي أوّل الدرج، فوضعت يدي على الجدار وصرت أمشي متثاقلة، كنّا قد وضعنا لطميات على الهاتف، وكلّ شيء كنت أضع يدي عليه كان يحيي لي ذكرى، تذكّرت حميداً الذي لم يكن يسمح لي أبداً بنقل أيّ شيء ثقيل. والشيء الذي ضعضع كياني هو محفظة صغيرة كانت بين أغراضه، كان قد جمع فيها كلّ ما كنت أكتبه له، حتّى كلمة سلام قد احتفظ بها، لم أكن أعتقد أنّها مهمّة بالنسبة إليه إلى هذا الحدّ، وكان قد قال لي إنّه سيفاجئني يوماً ما بهذه الكتابات، ولكن لم يكن يخطر في بالي أبداً أنه يريد أن يجمعها كلّها ويجعلني بهذا العمل إلى الأبد أقف أمام محبّته مطأطئة الرأس.

وقد منعتني ناهيد وهي تبكي من أن أمدّ يدي على ملابس حميد، أعطيتها حقيبة لتضع كلّ الملابس فيها، وكانت تلك لحظات صعبة، فالانسلاخ عن منزل كان حميد قد رتّب كلّ شيء فيه حتّى الورق المقوّى الذي وضعه تحت السجاد، كان شيئاً صعباً ومؤلماً.

وبعد أسبوع ذهبت مع أبي وإخوة حميد حتى نأخذ الأثاث، كان صاحب المنزل والجيران يبكون، وبعد أن نقلوا جميع الأغراض، دخلت إلى البيت، وقفت وسط غرفة الاستقبال، جلت بعيوني في أرجاء المنزل، لم يكن هناك أحد ولا أيّ شيء، شعرت بأوج وحدتي، هناك كان بيت أملي ولكن الآن عليّ أن أودّع إلى الأبد البيت وحميداً وكلّ الذكريات.

وعند الخروج من المنزل قلت لحميد وأنا أبكي: حبيبي، أنا أريد أن أرحل من هنا، أرجوك، إن جئت إليّ في الحلم فلا يكن في هذا البيت لأنّي أتألم كثيراً.

وعندما نزلت إلى الأسفل احتضنتني السيدة كشاورز وهي تبكي وقالت: عزيزتي يا أمي، ليس بوسعي فعل شيء، أستودعك الله، ابني في مكان رفيع. أتمنّى أن تعطيك مولاتي السيدة زينب عليها السلام الصبر، وقلت لها بلهفة: هل يمكنني كلّما شعرت بضيق أن آتي وأرى المنزل؟ أمسكت يدي بحنان وقالت: أجل يا ابنتي، البيت بيتك تعالي متى شئت.

عندما خرجت من المنزل رأيت ذلك العجوز الذي كان مختلاً عقليًا، الرجل العجوز الذي كان حميد يسلّم عليه دائماً ويظهر له مودّته كان يقول: "فرزانة، سترين محبّة هذا الرجل يوماً ما"، والآن جاء ذلك اليوم، فالرجل العجوز الذي نعلم جميعاً أنه مختلّ عقليًا ولكن حميداً بقي في ذهنه فكان يذرف الدموع ويبكي، وكانت هذه إحدى مشاهد البكاء المحرقة التي رأيتها في غمّ فقدان حميد.

عندما ركبت السيّارة نظرت بحسرة من الزجاج الخلفي آخر مرّة إلى البيت، بعد هذا لم أستطع أن أعود إلى ذاك الزقاق وذاك البيت، وعدّة مرّات وصلت إلى أوّل الزقاق، ولكنّ البكاء لم يسمح لي أن أتقدّم بخطواتي.

في ذكرى زواجنا كنت في مرقد السيد حسين، وكنا ننسج قفازات وقبعات لمدافعي الحرم، كنت أشعر بالشوق الكبير لحميد، تذكّرت السنوات السابقة التي كان فيها حميد في ذكرى زواجنا يشتري لي باقة ورد عند الساعة الحادية عشرة ليلاً وبغير إرادة منّي وجدت نفسي أمام باب بيتنا المشترك، لم يكن هناك أحد داخل الزقاق، نظرت إلى النافذة، ولم تتركني الدموع، شعرت بقدمي تنهاران، ولم أستطع أن أتقدّم، ومن هناك عدت إلى أوّل الزقاق باكية، وودّعت بيتنا المشترك إلى الأبد.

وبسرعة كبيرة ابتدأت الوحدة، وتماماً كما بدأنا حياتنا المشتركة سريعاً انتقل كلّ شيء إلى الصفحة الثانية، عاد كلّ شيء إلى الأيام التي كانت دون حميد مع فارق أنّي الآن تأتيني ذكرياته بأشكال مختلفة، وأصبحت كفراشة لا ذنب لها وقعت في قبضة الرياح لا أجد السكينة إلا عند مزاره. الخريف، الشتاء، الربيع والصيف، لقد جرّبت الفصول الأربعة مع حميد في روضة الشهداء، في البداية ومثل مرحلة الخطوبة كان الطقس بارداً، وكانت أولى الثلوج التي تساقطت على مزاره في أواسط الشتاء، ذهبت إلى روضة الشهداء، كان المكان خالياً، صنعت كرة من الثلج وقلت للصورة التي فوق رأسه: حميد! انظر لقد تساقط الثلج! لست هنا لكي نلعب بالثلج، هل تذكر أول ثلوج بعد خطوبتنا حيث جئنا من الجامعة إلى منزل أبي مشياً ولعبنا بالثلوج كثيراً.

وأحياناً كانت تحدث أشياء غريبة في مزاره حيث كنت أشعر بأنّه حي، وفي إحدى الليالي وقرابة أذان الصبح رأيت في الحلم حميداً يقول لي: لقد اشتقت إليك كثيراً، قومي تعالي إليّ. وعادة كنت أذهب إلى مزاره عند العصر ولكن ذلك اليوم ما إن استيقظت حتى ذهبت. ومن أقرب دكان اشتريت عدّة زهرات من النرجس وعلبة تمر، وكنت أعلم أنّه هكذا سيكون راضياً أكثر، وكان دائماً يؤكّد على رعاية حقوق الجيران، وعندما كنت أذهب إلى المزار كنت أحاول أن أشتري من أقرب دكّان إلى المزار بحيث يكون جاراً لروضة الشهداء.

وما إن جلست ووضعت الورود على القبر جاءت فتاة واحتضنتي وهي تبكي، ولم يكن يسمح لها شهيق البكاء بالتكلّم، وبعد أن هدأت قليلاً قالت: لقد رأيت صورة شهيدك على الشارع فقلت له: لقد سمعت أنّكم ذهبتم من أجل المال، وأنّكم لستم على حقّ، سأتّفق معك على شيء، سآتي غداً إلى مزارك، فإن رأيت زوجتك أعرف أنّني على خطأ،

إن كنت على الحق فأعطني علامة من عندك. حكيت لها الحلم الذي رأيته وقلت عادة أنا آتي إلى هنا عند الغروب، ولكن ليلة البارحة طلب مني حميد أن آتي إلى مزاره في الصباح، ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك المرأة صديقتي وتغير سير حياتها، وفهمتُ حديثاً أنّ يدا حميد مبسوطتان لإحقاق الحقّ.

إنّ ما بعد الاستشهاد صعب لدرجة لا يمكن مقايسته بالدفن والمشاهد الأخيرة في المعراج، وقلت في نفسي مرّات إن كان من المقدّر أن يكون حميد حيًّا ويستشهد من جديد لن أبكي لاستشهاده، لكن الأحداث التي بعد الشهادة هي أشدّ حرقة بدرجات من هذا الفراق، ومرّت أيام كنت فيها مريضة وكانت عيناي معلقتين على الباب، كنت أحبّ أن يأتي حميد بنفسه ويقدّم لي كوباً من الماء، ولكنّ هذا لم تبق منه سوى الحسرة.

ولا زلت أعجز عن التأقلم مع الظروف، وتمرّ عليّ أيام عصيبة، أيام أبكي فيها دون إرادة منّي، لمجرّد صوت، لمرور أيّ ذكرى في خاطري، لرؤية زوج وزوجته معاً، أيامٌ كلّ شيء فيها يذكرني بحميد، من سماع المرثيّات التي كان يحبّها، إلى العطر الذي كان يضعه، أيامٌ سمعت فيها كلاماً مُراً، منها أن حميد قد ذهب لأجل المال، وأنّ أموالكم ليست شرعيّة لأنّ حميداً لم يستشهد من أجل إيران، كلام كلّ كلمة منه هي بمثابة الملح على الجرح، وكأنّه يلقي بوجودي في نار، وليس هناك أيّ عقل سليم يقبل أن يقوم أحد بهكذا عمل من أجل المال، وأن زوجك لم يعد له وجود، يمكنك أن تريه في الحلم فقط، وعندما تستيقظين من النوم سيعذّبك إلى درجة لا تحبّين معها إلا أن تنامي فقط وتريه

من جديد في منامك، ولكن إلى متى؟! إلى متى يمكن النوم فقط والاستغراق في الأحلام فقط؟!

لقد كانت صعوبات هذا الكلام والتصرفات غير المنصفة في جانب، وغياب حميد نفسه في جانب آخر، والحسرة التي بقيت في قلبي أن أرى عمّتي ووالد حميد لمرّة واحدة يشعران بسرور، وفي كلّ مرّة كنت أذهب فيها إلى منزل والد حميد كان شريط الذكريات أمام ناظري من طفولتي حتّى الأيام الأخيرة وكنت أبكي منذ أن آتي إلى أن أرحل.

أحياناً أشعر أنّ حميداً لم يستشهد، أظنّ أنّني ربّما أضعته، أتحدّث إلى صورته في الإطار، ألبس حذاءه وأمشي به، وعندما أسمع صوت دراجة ناريّة أعتقد أنّه حميد وقد عاد، أرفع سمّاعة الأنترفون متوقّعة أن يكون حميد على الباب، وعندما أعبر الزقاق أقف لعلّ حميداً يطلّ من أوله، وليالي الجمعة عند الساعة الحادية عشرة أنتظر أن يرنّ جرس الباب ويقول: ذهبت إلى الهيئة، وقد طالت الجلسة لذا جئت متأخراً. وأفكار لا تغادر رأس الإنسان: "الحبيب الذي أودعته التراب هل صار عظاماً؟ هل تألّم أم لم يتألّم؟ وعندما يكون الطقس حارًّا تشعر بالقلق، وعندما يكون الطقس مثلجاً يتمزّق قلبك، لعلّه يشعر بالبرد، لعلّ المطر يؤذيه " رغم أنّك تعلم أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنّ الروح قد غادرت البدن، ولكنّ ذكراه لديك لا تبلى أبداً. هي حالة دهشة لحدّ يجعلك لا تعلم أين استشهد ولا يمكن بهذه السرعة أن تغادر إلى هناك.

وكنت قد ذهبت مع زوجات شهداء الدفاع عن الحرم إلى سوريا، وعندما دخلنا إلى مطار دمشق، وبمجرّد دخول المطار ساءت أحوال الجميع، قلت في نفسي: لقد دخل حميد من باب الدخول هذا ولكن لم يعد إلى باب المغادرة أبداً.

وكانت الرحلات كلها ليلاً، ولم يكن هناك من مقعد داخل المطار،

وفي كل رواية منه جلست زوجة أحد الشهداء وغطّت وجهها بعباءتها وراحت تبكي، وعندما كنّا نمشي في الشوراع كنّا نبحث عن علامة لإحتنا، ولم نكن نعلم حلب في أيّ اتجاه، وأين قضى أزواجنا آخر لحظات وجودهم على أيّ أرض؟ وكانت غربة بكاء زوجات الشهداء لا يفقهها أحد، وعليك أن تخنق نفسك في ذروة البكاء، وتخفي اختناقك، حتّى أن قلبك أحياناً يريد خلوة فقط من أجل البكاء، وأحياناً أقول في نفسي: إنّ السهولة من أجل حميد والصعوبة لي لأنه بسرعة قصوى قد أمضيَتْ بطاقة سفره ورحل.

زوجة الشهيد عليها أن تحمل عبء الحياة على كتفيها وحدها، والجميع يتوقّع من زوجة الشهيد أن تبدي السرور دوماً، يجب أن تحضري في كلّ مكان، أن تجيبي على كلّ الاتصالات والرسائل حتّى لا يعتقد أحد أنّك تتكبّرين لأنك زوجة شهيد، وعليك أن تتعبي طوال النهار إلى حدّ تشعرين فيه ليلاً بأنّ روحك تغادر جسمك، وغداً يوم آخر من جديد ولكن دون صاحب سرّكِ ورفيقكِ الذي استودعتِه كلّ أمَلك.

❋ ❋ ❋

وبعد عدّة أشهر من استشهاد حميد ذهبت إلى كربلاء، هي كربلاء نفسها التي أعددنا لها جوازات السفر، ولكنّ حميداً ذهب بذاك الجواز إلى سوريا ومن جوار السيدة زينب عمة السادة صار جليسا أبديّاً لسيده الذي بقي بلا كفن، كربلاء نفسها التي كان حميد عاشقاً لها، كربلاء نفسها التي كان حميد يتوق إليها بشغف. كانت ليلة الجمعة، وقفت وحيدة بين الحرمين ووقفت في مقابل القبّة، وبعد لحظات جلست لم أكن أقوى على الوقوف أكثر، وفي ذروة الحسرة ولوعة الشوق قلت لحميد: حبيبي، أنا الآن في كربلاء، هي

كربلاء التي عزمنا على السفر إليها لتشتري لي "شادور" العرس ولكن لم تُكتب لنا، ومن أجلك لم أنظر إلى أيّ مكان يباع فيه الـ "شادور". قلت لربما ستشعر بالخجل لأنّك لم تستطع أن تقدّم لي الهدية التي وعدتني بها. وطوال هذا السفر كنت أشعر أنّي إنسانان نقف معاً في مقابل الضريح والقبّة ونقرأ الزيارة.

وكانت سكينة حياتي هي حميد الذي غاب، قد انسحب من آمالي وسلب النوم من عيوني و الهدوء من حياتي، أحب أن أضحك من قلبي، أضحك، ولكن ليس من قلبي، وأحياناً عندما يضيق صدري أفرش ملابسه على الأرض وأجلس قربها وأبكي.

وبعد مرور عدة أشهر لا زلت أحياناً أقلب ملابسه أبحث في جيوبه والأمل يداعبني بأن يكون قد كتب لي رسالة، وكل صورة جديدة تصل إلى يدي من حميد أشعر أن حميداً لا زال حياً وهو يرسل لي كلّ يوم صوراً من سوريا.

ودموعي هي من ألم الشوق لا من الاستياء، لأننا نحن الاثنان اخترنا الطريق، وأعلم أنّ حميداً ذو منزلة رفيعة، وهذا يكفيني، والعشق هو هذا، أن يكون حميد مسروراً، راضياً فأنا راضية.

أشعر أنّ حميداً قد حدّثني بكلّ شيء أثناء حياتنا المشتركة، وكلّ الأيام منذ الخطوبة حتّى الشهادة كان يتحدّث، بضحكاته، بحركاته، بسلوكه، بأخلاقه، ولكنّه الآن يرقد بهدوء دون أيّ قلق، ولكن أنا بقي الكثير من كلامي، أشبه غريباً أنتظر أن يأتي من يترجم لي كلماتي، ليته علّمني كيف أنظر إليه بعد رحيله، كيف أتكلّم مثله كلّ الكلام بسرعة.

ورغم كلّ هذه الصعوبات فالأمل يداعبني، وأعلم أنّ أمامي طريقاً طويلاً، وأعلم أنّ عليّ أن أسير أيضاً، وأعلم أنّ عليّ أن "أتذكر" كما أمرني فقطار الحياة يسير، ومهما كانت الحياة صعبة، ومهما كانت تجري دون

حميد، فأنا أنتظر أذاناً يرتفع ويسمع منّي حميد قول "نعم"، أرحل عن هذه الدنيا وأبقى إلى الأبد مع حميد.

وفي صباح كلّ يوم أسلّم على حميد، وأحياناً من شدّة الشوق أتخاصم معه وأقول: لقد جئت اليوم للقائك ولكنّك لم تأتِ كما اتّفقنا. وأشكو من صعوبة الدهر ومن الفراغ الذي تركه في قلبي، وأشعر جيداً أنّه يسمع كلامي جيّداً، وأنزعج منه لعدّة دقائق ولكن أتذكر فيما بعد أن اختلاف الزوج وزوجته لا يجب أن يستمرّ لأكثر من ثوان، فأصالحه بسرعة، وفي آخر الليل أقدّم عن روحه صدقة، وأنظر إلى صورته، وكما في الليالي التي كان فيها في سوريا أقرأ له آية الكرسي لأني أعلم أنّ روح حميد تخلد إلى السكينة في جوار عمّة السادة زينب عليها السلام وتحوز على الرضا الأبدي ثم أقول بهدوء: حبيبي حميد، تصبح على خير.

وصية الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصلاة والسلام على **محمد** ﷺ **وآل بيته الأطهار** الذين هم شرف الكون والمكان، ونحن المتنعّمون من هذه الخمرة الأزليّة التي هي الداعي لأصل اتّصالنا بهذا الحبل المتين وتكاملِنا بواسطة هذا الحصن الحصين الممزوج بولايتهم المعجونة في وجودنا، ونشكر الله على هذه النعمة الإلهيّة التي شملتنا وصرنا فيها غارقين إن شاء الله.

أنا حميد سياهكالي مرادى بن حشمت الله، رأيت من الواجب أن أكتب بعض الجمل لأبثّ فيها ما يجول في قلبي ضمن بضع سطور. بداية يجب أن أقول إنّ الدفاع عن حرم السيّدة زينب عليها السلام هو واجب علي، وأنا أعتقد أنّ سعادتي هي في السير على نهج أهل هذا البيت عليهم السلام وأدعو من الله أن يثبّتني على هذا الطريق، وما فهمه هذا الحقير

هو أنّ الفهم الأعوج والخاطئ وعدم البصيرة هو عبارة عن أناس إمّا لم يعرفوا أهل البيت عليهم السلام ولم يكونوا في برهة من الزمان إلى جانبهم، أو كانوا إلى جانبهم بشكل ظاهريّ ولكن في المواقف الحسّاسة أخلوا الميدان أو كانوا عائقاً في هذا المسير.

وأولئك الذين خلّدوا انتقلوا من التديّن إلى نصرة الدين، وفهموا وأدركوا أنّ هذا المسير هو فقط طريق الوصول إلى الله، وسبب انحراف البشريّة هو البقاء بعيداً والبقاء على عمى عن الطريق وعن نور الهداية. وآه من يوم يمتلكون فيه الولاية ولا يعرفون قدرها ويسيرون على غير هدى، لأننا ما دمنا حماة لولاية الفقيه وسلاكاً لهذا الطريق فإنّنا سنبقى مرفوعي الرأس وسنكون رأس الحربة في جيش صاحب العصر الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف إن شاء الله تعالى... لأنّ نقطة قوّتنا هي الولاية ونقطة ضعفنا هي عدم الالتفات إليها، لأنّ علينا أن نلتفت إلى حدودها وثغورها كما يجب ونعتبر أنفسنا ذائبين فيها.

ولكن أنا أكتب ليعلم من يقرأ أو يسمع أنني في غاية الخجل لأنّي لا أمتلك غير روح واحدة أقدّمها في طريق صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف ونائبه بالحقّ السيّد الخامنئي (مدّ ظله العالي) وعلى يقين من أنّ دمي هو باعث سعادتي وسموّ روحي وسيكون شراباً طهوراً كما قال علي الأكبر عليه السلام: "أحلى من العسل"، أرحل عاشقاً لربي تأسّياً بمولاي أبي عبد الله الحسين عليه السلام حتّى أذوب في الله.

ولكن هناك نقطة وهي أنه إن كان في الوقت الحالي في الجبهة العسكريّة العديد من الإخوان يقاتلون، فإنّهم يأملون أن يهتمّ الشباب بالجبهة الثقافيّة في الخطوط الخلفيّة، تلك الخطوط التي تمثّل استمراراً للجبهة العسكريّة وتشكّل المحرّك الأساس للمجاهدين، والمأمول أن تحافظ الأخوات على حجابهن ليجعلن من هذه الجبهة تتقدّم إن شاء

الله... ولكن برأي هذا الحقير لا شيء أفضل من حسن القول وحسن السلوك في المجتمع وخصوصاً بين العسكريّين وبالأخص بين حماة حريم الولاية.

وفي الجملة الأخيرة أكتب أن ما أملكه في هذه الدنيا من مادّيات من أجل استمرار الحياة أضعه تحت تصرف زوجتي حتى تستطيع إدارة أمور حياتها.

وفي النهاية أرجو من كلّ من قرأ هذه الوصيّة أو سمعها أن يسامح هذا الحقير على تقصيره.

همیشه یادتان را به هنکام نظر بازی

زرخسار على جويم واين است اوج طنازى

همیشه با لبت آرام می خندم وبا چشمان تو مستم

قسم خوردم به جان تو كه باى رهبرم هستم

همیشه خار بودم من به جشم دشمن ناپاك

خدا را شك در راهت به خون افتاده أم بر خاك.

دائماً في خاطري عندما تهيم نظرات هيامي وأشواقي باحثة عن وجه علي

وتلك ذروة الوله

وفي كل آن ابتسم مع شفتيك الساكنتين وأسكر من خمرة عينيك

أقسم بروحك أني تحت أقدام قائدي

في كل آن أنا شوكة في عين العدو الخبيث

وأشكر الله أني على نهجك سقطت مضرّجاً بدمي فوق التراب.

كتبتها في ١٨١١٩ ٩٤

وكفى بالحلم ناصراً حميد سياهكالي مرادى

ألبوم الصور

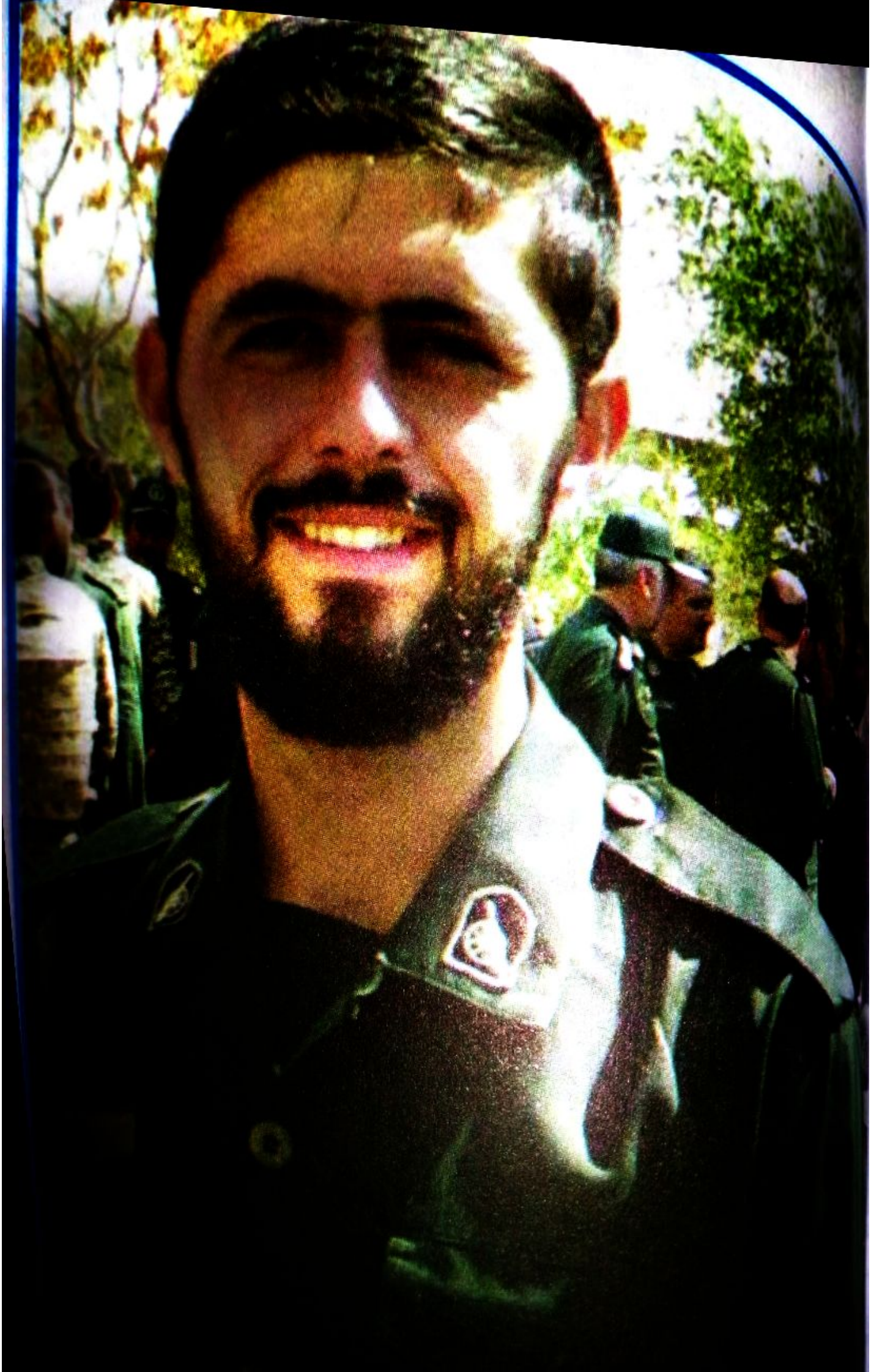

يا صاحب

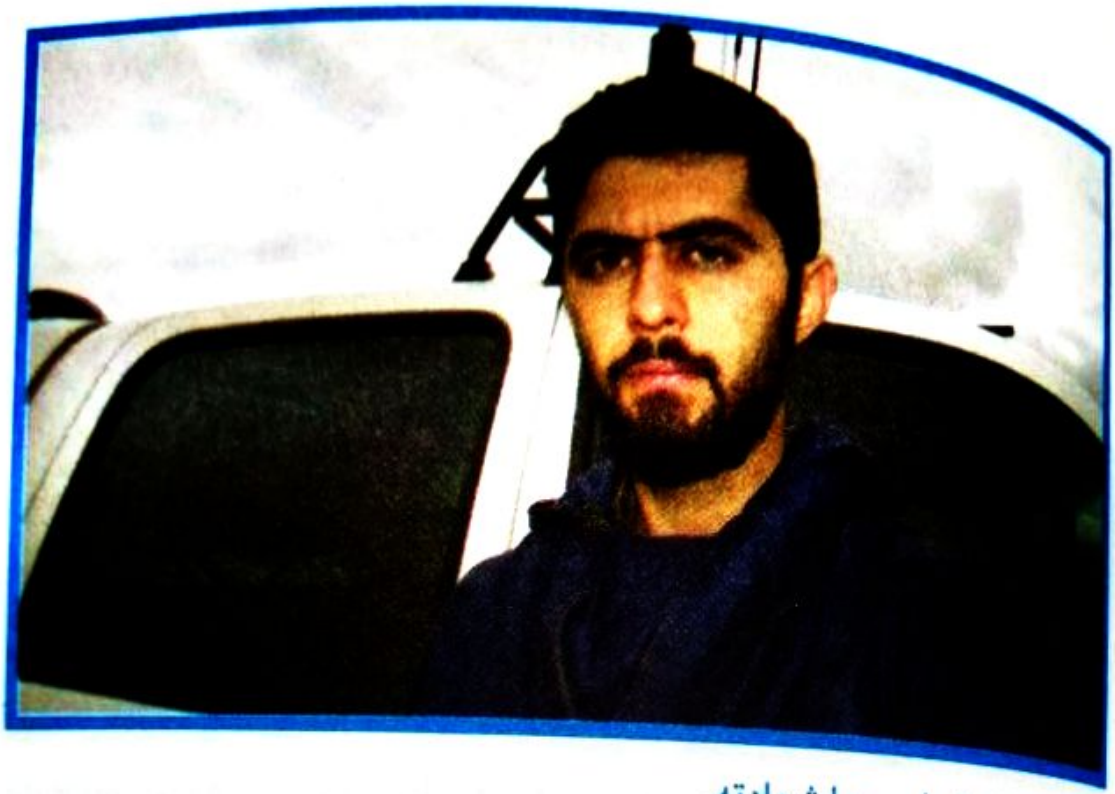

الصورة التي اختارها حميد لشهادته.

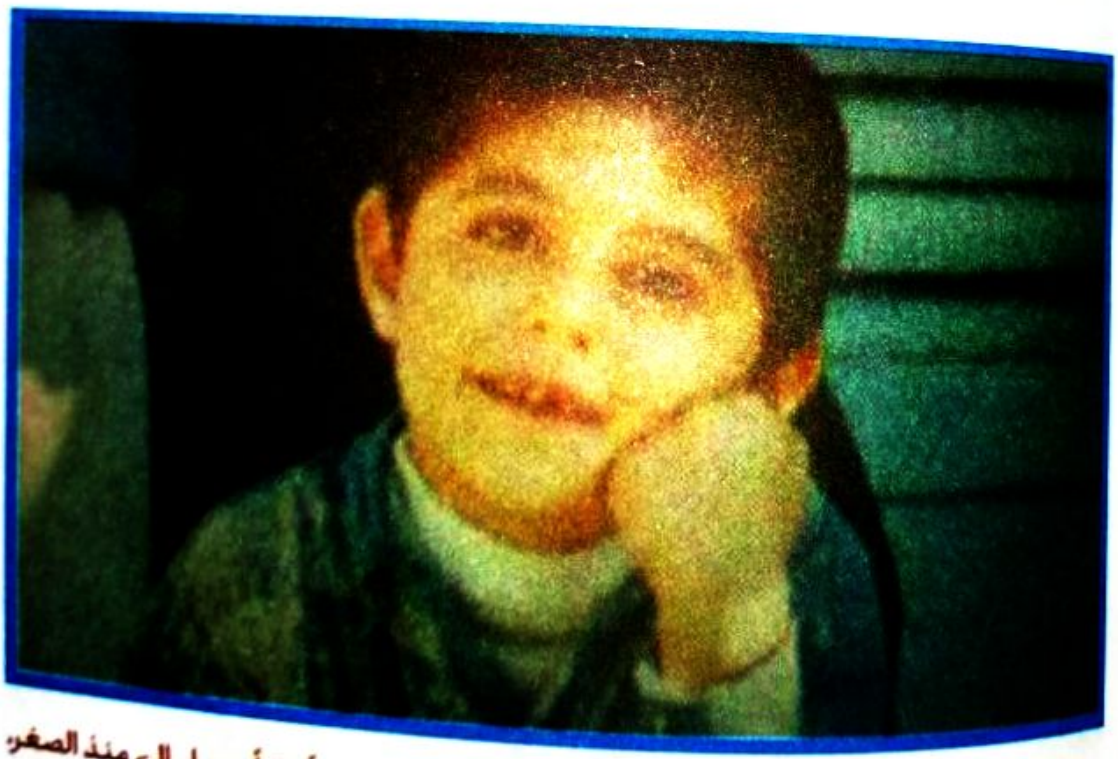

عام ١٣٧٦[1] عرس أحد الأقارب. (ذو شعر قصير جداً، وكان مشاغباً جدّاً، يميل إلي منذ الصغر، لم يكن يسمح لي أن أختلط ببقيّة الصبيان، وعندما كان يحدث شجار بين الأولاد كان يقف إلى جانبي. كان مكبّر[2] المسجد ويرافق أباه إلى مركز التعبئة).

١. ١٩٩٧ م.
٢. المكبر في إيران هو من يعيد على المصلين تكبيرة الإحرام وباقي التكبيرات.

عام ١٣٧٣[٣]: من اليمين حميد وأبي (منزل عمتي).

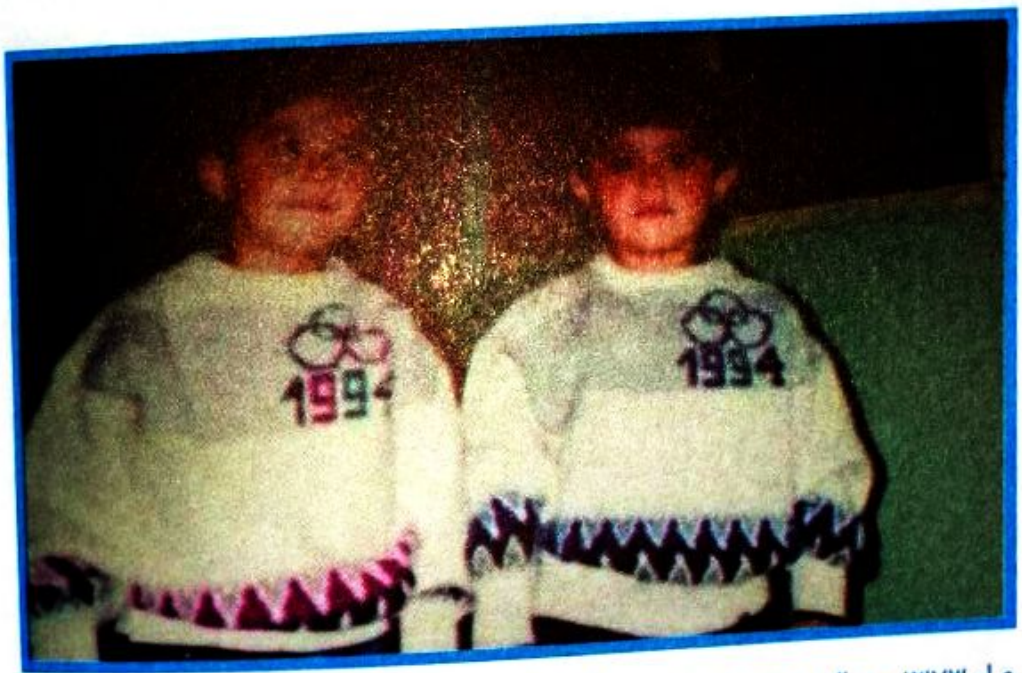

عام ١٣٧٣ من اليمين: حميد ومن الشمال سعيد قبل الذهاب لزيارات العيد. (حميد الذي تقدم لخطيبتي هو ذلك الصبي الشقي الذي اقترح والدي اسمه واسم أخيه التوأم، هو ابن عمتي الذي كان يرتدي هو وأخوه سعيد الملابس نفسها)

---

٣. ١٩٩٤ م.

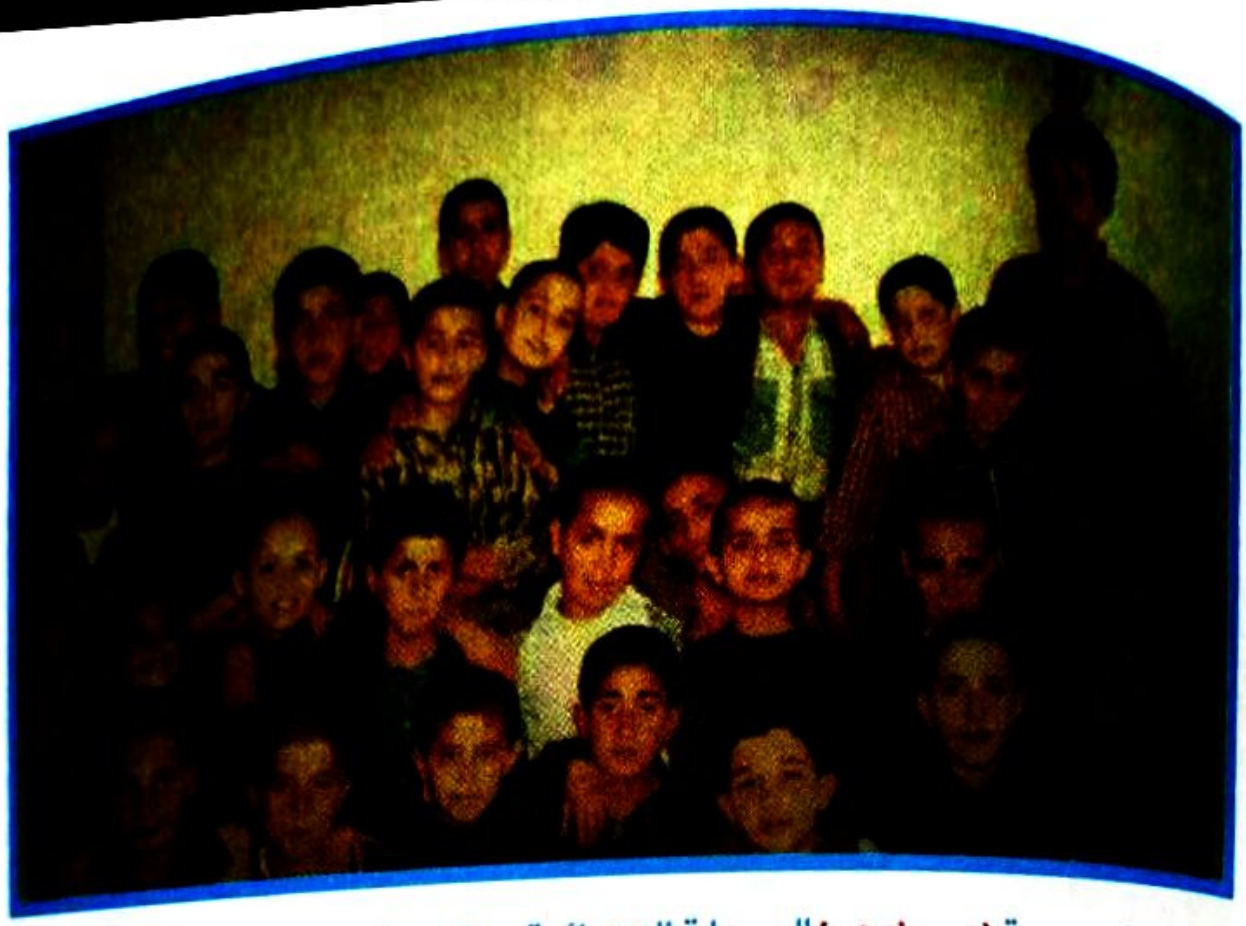

عام١٣٧٨: مدرسة (نور دانش) المرحلة الإبتدائية. جالس في الصف الثاني من الشمال الشخص الثاني.

عام ١٣٩٣: إخوة حميد أثناء نقل جهاز سعيد إلى بيته الجديد: من اليمين: حسن، حميد، سعيد، حسين وجواد.

فروردين عام ١٣٩٤[٦]: بستان والده في قرية سنبل آباد الموت. من اليمين: جواد، حسن، حسين، حميد وسعيد. (وكانت عمّتي تطمئنّ عندما يذهب حميد مع أبيه وإخوته إلى "سنبل آباد"[٧] لأنّ حميداً موجود ويمكنه إعداد الطعام للباقين. كان إخوته ينادونه على سبيل المزاح بـ "يانگوم"[٨])

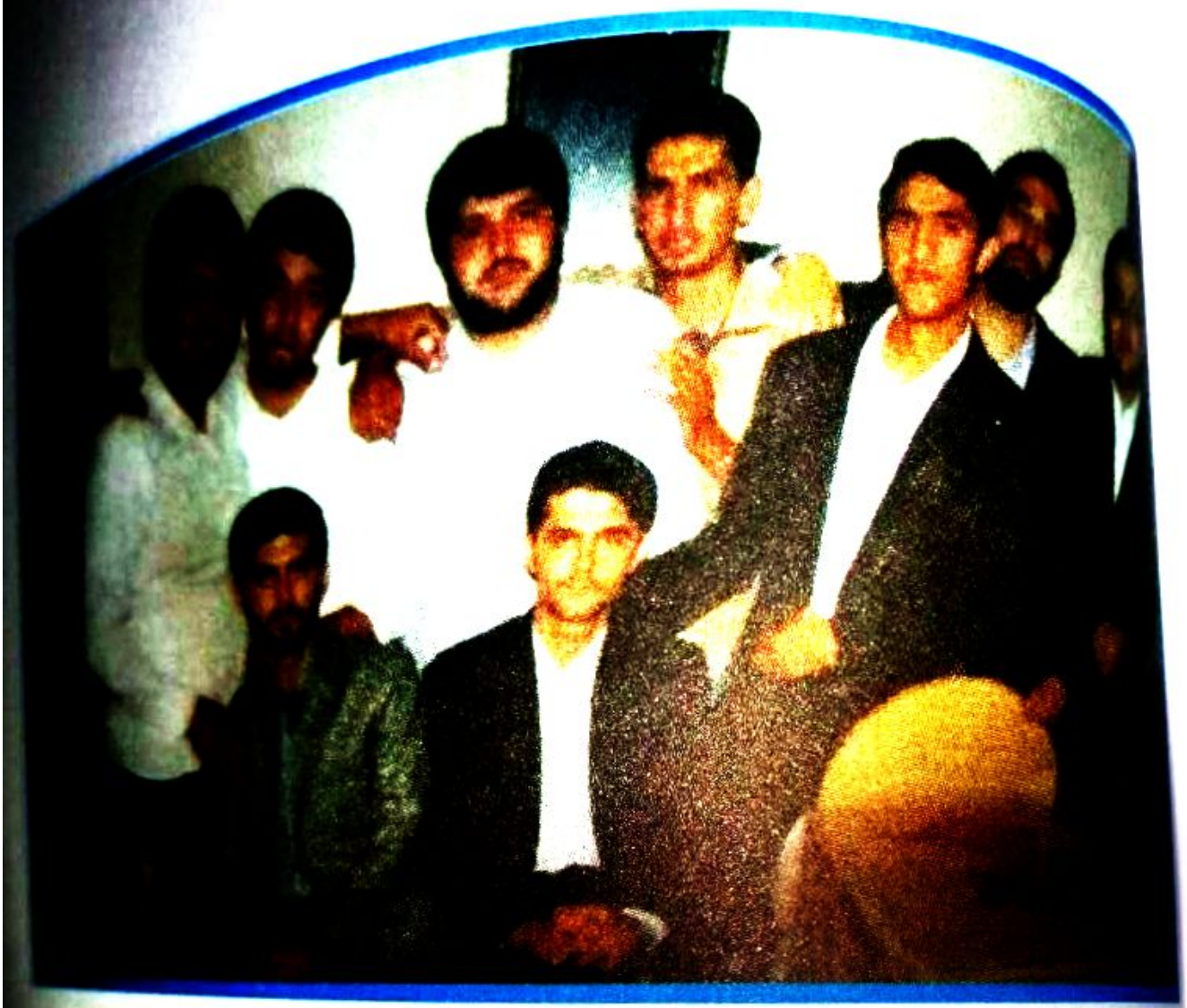

عام ١٣٩٢[٩] عرس سعيد: من الشمال حميد وسعيد جالسين. (لقد كان عرس …

… رائعاً لكنّ حميداً لم يكن يبدو عليه الارتياح، كانت عيناه تبثّان قلقاً من …

زواج أخيه التوأم صار في عالم آخر، وبعد انتهاء العرس كنت أنتظره على باب …

… لشدّة ما كان غارقاً في عالمه الخاصّ كانت حواسّه مشتّتة، وتركني في …

وبعد أن مشى عدّة خطوات تذكّر وجودي.

شعرتُ ببعض الاستياء، وبمزاح رميته ببعض الكلمات، وتركت الخجل …

سيّد حميد! يا للروعة! مع من نذهب لمراسم اليوم الثالث عشر من شهر …

نذهب إلى النزهات؟ وعلى جدار من سنكتب الذكريات؟ من هو الذي …

وكنت أ… أن نفسي حتّى يهتمّ بي أكثر …

عام ۱۳۹۲ حمید بملابس خدام الشهداء (دهلاویه مقتل الشهید الدکتور شمران).

...ت عام ١٣٩٣[14]: مقابل مرقد السيد إسماعيل في باراجين.

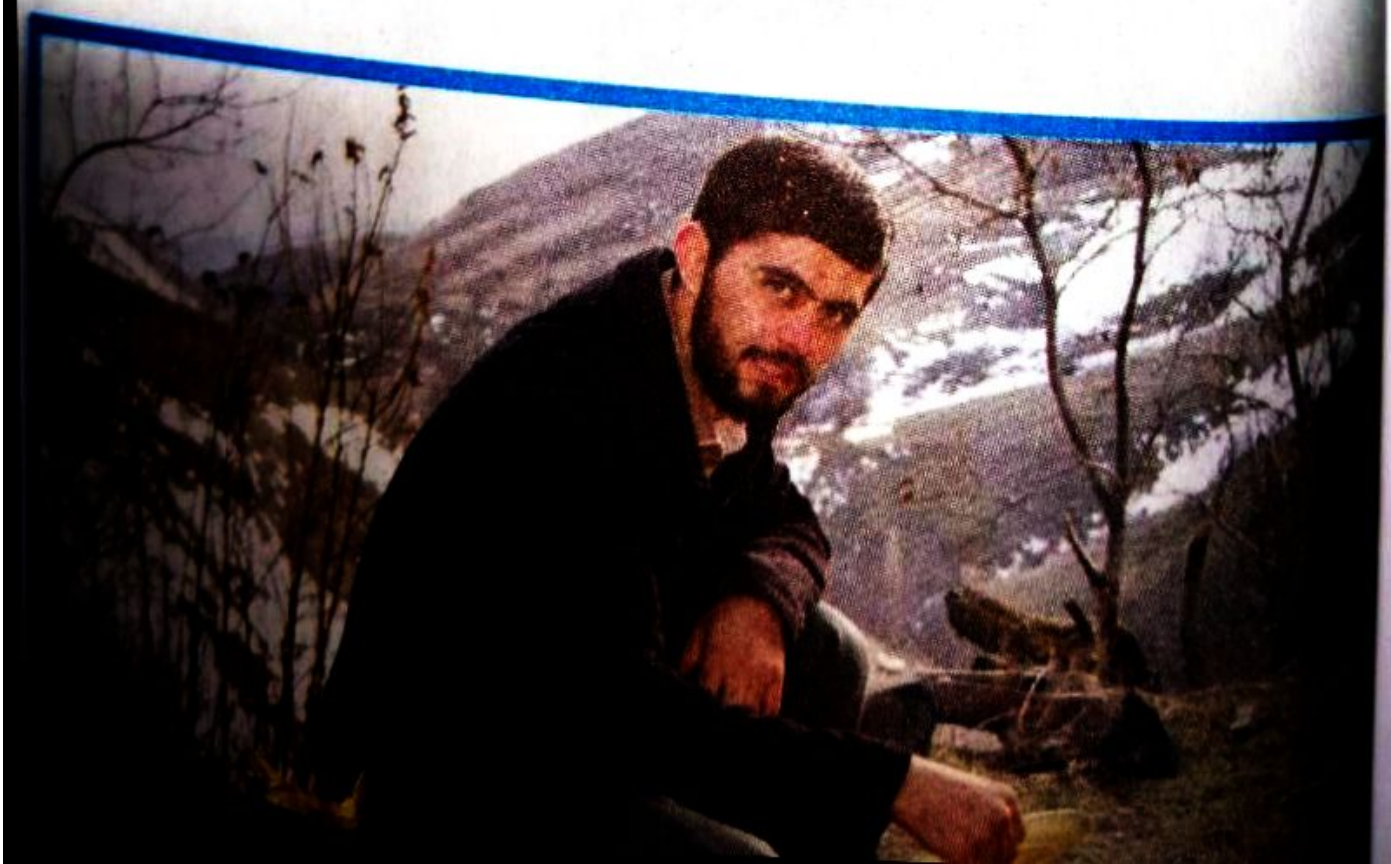

عام ١٣٩٢[١٦]: يوم العرس المصادف لعيد الغدير. (وكان يعرف أنّي أحب ورود الجوري، فاشترى لي باقة منها، فيها عشر وردات من الجوري وستة وردات من الفلّ، وارتدى القميص والبنطال الذي اشتريناه معاً، كان أجمل وأحبّ من أيّ وقت آخر. كانت سيّارة العرس من نوع پراید وقد زيّنت بشكل بسيط).

---

١٦. ٢٠١٣ م.

قرية سنبل آباد وضع قدمه على المدفأة حتى يتدفأ (ولم يكن يبتعد

من المدفأة كان شديد الإحساس بالبرد، وكان يكفي أن يبرد الهواء قليلاً حتى

عندما كان يعود من العمل كان مباشرة يضع يديه على المدفأة وأحياناً عندما

من الخارج كان يجلس على المدفأة كنت أقول له حميد يوماً ما بسبب جلوسك

سيقطع أنبوب الغاز وعلى غفلة منا لا سمح الله سنصاب بالاختناق في أحد الليالي)

الذي أقام فيه في كربلاء ... هو الشخص الثاني من الشمال

عام ١٣٨٨[١٨]: حميد وابن أخته سينا. (دخل إلى الغرفة ولعب مع أولاد أخته بالكرة، وكانوا يضربون الكرة برؤوسهم، وكان صوت حميد الذي يعلو أكثر من الأولاد، وكان أولاد أخته يقولون أحياناً: ليت خالنا كان هنا! لكنا لعبنا بالطابة معاً).

أيام النوروز لعام ١٣٩٢[١٩] فناء منزل والده. (بعد يومين من العيد ذهب إلى الهيئة بالثياب نفسها، واتصل بي في منتصف الليل، وحكى لي عن تصرفات رفاقه هناك، وغالباً ما كان رفاقه يرونه في الملابس العسكرية أو ملابس الخدمة وما إن رأوه بالمعطف والبنطال اللذين كويا بشكل لافت قال: لقد أخذ أعضاء الهيئة يسخرون مني، فيأخذون المعطف ويلبسونه، ويقومون بمشاكستي)

---

١٨. ٢٠٠٩ م.
١٩. ٢٠١٣/٣م.

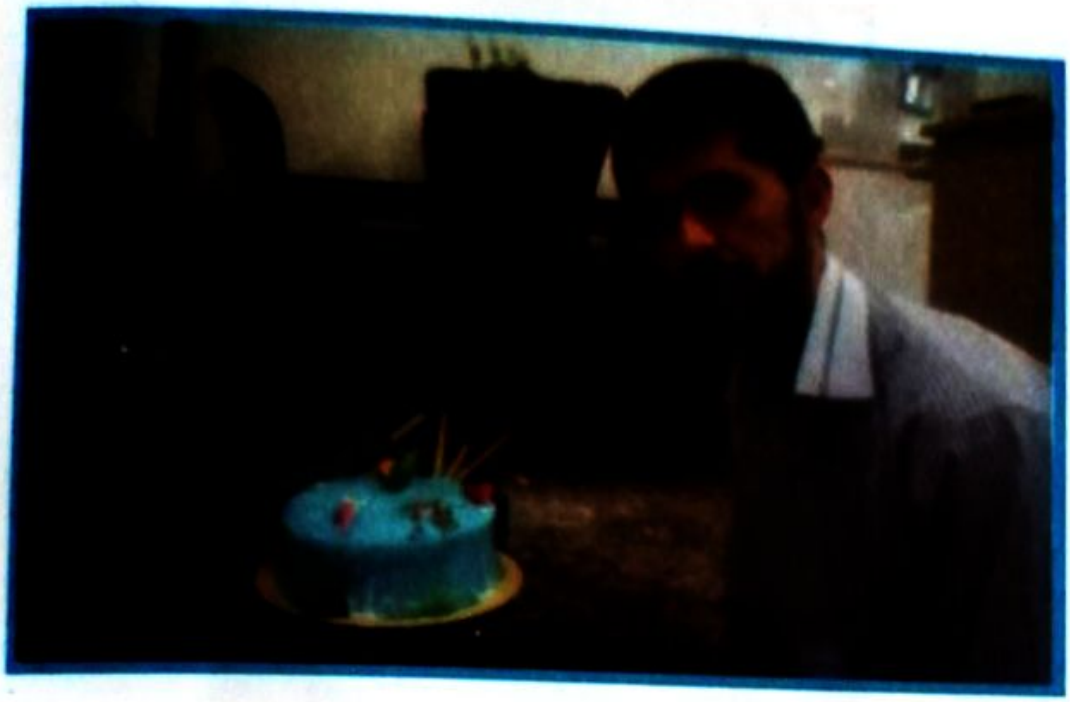

عام ١٣٩٤[٢٢]: عيد ميلاد حميد. (أعددت لاحتفال بسيط، ومنذ الصباح كنت مشغولة بتحضير الكيك، وكنت أعرف كم يحبّ حميد المثلّجات لذا أعددت له بالسحلب والحليب الطازج الكثير من المثلجات، وإن لم يطل الفرح والسعادة كثيراً عند إطفاء الشموع).

اسفند عام ١٣٩٢[٢٣] دهلاويه مقتل الشهيد شمران أنا برفقة حميد في الرحلة إلى الجنوب.

---

٢٢. ٢٠١٥ م.

٢٠١٤/٢.٢٣م.

وعندما انطلق حميد إلى مسابقات القوى المسلحة المحلية كنت أشغل نفسي بأيّ شيء حتى أخفف ألم فراقه، وكنت أدعو له في صلاتي كي يوفّق، وكان قلبي مضطرباً، واستمرّت المسابقات لمدّة ثلاثة أيام، كنت أحبّ أن يعود حميد بسرعة، ويوم المسابقة مهما حاولت لم يخبرني بالنتيجة.

وقرابة الغروب رنّ جرس الباب، وبحماس فتحت جهاز الأنترفون ورحت أنتظره على الباب، وعندما نظرت بدقّة لاحظت أنّ شفته العليا ممزّقة، وكان يمشي متثاقلاً، وكانت رؤية هذا المشهد تحمل لي الكثير من العذاب، حتّى أني لم ألتفت إلى الهدايا والميداليات التي يحملها، لقد حاز على المرتبة الثالثة في مسابقات القوى المسلحة، ومن اللحظة الأولى بدأ احتجاجي: لماذا لم ينتبه خصمك؟! لماذا شفتك ممزقة؟! ما هذه المسابقة؟! لا بدّ أنّ الحَكَم كان ينظر فقط.

١٣٩٤هـ الحصول على المرتبة الثالثة في مسابقات القوى المسلحة المحلية في قسم الإمداد.

فروردين عام ١٣٩٤[25] من اليمين: حميد، أبو الفضل أحد المتدربين في النادي وأبي.

عام ١٣٩٤[26]. حميد برفقة أخيه حسن في دورة الاستعداد للذهاب إلى سوريا. كان حسن ضابطاً وكانت تجربته في الخدمة أكثر من حميد، وعند الذهاب جرى بينهما كلام أيهما يذهب إلى سوريا، وكان هناك قانون ينص على أن يذهب من كل أسرة فرد واحد، فوقع بينهما اختلاف، حتى أنه أثناء الوداع كان كلّ إخوة حميد وأخواته إلاّ حسن لم يأت، ودّعه حميد على الهاتف وقال له: يا أخي، أنت لديك أطفال فابق وأنا أذهب، وفي المرّة القادمة اذهب أنت.

---

٢٥. ٣/٢٠١٥م.

٢٦. ٢٠١٥م.

في شهر "تير" ١٣٩٤[٢٧]: حميد برفقة أعضاء سريته، سرية ٨٢ صاحب الأمر. وقد فاقت الصور التي التقطها مع رفاقه من المجاهدين تلك التي التقطها مع زملائه في العمل، والسرّ في هذا يعود إلى علاقته الحميمة مع أولئك المجاهدين، فلم يكن يخاطبهم يوماً بلهجة الآمر، وعندما كان يحتاج إلى شيء من أحدهم، لم يكن ليقول: أحضر لي ذلك الشيء، بل كان يسأل: أين أنت لآتيك بنفسي وآخذ منك ما أريد.

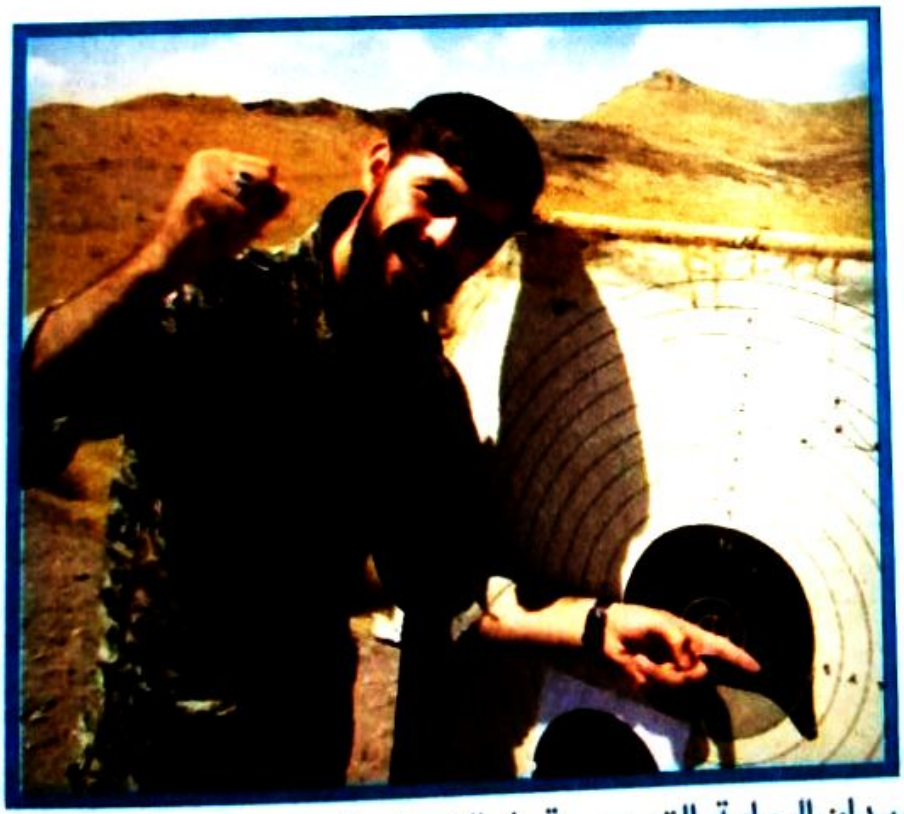

عام ١٣٩٤[٢٨]: ميدان الرماية، التدريب قبل الذهاب إلى سوريا، وقد سدّد حميد خمس رصاصات في قلب الهدف.

٢٠١٥/٦.٢٧ م.

٢٠١٥.٢٨ م.

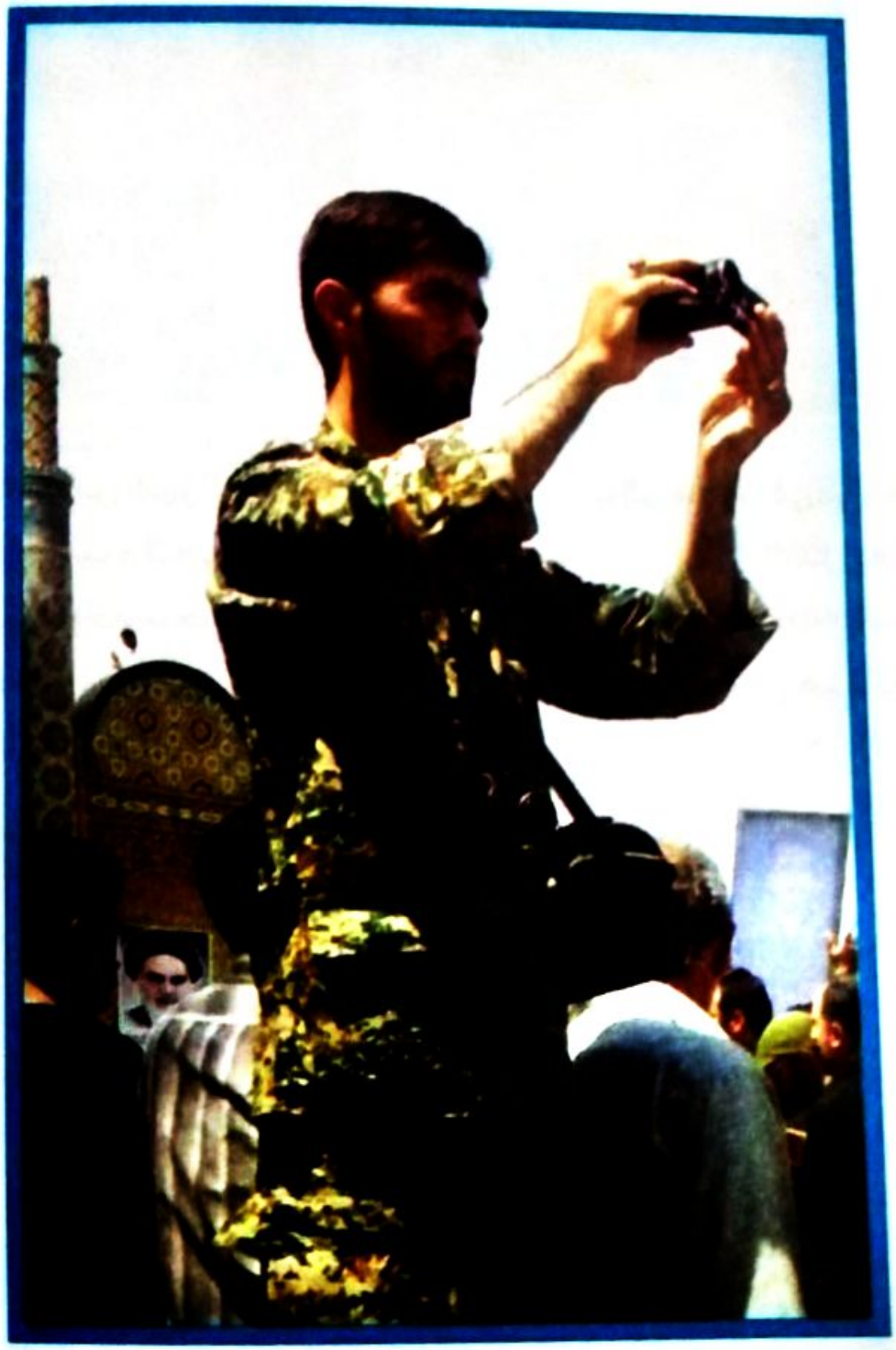

عام ١٣٩٤ حميد أثناء التقاطه صوراً في مراسم تشييع الشهيد بماني.

عام ١٣٩٢[٣٢]: دورة تدريب في سرية صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

شهر "آبان" ١٣٩٤[٣٣] بيتنا المشترك. الحناء الذي أعددته لحميد قبل ذهابه إلى سوريا.

وبعد أن أغلقت المحفظة أعددت له الحنّاء وقلت: حميد أنا لا أعلم متى تذهب ومتى ستبدأ بالقتال، أريد أن تكون كالمقاتلين الذين يضعون الحنّاء ليلة الحرب، وهذه الليلة سأحنّي لك شعرك.

سألني متعجباً: ولمَ الحنّاء؟!

فقلت: إن شاء الله إن عدت سالماً فلا شيء، ولكن إن كان نصيبك أن تستشهد، فسأضع لك الحناء هذه الليلة بنفسي، حتى يصبح يوم استشهادك هو يوم عرسك، يوم السعادة والعاقبة الحسنة لك وهو أفضل يوم لكلينا.

وجلس على الأريكة قرب المدفأة إلى شمال الخزانة في غرفة الاستقبال، وضعت على جسمه غطاء أبيضاً، ووضعت مجلة تحت قدميه، عقدت النية، ووضعت الحنّاء على شعره وذقنه وقدميه.

---

٣٢. ٢٠١٣ م.

٣٣. ٢٠١٥ م.

ما كتب بخط اليد: (وأمّا زوجتي العزيزة التي كانت محبّتي لها في هذه الحياة القصيرة تزداد يوماً بعد يوم وكان وجودي يمتلئ من عطفها والتي كانت تقف إلى جانبي كالجبل في كلّ لحظات الحياة المليئة بحالات المدّ والجزر فإنّي أرجو منها المسامحة، وأرجو منكم أن تسمحوا لها عند تغسيلي أن تبقى إلى جانب بدني مدّة لتبثّ آشجانها).

قسم من الوصية التي كتبها حميد للعائلة وقد أضاف السطر الأخير بطلب منّي...

وعملاً بالأمنية التي كانت عندي في الليلة الأخيرة والتي كتبها حميد داخل الوصيّة، تقرّر أن أبقى لدقائق مع حميد، احتضنته، ناجيته، مررت بيدي على جسده، وكنت دائماً أفكّر أنه ماذا يمكن للزوجة أن تقول في هذه اللحظات لزوجها الشهيد، وكنت حضّرت لهذه الدقائق الأخيرة كثيراً من الكلام، ولكنّي نسيتها كلّها، اقتربت برأسي من أذنه وقلت: تذكّر، أنا.... ...كثيراً كثيراً، رفعت رأسي، وكأني أنتظر جوابه، سكتّ عدّة لحظات ثمّ قلت في أذنه: حميد أنا...

وضعت يدي على وجهه للمرّة الأخيرة، حميد الذي كنت ألمس وجهه الدافئ والمليء بالمحبّة الآن هو بارد بارد، بردٌ عجيب يصل إلى داخل العظم. وكانوا قد قالوا: اتركوا عيني حميد غير مغمضتين حتى تراهما أمّه وزوجته، قبّلت عينيه وأغلقتهما.

وداع الآخر

...وص التي أحضروها من سوريا: فرشاة، خاتم در النجف، سجدة صلاة، ساعة العرس
...قلادة.

...الأيام الأكثر صعوبة بعد استشهاد حميد اليوم الذي أحضر فيه رفاقه محفظته من سوريا
...كان ذلك في الثلاثين من شهر آذر على وجه الدقّة، وفي ليلة يلدا[24] وصلت إلي حقيبة حميد
...بداية مانع أبي، ولكن برجاء منّي سلّموها إليّ، لم أرد أن أبكي أمام أبي وأمي، وفي ذلك
...كنت أختنق فقط، وعندما حلّ المساء وبعيدًا عن أعين الجميع ذهبت إلى فناء الدار
...حضنت الحقيبة، وتذكّرت كلّ ليلة يلدا كان فيها حميد إلى جانبي، ولكن الآن فقط حقيبته
...بكيت حتى الصباح. هذه هي الحقيبة التي جرّتنا إلى جدال أنا وحميد

فروردين عام ١٣٩٥[٣٥] أول سفرة "هفت سين" بعد الاستشهاد.

عام ١٣٩٥[٣٦] يوم الحرس الثوري. مزار حميد في روضة شهداء قزوين.

---

٣٥. ٢٠١٦/٣/٣٥م.

...وعندما يكون ... متعباً يتمزّق

...يشعر بالبرد، لعلّ المطر يؤذيه! رغم أنك تعلم أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنّ

...غادرت البدن، ولكنّ ذكراه لديك لا تبلى أبداً.

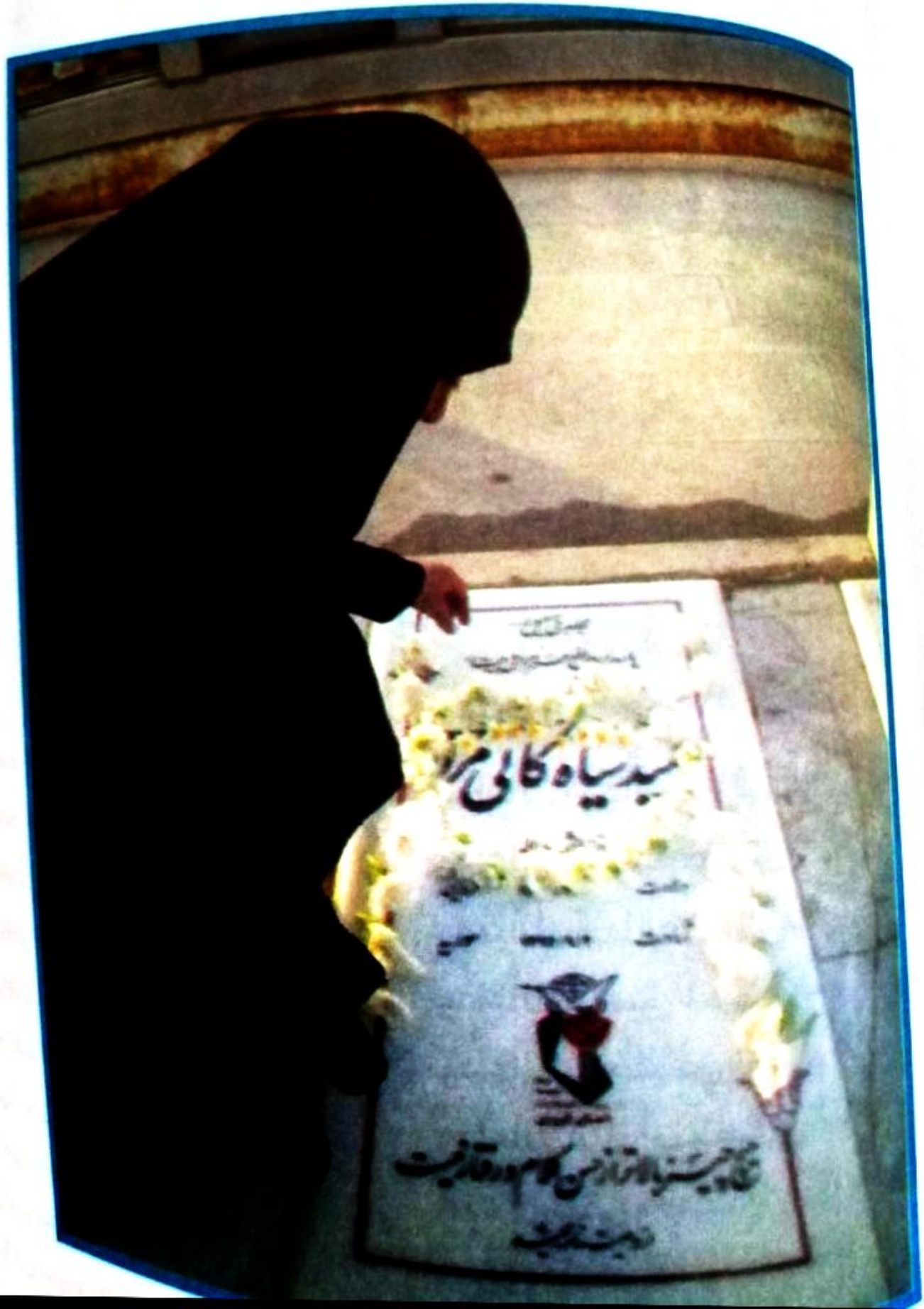

خدا حافظ ای شعر شبهای روشن
خدا حافظ ای قصه عاشقانه
خدا حافظ ای آبی روشن عشق
خدا حافظ ای عطر شعر شبانه
خدا حافظ ای همنشین همیشه
خدا حافظ ای داغ بر دل نشسته
تو تنها نمی مانی ای مانده ای من
تو را می سپارم به دلهای خسته
تو را می سپارم به میدان مهتاب
تو را می سپارم به دامان دریا
به شب می سپارم تو را تا نسوزد
به دل می سپارم تو را تا نمیرد

وداعاً لك أيها الشعر في الليالي المقمرة
وداعاً لك يا قصة العشق
وداعاً لك أيها العشق الصافي بلون السماء
وداعاً لك يا عبق شعر المساء
وداعاً لك يا جليسي الأبدي
وداعاً لك يا نار أسكنت في القلب
أنت لن تبقى وحدك، يا بقايا نفسي
أستودعك في القلوب المنكسرة
أستودعك في نور القمر
أستودعك في أمواج البحر
أستودعك في الليل حق لا ينتهي
أستودعك في القلب حق لا يموت